سلمان بن فهد العودة



سلمان بن فهد العودة

مع المصطفى ﷺ

للشيخ: سلمـان العــودة

ح الإسلام اليوم للنشر ، ١٤٣١ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العودة، سلمان بن فهد
مع المصطفى ﷺ / سلمان بن فهد العودة - ط٤، الرياض ، ١٤٣١ هـ
٤٠٨ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم
ردمك: ٤٠١ - ٩٠٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - السيرة النبوية　　أ. العنوان
ديوي ٢٣٩　　٤٢٩٧ / ١٤٣١
رقم الإيداع: ٤٢٩٧ / ١٤٣١
ردمك: ٤٠١ - ٩٠٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨



ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز : ١١٤٤٧
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net
إصدارات الإسلام اليوم
الطبعة الرابعة - صفر ١٤٣٣هـ

@salman_alodah
/SalmanAlodah
salman@islamtoday.net
www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

الرياض:
هاتف : ٠١٢٠٨١٩٢٠
فاكس : ٠١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:
هاتف : ٠٦٣٨٢٦٤٦٦
فاكس : ٠٦٣٨٣٠٠٥٣

سلمان بن فهد العودة

مع المصطفى ﷺ





مقدِّمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فهذه وقفات متأملة مع صور مشرقة من حياة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، ألقاها فضيلة الشيخ د. سلمان بن فهد العودة حفظه الله في حلقات تلفزيونية عُرِضَت وأعيدت، ولاقت استحسانًا ومتابعة.

ولأهمية هذه الوقفات، وجمال هذه المشاهد قام المكتب العلمي بمؤسسة الإسلام اليوم بإعادة تحرير هذه المادة، وخدمة النص بالتخريج، والتصحيح، وإعادة الصياغة في بعض المواضع، مع المحافظة على روح النص، واكتمال المعنى.

ونحن إذ نقدمها اليوم بهذه الصورة فإنا نقدم نوعًا من الطرح المميز في قراءة النص النبوي، والوقوف عند المعاني التربوية الهادية من خلال هذه المشاهد المنيرة.

كما نزف البشرى بأن هذه المجموعة ستكون باكورة نتاج يتتابع بإذن الله

من كتب الشيخ التي يتولَّى المكتب العلمي تهيئتها وإعدادها للطبع.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل مع الشيخ عبر (**الإيميل**)، أو (**الفيس بوك**)، أو أي وسيلةٍ أخرَى، وكلها مبيَّنة في مَطْلَع هذا الكتاب؛ لتوصيل أي ملحوظة، أو اقتراح، أو نقد، أو تعديل، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب.

نسأل الله أن يبارك لشيخنا في عمره، وينسأ في أجله، وينفع بعلمه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

وكتب

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

نائب المشرف العام على

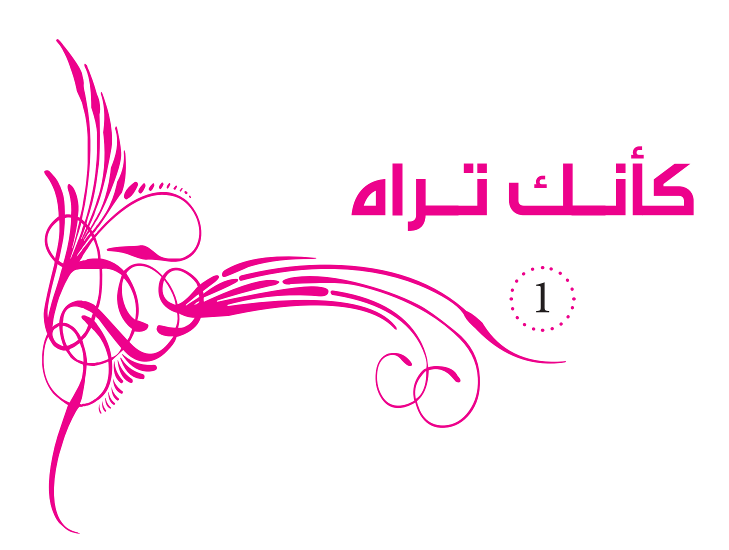
مؤسسة الإسلام اليوم

ربيع أول ١٤٢٨هـ



كأنك تراه

1



❖ صفحة مكشوفة:

إن الله تبارك وتعالى قد اختار محمدًا ﷺ واصطفاه لختم النبوة، فقال: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]. ومن ثَمَّ جعله قدوة للناس جميعًا، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

ومن هنا، فلا غرو أن تصبح سيرة النبي ﷺ صفحة مكشوفة للناس الذين عاشوا معه أجمعين.. العدو والصديق.. والرجل والمرأة.. والكبير والصغير.. والقريب والبعيد؛ فقد كانوا يعلمون أدق التفاصيل عن حياته وسيرته، وشخصيته وأموره العامة، وما لا يستطيعون رؤيته من أموره الخاصة، فقد كان أزواجه رضي الله عنهن ينقلنه للناس نقلًا مفصَّلًا.

حتى إننا نعلم اليوم من سيرته وتفاصيل حياته في البيت، وفي الأكل والشرب، وفي السفر والإقامة، وفي اليقظة والنوم والفراش، وفي قضاء الحاجة.. وفي أشياء كثيرة ما لا نعلمه عن كل المشاهير؛ بل ما لا نعلمه عن

الآباء والأمهات والأساتذة؛ بل لا أبالغ إذا قلت: إننا نعلم من سيرته ﷺ ما لا نعلمه عن أنفسنا! فربما يمارس الكثير منا أعمالًا بشكل تلقائي عفوي، ولو قيل له في ذلك، لقال: أنا لم أنتبه. وتردد وشك في صحة نسبتها إليه، ولكننا نقرأ ونعلم تفاصيل سيرة نبينا محمد ﷺ، تلك السيرة المحبرة الجميلة لسيدنا وإمامنا وقدوتنا ﷺ.

❖ سيرة محفوظة:

لقد أذن الله أن تحفظ هذه السيرة بتفاصيلها، وحين تقرأ في كتب الشمائل المحمدية، ككتاب «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذي، و«مختصره» للشيخ الألباني، وغيره؛ تجد أدقَّ التفاصيل عنه ﷺ.

حتى إنهم يتحدثون عن الشيب الذي في رأسه ولحيته ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: «ما عددتُ في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شعرةً بيضاء»[(١)]. وفي رواية: «وليس في رأسه ولحيته عشرونَ شعرةً بيضاءَ»[(٢)]. وفي رواية: «لقد قبضَ اللَّه عز وجل رسولَهُ وما فَضَحَهُ بالشَّيْبِ، ما كان في رأسه ولحيته يوم مات ثلاثونَ شعرةً بيضاء»[(٣)].

حتى عدد الشعرات البيض في رأس ولحية النبي ﷺ مكتوب ومدون، بل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠١٨٥)، وأحمد (١٢٧١٣)، وعبد بن حميد (١٢٤٣)، وابن حبان (٦٢٩٣)، وينظر: مختصر الشمائل (٣١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٧٨٦)، وأحمد (١١٩٨٣، ١٣٥٤٣)، والبخاري (٣٥٤٧، ٣٥٤٨، ٥٩٠٠)، ومسلم (٢٣٤٧)، والترمذي (٣٦٢٣)، وابن حبان (٦٣٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٤٩٦)، وينظر: كشف المشكل (٣/ ٢٢٢).

محدد أين توجد هذه الشعرات!

إن من أجمل ما في هذه السيرة النبوية العطرة أن الله سبحانه وتعالى حين أذن أن تكون قدوة للناس جميعًا، فإنه سبحانه أقام الحجة بحفظ هذه السيرة وتدوينها وضبطها بشكل لا مثيل له؛ فقد اعتنى علماء الأمة ومؤرخوها بحفظ سيرة نبينا ﷺ اعتناء بالغًا، وسبقوا في ذلك الأمم السابقة؛ بل لا مجال للمقارنة بين ما بذله علماؤنا في هذا المضمار، وبين ما هو موجود عند الأمم الأخرى، مما سطروه عن أنبيائهم ورسلهم.

فلو سألت اليهود -مثلًا- عن موسى عليه السلام، لأتوا بأشتات من الروايات المضطربة، التي ليس لها زمام ولا خِطام ولا إسناد.

لكن علماء المسلمين دوَّنوا أدق التفاصيل عنه ﷺ بأدق الأسانيد، وحدَّدوا أسماء الرواة؛ حتى إن علم الجرح والتعديل يوجد فيه نحو خمسمائة ألف اسم في ذلك الزمن القديم، ولم يكن عند هؤلاء العلماء حاسبات ولا طابعات ولا غيرها من آلات التدوين والتدقيق، ولكن مستوياتهم في الحفظ والإتقان والضبط بلغت مبلغًا عظيمًا، حتى إنها لتفوق في بعض الأحيان ما وصل إليه التقدم العلمي من ضبط وإتقان بأجهزته المعروفة؛ وقد بذلوا كل ذلك من أجل المحافظة على سنة النبي ﷺ وهديه.

❖ سيرة مزكاة:

لقد اختار الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ على علم، فزكى ظاهره وباطنه، وقوله وفعله، ومظهره ومخبره.

ومما يلفت النظر عند المطالعة في السيرة النبوية: أن كل سيرة النبي ﷺ تدعو إلى محبته، حتى شكله الظاهر ﷺ، فأنت حينما تقرأ تفاصيل شكله، ومظهره، وشعره، ووجهه، وجماله، وملبسه، وهيئته، تشعر بالحب يتضاعف في قلبك، وبالروح الإيمانية تزداد قوة ويقينًا.

أما خُلقه ﷺ وسلوكه وتعامله مع الناس، فهو أمر آخر أشد عجبًا! فكل ما في النبي ﷺ يدعو إلى محبته.

ولهذا كانت محبته ﷺ من علامات الإيمان به، فمن مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله: أن تشعر في قلبك بمحبة صادقة لهذا النبي الأمي الكريم ﷺ.

❖ محبة تنمو بالقراءة:

ولا شك أن هذه المحبة تزكو وتنمو بقراءة السيرة النبوية، فيا حبذا أن يكون لك ورد تقرؤه من السيرة النبوية، فتختار مختصرًا صغيرًا من كتب السيرة النبوية تقرؤه بين الفينة والأخرى، لتحكم ربط علاقتك مع الرسول ﷺ، حتى لا يكون اقتداؤك مجرد كلمة تقال، وإنما تعيش مع النبي ﷺ في تقلباته وأطوار حياته، وتعلم عنه الكثير، من أموره وأحواله وأيامه.

إن بعض شبابنا اليوم ربما أصبحوا بسبب الضخ الإعلامي الهائل من القنوات الفضائية والإنترنت والوسائل الكثيرة يعرفون الكثير عن نجوم الفن، وأبطال الرياضة، ونجوم الشاشة! وصار عندهم اهتمام ومتابعة للمعلومات التي تنشر عنهم، بل يسارعون إلى تقليدهم!

ولا تستغرب أن تجد فتاة في بيئة محافظة، وقد تكون من أسرة طيبة متدينة،

وحين تنظر إلى هيئتها وشكلها وملبسها، وتسريحة شعرها، وطريقة تصرفها، بل وإلى لغتها وألفاظها، والكلمات التي ترددها، تجد أنها تحاكي ممثلة، أو فنانة، أو مذيعة رأتها على الشاشة، واقتدت بها، وشعرت بأن شخصيتها تتحقق من خلال محاكاة وتقليد هذه الشخصية التي أعجبت بها، وهكذا الحال بالنسبة لكثير من شباب المسلمين.

❖ ربط الجيل بالسيرة:

إن الواجب علينا أن نعيد تأهيل شبابنا وربطهم بتاريخنا الإسلامي، وخاصة بسيرة النبي محمد ﷺ، ولو أنا عرضنا سيرته وشخصيته بالشكل الصحيح لأولادنا وبناتنا، لما ابتغوا عنه بديلًا.

❖ العفوية بلا تكلُّف:

ومَن يقرأ سيرة النبي ﷺ يلاحظ البساطة والعفوية المباشرة، يقول له ربه سبحانه: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦].

فليس في سيرته ﷺ تكلف ولا تعسف ولا صعوبة.

ولكن حين تقرأ سيرة بعض العلماء أو العظماء، تجد أن هؤلاء قد يُلْزِمون أنفسهم بألوان من التعامل أو ببرامج معينة، يشعر الإنسان عند قراءتها أنه عاجز عن تطبيقها والاقتداء بها؛ لكن حين تقرأ سيرة النبي ﷺ تشعر بأنها قريبة منك، وأن بمقدورك أن تقتدي به ﷺ.

لقد قرأتُ سير كثير من العلماء، كالأئمة الأربعة، وغيرهم من أئمة الإسلام، بل ومن الصحابة والتابعين، فوجدتُ أن كثيرًا من العلماء لهم منزلة وعظمة في

جوانب معينة، لكن حينما تقرأ سيرة هذا العالِم تشعر بأن بينك وبينها برزخًا وصعوبة، وأنك لن تستطيع أن تحاكيه أو تقلده في كثير من الأمور، لكن حينما تقرأ سيرة النبي ﷺ تجدها قريبة منك، سهلة التناول والتطبيق، وتجد أن كل إنسان يستطيع أن يقتدي بهذه السيرة، فهي ليست خاصة بفئة معينة، أو طبقة خاصة من طبقات المجتمع.

❖ السيرة للجميع:

فالحاكم يجد في سيرة النبي ﷺ أُنموذج العدل والإنصاف والتواضع، وحفظ الحقوق والأموال، ورد المظالم لأهلها، ووضع الأمور في نصابها.

والعالم يجد في سيرته ﷺ طريقة نشر العلم وتوصيله إلى الناس.

والداعية يجد في سيرته ﷺ كيفية الصبر على ما يلاقيه، وكيفية إيصال رسالته وصوته إلى الآخرين.

والأب يجد في سيرته ﷺ كيفية التعامل مع الأولاد، ومراعاة مستواهم وظروفهم.

والزوج يجد في سيرته ﷺ كيفية التعامل مع الزوجة، والصبر على ما قد يصدر منها.

وهكذا **الزوجة** -أيضًا- تجد في سيرته ﷺ وتوجيهاته، وتعليمه لنسائه، ومعاملة نسائه معه ﷺ ما يعينها في التعامل مع زوجها.

وهكذا.. فالغني والفقير، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر، والمنتصر والمهزوم، يجد بغيته في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، فقد تقلَّبت

به ﷺ الأحوال كلها، وذاق منها الكثير، وكان في كل الأحوال أُنموذجًا للعبد الرسول المطيع لربه، الذي يرى من نفسه قدوة لغيره ﷺ.

إن هذا النبي الأمي ﷺ هو نعمة من الله تبارك وتعالى ورحمة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فلم يكن رحمة للمسلمين فحسب، ولا رحمة لفئة معينة كالعرب -مثلًا- فحسب، بل هو رحمة للعالمين بكل ما جاء به من الحق والهدى والنور، ولقد حقنت دماء، وحفظت حقوق، وقامت مصالح عظيمة للبشرية، كلها بفضل الله تبارك وتعالى، ثم بفضل بعثة هذا النبي الأمي الكريم ﷺ.

❖ بناة الحضارة:

إن هذه الأمة الأمية، التي لم تكن تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، أقامت حضارة من أعظم الحضارات في التاريخ، وأخذت حضارات الأمم السابقة وهذبتها، وأعادت صياغتها، ثم أنتجتها للبشرية، فشهدت البشرية فتوحات عظيمة لم تكن فتوحات إمبراطورية، تعتمد على القسوة والتعسف والظلم، وإنما كانت تعتمد على الرحمة.. لقد كانت تفتح القلوب قبل أن تفتح البلاد.

رَسُولَ العُلَى وَالفَضْلِ وَالخَيْرِ وَالهُدَى
لِكُلِّ سطُورِ المَجْدِ اِسْمُكَ مُبْـتَـدَا
وَلِي فِي مَـعَـانِـيـكَ الحِسَانِ تَــأَمُّـلٌ
سَمِـعْـتُ به قَلْبِي يَقُـولُ مُـحَـمَّـدَا

وَيَـهْـتَـزُّ لِلـذِّكْـرَى حَنِـينًا وَحُـرْقَـةً
فَيَهْتَاجُه الشَّوْقُ الَّذِي جَاوَزَ المَدَى
وَيَغْمُـرُه فَـيْـضٌ مِـنَ الـوَجْدِ سَـابِـغٌ
يَضُـوعُ بِـه قَلْبِي أَرِيجًا مُـوَرَّدَا(١)



(١) للشاعر: وليد الأعظمي.

كأنـك تــراه

2



❖ ظاهر .. حتى للخصوم:

مُحَمَّدٌ أَنْقَذَ الدُّنْيَا بِدَعْوَتِــهِ ... وَمِنْ هُداهُ لَنَا رَوْحٌ وَرَيْحَانُ

لَوْلاهُ ظَلَّ أبو جَهْلٍ يُضَلِّلُنَا ... وَتَسْتَبِيحُ الدِّمَا عَبْسٌ وَذُبْيَانُ(١)

لم يكن في سيرة النبي ﷺ سر من الأسرار، بل كانت سيرته كتابًا مفتوحًا مكشوفًا في غاية الوضوح، ففي مكة كان المشركون الوثنيون يحيطون به ﷺ، ثم في المدينة كان من حوله اليهود والمنافقون والوثنيون، وكانت جزيرة العرب كلها عبارة عن مدينة لملاعب الوثنية، وكانت الأوثان تنصب إلى جوار الكعبة، والأعداء يتآمرون على النبي ﷺ للقضاء عليه.

❖ القرآن يُدوِّن العتاب:

وتعجب أشد العجب من أموره الخاصة في البيت حين تُعلَن في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن

(١) للشاعر: وليد الأعظمي.

﴿تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب:٣٧].

تخيل لو أن والدك أو شيخك قال لك في مجلس فيه عشرون شابًّا: يا فلان، أنت تخفي في نفسك أشياء والله يبديها، وأنت تخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

ماذا سيكون شعورك وإحساسك؟! سينتابك كثير من الامتعاض والانزعاج والقهر،وسترى أن هذا ليس وقت هذه الكلمة، وسوف تقول: كان من المفترض أن يهمس بها في أذني.

لكن تخيل هذا النبي العظيم يخاطبه ربه سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات، بقرآن يُتلى إلى يوم القيامة، فيقول له: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾.

ثم يلقي النبي ﷺ هذه الآيات إلى أصحابه من الشباب والشيوخ وحدثاء العهد بالإسلام وغيرهم، لتُتلى ويُصلِّى بها، ويتداولها الناس، وتدوَّن في المصاحف، ويسمعها حتى غير المسلمين من المنافقين والمشركين واليهود، الذين يتآمرون عليه، ومع ذلك لم يأبه النبي ﷺ أن يستغل الأعداء هذا المعنى أو يشهروا به أو يسيؤوا إلى صفحته البيضاء.

إن سيرة النبي ﷺ مكشوفة وظاهرة، ولم يكن ﷺ يخفي شيئًا مما أنزل الله تبارك وتعالى عليه قط، كما قالت عائشة رضي الله عنها[1].

---

(١) قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب:٣٧].

أخرجه أحمد (٢٦٠٨٣، ٢٦٣٣٨)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٢٠٧)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤١) (١١١)، ومعناه من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري (٧٤٢٠).

بل يأتيه الرجل الأعمى، وهو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، فيقول: يا رسول الله، علِّمني مما علَّمك الله. ورسول الله ﷺ مشغول بدعوة الكبراء، فيضيق صدر النبي ﷺ بذلك؛ لأنه يريد أن يخصص هذا الوقت لدعوة آخرين، وهو ﷺ لم يكن يتشاغل عنه بأكل أو شرب أو نوم أو أمر مباح، بل كان يتشاغل بأمر يتعلق بالدعوة وفي مصلحتها، فينزل العتاب من السماء على قلب محمد ﷺ وعلى لسان جبريل عليه السلام، ويتلوه ﷺ، ويصلِّي به في الصلوات الجهرية، ويقرؤه بأعلى وأرفع صوت ليسمعه القريب والبعيد: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠].

فسمَّى الله ذلك تلهيًا، مع أنه لم يكن لهوًا منه ﷺ، وحاشاه! وإنما كان انشغالًا بأمر آخر، هو من الدعوة ومصالحها، فيؤدبه ربه، ويعلمه أن الناس سواسية، وأن مَن تقبَّل الحق ولان له واستجاب له، وأشرب قلبه حبه، فهو الجدير والحري بأن يُهتم به، ويُستجاب له، ويُستمع إليه[1].

بل أشد من ذلك أن تقع في المدينة المنورة سرقة، فيختلف الناس مَن الذي سرق؟ فتشير أصابع الاتهام إلى بعض اليهود، وبعضها تشير إلى بعض المسلمين الذين يتظاهرون بالإسلام ، فكأن النبي ﷺ مال إلى تبرئة هؤلاء المسلمين، وهنا ينزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ

---

(١) ينظر: الموطأ (٤٧٦)، وجامع الترمذي (٣٣٣١)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٥١)، ومسند أبي يعلى (٣١٢٣، ٤٨٤٨)، وصحيح ابن حبان (٥٣٥)، والمستدرك (٢/ ٥٥٨)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢١٢-٢١٣)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٧١).

ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٧].

ولو وقفنا عند هذا المعنى العظيم في مجتمع المدينة؛ المجتمع الذي لا يزال منقسمًا على نفسه: فيه اليهود والمنافقون والوثنيون والمؤمنون وغيرهم، وفيه القبائل المختلفة المتعددة، ثم يظل الوفاء للحق والصبر عليه والإيمان به هو المبدأ الذي يربِّي الله تعالى عليه نبيه محمدًا ﷺ في كل الظروف، حتى ينزل القرآن يعاتبه على هذا الموقف، ويبيِّن له أنَّ السرقة هي من هؤلاء المنافقين المنتسبين إلى الإسلام، وليست من أولئك اليهود الذين دارت حولهم أصابع الاتهام[١].

إن هذا الوضوح والمباشرة في شخصية النبي ﷺ هي اللائقة برجل جاءت سيرته قدوة للعالمين جميعًا.

❖ وصف شعر رأسه ﷺ:

إنك لتعجب وأنت تقرأ تفاصيل شخصية النبي ﷺ الذاتية، ولقد تكلَّم العلماء عن خلقه الظاهر بأدق التفاصيل، فوصفوا شعر رأسه ﷺ، وأنه كان ليس بالجَعْد القَطَطِ، ولا بالسَّبِط، وإنما هو وسط بين ذلك[٢]، وأنه يطول أحيانًا

---

(١) ينظر: جامع الترمذي (٣٠٣٦)، وتفسير الطبري (٥/ ٢٦٨-٢٧٠)، ومعجم الطبراني الكبير (١٩/ ٩) (١٥)، والمستدرك (٤/ ٤٢٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٥١-٥٥٢).

(٢) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٥)، ومسند أحمد (١٣٥٤٣)، وصحيح البخاري (٣٥٤٧، ٣٥٤٨، ٥٩٠٠)، وصحيح مسلم (٢٣٤٧)، وجامع الترمذي (٣٦٢٣، ٣٦٣٨)، ومسند أبي يعلى (٣٦٤٣)، وصحيح ابن حبان (٦٣٨٧).

حتى يضرب إلى منكبيه، وأحيانًا يقصر حتى يصل إلى أنصاف أذنيه[١].

وكان ﷺ يعتني بشعره، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا امتشط بالمُشط، كأنه حُبُك الرمال[٢] تباشر ذلك بالمشط[٣].

وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ مكة مرة وله أربع غدائر»[٤].

وفي رواية: «رأيت في رأس رسول الله ﷺ ضفائر أربعًا»[٥].

❖ وصف وجهه الطاهر ﷺ:

وكذلك وصفوا ما يتعلَّق بوجه النبي ﷺ، فقد كان مستدير الوجه[٦]، ليست استدارة كاملة، لكنه أشبه بالقمر المكتمل، فقد كان وجهه ﷺ أبيض مشربًا بالحمرة، كأنما الشمس أو القمر تجري فيه[٧].

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٢٠٥١٩، ٢١٠٣٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٥)، ومسند أحمد (١٢١٣٩، ١٢١٩٦، ١٨٦٨٨)، وصحيح البخاري (٥٩٠١، ٥٩٠٣، ٥٩٠٤)، وصحيح مسلم (٢٣٣٧، ٢٣٣٨)، وسنن أبي داود (٤١٨٦)، وسنن النسائي (٥٠٦١).

(٢) جمع: حبيكة، وهي الطريق في الرمل.

(٣) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٠٠)، وتاريخ دمشق (٣/ ٣٥٧)، وإحياء علوم الدين (٢/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٩٣٤، ٢٧٤٢٩)، وأبو داود (٤١٩١)، والترمذي (١٧٨١)، وابن ماجه (٣٦٣١)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٢٩) (١٠٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢٧٤٣٠)، وأبو داود (٤١٩١)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٢٩) (١٠٤٨)، وينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٢٣).

(٦) ينظر: صحيح مسلم (٢٣٤٤)، وصحيح ابن حبان (٦٢٩٧).

(٧) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٥، ٣١٨٠٧)، ومسند أحمد (٩٤٤)، وصحيح مسلم (٢٣٤٠، ٢٣٤٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٩٩).

وَأَبيَضَ يُستَسْقَى الغَمامُ بِوَجهِهِ ثِمالُ اليَتامى عِصمَةٌ لِلأَرامِلِ[(١)]

وكان النبي ﷺ واسع الجبين، حتى تقول عائشة رضي الله عنها: «وكان ﷺ أَجْلَى الجبين، إذا طلع جبينه من بين الشعر، أو اطلع في فلق الصبح، أو عند طَفَلِ الليل[(٢)]، أو طلع بوجهه على الناس، تراءوا جبينه كأنه ضوء السراج المتوقِّد يتلألأ»[(٣)].

وكانت عيناه زهراوين واسعتين، كأنه أكحل ﷺ[(٤)].

وكان أنفه ﷺ قائمًا أَقْنَى، أي: وسط الأنف مرتفع عن بقية الأنف[(٥)].

وكانت وَجْنَتَاهُ ﷺ وخداه حافنين، أبيضين مستقيمين[(٦)].

---

(١) أخرج هذا البيت ابن أبي شيبة (٢٦٠٦٧)، وأحمد (٢٦، ٥٦٧٣)، والبخاري (٩٦٣)، وابن ماجه (١٢٧٢) من شعر أبي طالب في الرسول ﷺ، وهو في ديوانه (ص٦٧).

(٢) طَفَلَ الليل: أقبل ظلامه.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (١/ ٥٩٧) -مختصرًا-، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٥٤٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٩٨-٣٠٦)، وابن عساكر (٣/ ٣٥٦-٣٦٣). وينظر: السيرة الحلبية (٣/ ٤٣٥)، وتخريج أحاديث الإحياء (٦/ ١٦٨)، والبداية والنهاية (٨/ ٤٥٣).

(٤) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٦)، ومسند أحمد (٢٠٩٥٥)، وجامع الترمذي (٣٦٤٥)، ومختصر الشمائل (١٩٣، ٣٤٧)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٠٢٤)، والمستدرك (٢/ ٦٦٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢١٢)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤٣٦)، والشمائل الشريفة للسيوطي (١/ ٢٧).

(٥) ينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٤٢٢)، ومختصر الشمائل (٦)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢١٥).

(٦) ينظر: الأدب المفرد (١١٥٥)، ومختصر الشمائل (٦)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٨٧).

وكان ﷺ ضَلِيع الفم[١]، مُفَلَّج الأسنان[٢]، وكان ﷺ يهتم بنظافة فمه بالسواك[٣].

وكانت لحيته ﷺ كَثَّة[٤]؛ لكنها لم تكن بالكبيرة، ولكن بين ذلك، وكان ﷺ يهتم بتسريحها ودهنها وتنظيفها وتطييبها[٥].

❖ جسده الطيب ﷺ:

وكان جسده الطاهر ﷺ وسطًا، فليس بالطويل البائن الشديد الطول، ولا

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٤٢٢)، ومسند أحمد (٢٠٩٥٠، ٢١٠٢٤)، وصحيح مسلم (٢٣٣٩)، وجامع الترمذي (٣٦٤٧)، ومختصر الشمائل (٦)، وصحيح ابن حبان (٦٢٨٨، ٦٢٨٩)، ومعجم الطبراني الكبير (١٩٠٤)، (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، وشعب الإيمان (١٤٣٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢١٥)، وتاريخ دمشق (٣/ ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٨).

(٢) ينظر: مختصر الشمائل (٦)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، وشعب الإيمان (١٤٣٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢١٥)، وتاريخ دمشق (٣/ ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٨).

وضليع الفم: أي: كبير الفم. والفلج -بالتحريك- فرجة ما بين الثنايا والرباعيات.

(٣) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٢١٠٦، ١٩٦٠٥)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٧٨٣، ١٧٩٠)، ومسند أحمد (٦٠٧، ٩٦٧، ٢٥٥٩٤)، وصحيح البخاري (٢٤٥، ١١٣٦)، وصحيح مسلم (٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥).

(٤) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٧)، ومسند أحمد (٦٨٤، ٢١٠٣٦)، وصحيح مسلم (٢٣٤٤)، وسنن النسائي (٥٢٣٢)، وصحيح ابن حبان (٦٣١١، ٦٢٩٧)، ومعجم الطبراني الكبير (١٩١٦)، وتخريج أحاديث الإحياء (١/ ٨٥، ٨٦).

(٥) ينظر: مسند أحمد (٢٠٨٢٦، ٢٠٨٤٣، ٢٠٨٧٢)، وصحيح البخاري (٢٩٦، ١٥٤٥، ٥٩٢٣)، وصحيح مسلم (٢٣٤٤)، وسنن النسائي (٥١١٤)، وصحيح ابن حبان (٦٢٩٧)، ومعجم الطبراني الكبير (١٩٦٣)، والمستدرك (٢/ ٦٦٤) (٤٢٠٢)، وشعب الإيمان (٦٤٦٣، ٦٤٦٥).

بالقصير الشديد القصر، ولكنه وسط بين ذلك[١].

❖ لباسه ﷺ:

أما ما يتعلق بلباسه ﷺ: فقد كان يلبس ما تيسر، فلا يتكلَّف مفقودًا ولا يرد موجودًا، لبس جُبَّة رُومِيَّة [٢]، ولبس العِمامة[٣]، ولبس الإزار والرداء[٤].

وكان يحب الطَّيِّب من اللباس والنظيف، ولكنه كان لا يبالغ ولا يتكبر، ولا يطيل ثوبه، وقد نهى ﷺ عن ذلك، لا سيما إذا صحبه الخيلاء، فقال: «**لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ**»[٥].

❖ تواضعه ﷺ:

إن النبي ﷺ كان أُنموذجًا للإنسان البعيد عن التكلُّف، البعيد عن الخيلاء

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٦٧٨٦)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣١٨٠٧)، ومسند أحمد (١٠٥٣، ١٣٥٤٣)، وصحيح البخاري (٣٥٤٧-٣٥٤٩، ٥٩٠٠)، وصحيح مسلم (٢٣٤٧).

(٢) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٧٤٧، ٧٥٠)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٨٥٩، ١٨٧٧)، ومسند أحمد (١٨١٥٩، ١٨٢٦٥)، وصحيح البخاري (٣٦٣، ٢٩١٨، ٥٧٩٨، ٥٧٩٩)، وصحيح مسلم (٢٧٤)، وسنن أبي داود (١٥١)، وجامع الترمذي (١٧٦٨)، وسنن ابن ماجه (٣٥٦٣)، وسنن النسائي (٨٢، ١٢٥)، وصحيح ابن خزيمة (١٦٤٥).

(٣) ينظر: مسند أحمد (١٥١٩٦، ١٤٣٧٥)، وصحيح مسلم (١٣٥٨، ١٣٥٩)، وسنن أبي داود (٤٠٧٦، ٤٠٧٧)، وسنن ابن ماجه (١١٠٤، ٣٥٨٧)، وجامع الترمذي (١٦٧٩، ١٧٣٥)، وسنن النسائي (٢٨٦٩، ٥٣٤٦).

(٤) ينظر: مسند أحمد (٢٠٨، ٢٢١، ٢٦٢٧٥)، وصحيح البخاري (١٥٤٥)، وصحيح مسلم (١٣٦٥، ٢٠٨٠).

(٥) أخرجه أحمد (٥٣٥١، ١١٠٢٣)، والبخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥)، وأبو داود (٤٠٨٥)، والترمذي (١٧٣١)، وأبو يعلى (٥٥٧٢).

والكبرياء، الحريص على أن يكون قريبًا من الناس في مأكله ومشربه، وملبسه ومركبه، ومجلسه، وقد نام ﷺ يومًا على سرير فأثرت ناحية السرير في جنبه[١]؛ لأنه لم يكن بينه وبينه فراش وَثِير[٢]؛ بل كان يجلس أحيانًا على التراب، وربما أكل على الأرض، وقعد على الحصير[٣].

وفي يوم من الأيام دعته مُليكة جدة أنس بن مالك رضي الله عنهما إلى طعام صنعته له، فجاء النبي ﷺ فأكل من الطعام، ثم قال لهم: «**قُومُوا فَلأُصَلِّيَ بِكُمْ**». قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسودَّ من طول ما لُبِسَ[٤]، فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله ﷺ، وصففت أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلَّى لنا ركعتين ثم انصرف[٥].

ولو شاء ﷺ لجعلت له الجبال ذهبًا وفضة[٦]، لكنه ﷺ أحب البساطة

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٢٢، ٢٧٤٤، ٣٧٠٩)، وصحيح البخاري (٢٤٦٨، ٤٩١٣، ٥٨٤٣)، وصحيح مسلم (١٤٧٩).

(٢) أي: ثخين لين.

(٣) ينظر: سيرة ابن إسحاق (١/ ١٧٥)، ومسند أحمد (٣٧٠٩)، وصحيح البخاري (١٩٨٠، ٥٨٦٢)، وصحيح مسلم (١١٥٩).

(٤) أي: فُرش.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٣٦٢، ١٢٥٢٩، ١٢٧٠٣)، والبخاري (٣٨٠، ٨٦٠)، ومسلم (٦٥٨)، وأبو داود (٦١٢)، والنسائي (٨٠١)، وابن حبان (٢٢٠٥).

(٦) ينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٣٨١، ٤٦٦)، ومسند أحمد (٢٢١٩٠)، وجامع الترمذي (٢٣٤٧)، والآحاد والمثاني (٢٢٥٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٧٨)، وأخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ (ص٢٦٧)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (١٤٠٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٤٥)، والشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٤١)، وتاريخ دمشق (٤/ ١٣٤)، والبداية والنهاية (٣/ ٦٨)، (٦/ ٦٢، ٣٢١)، وفتح الباري (١١/ ٢٩٢)، والخصائص الكبرى (٢/ ٢٩١).

والعفوية، وترك التكلف، وأحب أن يكون قريبًا من الناس، يشاركهم في كل ما يفعلون، ولا يشق عليهم، أو يكلفهم ما لا يستطيعون.



أبـو طالـب



❖ سر إلهي:

كان مما صنعه الله تعالى لنبيه ﷺ أن قيَّض له أبا طالب يحوطه ويحميه وينصره، وكان على دين قومه، ولعل هذا من بديع الأسرار، فإنه لو كان مسلمًا ربما لم يستطع أن يصنع الذي صنع، ولضعف مقامه، لكن بقاءه على دين قومه كان من أسباب القوة والتمكين له ومراعاة قريش لهذا الجانب.

جاءت إليه قريش وقالوا له: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وفعل كذا وكذا، فلو أعطيتنا إياه، ونعطيك أحد أبنائنا بدلًا عنه، فقال: «والله ما أنصفوني، تعطوني ابنكم أَغْذُوه لكم، وأعطيكم ابن أخي تقتلونه، هذا والله لا يكون أبدًا، أفلا تعلمون أن الناقة إذا فقدت ولدها لم تحن إلى غيره»[١].

وجاءوه يومًا آخر فقالوا له: ما نحن يا أبا طالب، وإن كنت فينا ذا منزلة بسنك وشرفك وموضعك، بتاركي ابن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكف عنا ما قد أظهر بيننا من شتم آلهتنا، وسب آبائنا، وعيب ديننا، فإن شئت فاجمع لحربنا،

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٢/ ١٣٣)، وطبقات ابن سعد (١/ ٢٠٢)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٤٥)، وتاريخ دمشق (٦٦/ ٣٤٤)، والبداية والنهاية (٣/ ٦٣).

وإن شئت فدع، فقد أعذرنا إليك، وطلبنا التخلص من حربك وعداوتك، فكل ما نظن أن ذلك مخلص، فانظر في أمرك، ثم اقض إلينا قضاءك.

فدعا النبيَّ ﷺ وقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا، وآذوني قبل، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكفف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذي فرَّق بيننا وبينهم. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا عَمَّاهُ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي والْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**». ثم استعبر رسولُ الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي. فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

وفي رواية: قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «**أَتَرَوْنَ هَذِه الشَّمْسَ؟**». قالوا: نعم. قال: «**فَمَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لي مِنْها شُعْلَةً**». فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا[1].

جاءته قريش مرة أخرى، فوقف أمامهم، وبيَّن لهم أنه لا يمكن أن يتخلى

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٣٦)، والطبري في تاريخه (٢/ ٣١٥)، وأبو يعلى (١٢/ ١٧٦) (٦٨٠٤)، وابن عساكر (٤١/ ٤-٥)، (٦٦/ ٣١٥)، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٧)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٤٩)، والإصابة (٧/ ٢٣٦).

عن النبي ﷺ، فهددوه بأن يجتمعوا ويتحالفوا عليه وعلى قومه، فحينئذٍ قال أبو طالب قصيدته المشهورة التي ذكرها ابن هشام وغيره(١):

وَلَمَّا رَأَيتُ القَومَ لا وُدَّ عِندَهُم ... وَقَد قَطَعوا كُلَّ العُرى وَالوَسائِلِ

وَقَدْ حالَفُوا قَومًا عَلَينا أَظِنَّةً ... يَعَضُّونَ غَيظًا خَلفَنا بِالأَنامِلِ

صَبَرتُ لَهُم نَفسي بِسمراءَ سَمحَةٍ ... وَأَبيَضَ عَضبٍ مِن تُراثِ المَقاوِلِ

ويقول وهو يصف النبي ﷺ(٢):

وَأَبيَضَ يُستَسقى الغَمامُ بِوَجهِهِ ... ثِمالُ اليَتامى عِصمَةٌ لِلأَرامِلِ

يَلوذُ بِهِ الهُلَّاكُ مِن آلِ هاشِمٍ ... فَهُم عِنْدَهُ في نِعمَةٍ وَفَواضِلِ

أَعوذُ بِرَبِّ الناسِ مِن كُلِّ طاعِنٍ ... عَلَينا بِسوءٍ أَو مُلِحٍّ بِباطِلِ

وَمِن كاشِحٍ يَسعَى لَنا بِمَعيبَةٍ ... وَمِن مُلحِقٍ في الدينِ ما لَم نُحاوِلِ

يشير هنا إلى أنه يستعيذ بالله من شر هؤلاء القوم الذين يتآمرون ضده ويهددونه، وقد فعلوا، كما في قصة الصحيفة الظالمة التي كتبوها وعلقوها في جوف الكعبة، والتي كان فيها مقاطعة لبني هاشم ومَن في حكمهم: لا

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٨)، وتاريخ دمشق (٦٦/ ٣١٩)، وتاريخ الإسلام (١/ ٣٩)، وفتح الباري (٢/ ٤٩٦)، وهو في ديوانه (ص٦٣).

(٢) أخرج البيت الأول: ابن أبي شيبة (٢٦٠٦٧)، وأحمد (٢٦، ٥٦٧٣)، والبخاري (٩٦٣)، وابن ماجه (١٢٧٢)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٨-١٠٩)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٦٢-١٦٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٥٤-٥٥)، (٦/ ٤٤، ٩١، ١٨٦، ٢٤٦)، وهو في ديوانه (ص٦٤، ٦٧).

يبيعونهم، ولا يشترون منهم، ولا يناكحونهم[1].

لقد كانت هذه الصحيفة جولة من الحرب الظالمة، وهي خطة يتواصى بها أعداء الإسلام اليوم عبر العصور.

لقد قامت قريش بهذا العمل وعلَّقت صحيفة المقاطعة، حتى أصابهم ما أصابهم من الجوع والفقر، بل كانوا يأكلون الجلود اليابسة ويستفونها، ثم قام بعد ذلك مَن أراد أن يقضي على هذه الصحيفة، لكنهم وجدوا أن الأَرَضَة كانت قد أكلتها، في إشارة إلى أن الله تعالى لا يُصْلح عمل المفسدين.

إن المواقف النبيلة من أبي طالب ومَن معه من آل هاشم في نصرة النبي ﷺ وإحاطته لها معانٍ عظيمة.

ولعل من أبرز المعاني التي نشير إليها: أن الذين لم يؤمنوا بهذا الدين درجات ومقامات، فلكل واحد منهم مقام يناسبه.

فمثل أبي طالب له مقام خاص، وقد حرص ﷺ على هدايته حتى آخر لحظة، ففي لحظة الموت جاءه ﷺ وقال: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فقال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك[2].

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٥)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٤٩)، والكامل في التاريخ (١/ ٢٦٩)، وأسد الغابة (٥/ ٣٧٨)، والبداية والنهاية (٣/ ١٠٨).

(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٤/ ٢٢٢)، ومسند أحمد (٩٦٠٨، ٩٦٨٥، ٢٣٧٢٤)، وصحيح البخاري (١٢٩٤)، وصحيح مسلم (٢٤، ٢٥)، وجامع الترمذي (٣١٨٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٤١)، (٢٠/ ٩٢)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٤٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٤٤-٣٤٥)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٣٣)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦)، والبداية والنهاية (٣/ ١٢٤)، (٧/ ٣٣٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ٤٦)، والأبيات في ديوانه (ص٧٣، ٧٤).

وقد كان يقول[(١)]:

فوَاللهِ لَـوْلَا أنْ أَجِـيءَ بِسُبَّـةٍ تجرُّ عَلَى أَشْياخنَا فِي المَحافِـلِ
لكُنَّا اتَّبَعْناهُ عَلَى كُـلِّ حَالَـةٍ مِنَ الدَّهْرِ جدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
لَقَـدْ عَلِمُوا أنَّ ابنَنَا لا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلا يُعْنَى بقَـوْلِ الأباطِـلِ
وَجُدتُ بِنَفْسِي دُونَـهُ وحَمَيْتُهُ ودَافَعْتُ عَنْهُ بِالطُّلَى والكَلاكِـلِ

ويقول أيضًا[(٢)]:

ولَقدْ عَلِمْتُ بأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْـرِ أَدْيـانِ الْبَرِيَّـةِ دِينَا
لَوْلَا المَلامَةُ أَوْ حِذَارِي سُبَّةً لَوَجدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

لقد مات أبو طالب على غير الإسلام، ومات وهو يقول: هو على ملة عبد المطلب.

إذًا: هذا الرجل مات على غير الإسلام، ومع ذلك فالمسلمون جميعًا يعترفون بهذا العمل الكبير الذي عمله، ولم يكتب أحد في السيرة إلا وأشاد بهذا الموقف النبيل، بل القرآن سجَّل محبة النبي ﷺ له محبة شخصية وليست

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١١٥)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٦٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٥٧).

(٢) ذكر البغوي في تفسيره (١/ ٦٤) البيت الأول بلفظه، وذكره الباقون بلفظ: وعرضت دينًا قد علمت بأنه... من خير أديان البرية دينا، وينظر: سيرة ابن إسحاق (٢/ ١٣٦)، ودلائل النبوة للبيهقي(٢/ ١٨٨)، وزاد المسير (٣/ ٢١)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٥٠)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٢) وروح المعاني (٧/ ١٢٧)، والأبيات في ديوانه (ص٩١).

محبة دينية، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦].

نعم، أحبه ﷺ، ومن حبه أن أحب هدايته.

ومن هنا ينبغي أن نراعي أن هناك من غير المسلمين مَن لديه نوع من تقبل الإسلام أو الرغبة فيه، وعنده وفاء وذمة أو أمانة.

بينما هناك مَن يقول الله تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:١]. فهؤلاء كفروا، وزادوا على كفرهم أيضًا أنهم صدوا عن سبيل الله.

وقال أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل:٨٨]، فهؤلاء يفسدون ويصدون ويحاربون.

إذًا: الكفار درجات، وينبغي أن نراعي أن التعامل مع هؤلاء الناس بالعدل والصدق من أهم أسباب تقريبهم للدين، فالذي أعلن دخوله في الإسلام اليوم، كان يفكِّر في الإسلام بالأمس، وقبل شهر قرأ، وقبل سنة سمع وحاول التعرف على الدين، فهو قد قطع طريقًا طويلة، وهكذا فقد يكون مَن تلقاه من غير المسلمين قد قطع مرحلة في الطريق إلى هذا الدين، ولذا يفترض فينا ألا نصد عن سبيل الله، بل نكون ممن يقرب الناس لهذا الدين بالخلق الفاضل وحسن التعامل مع الناس، وإدراك أن الكفار هم محل للدعوة أيضًا.



عــام الحــــزن



❖ حب وحزن:

في السنة العاشرة من البعثة النبوية حزن النبي ﷺ لموت عمه أبي طالب، ولقد مات أبو طالب على غير الإسلام، وهذا مما ضاعف حزنه ﷺ، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

لقد أحب النبي ﷺ أبا طالب ورغب في هدايته، ولكن الله تعالى لم يأذن بذلك لحكمة يعلمها، وأنزل الله تعالى سلوانًا لنبيه ﷺ هذه الآية الكريمة.

لقد حزن النبي ﷺ لموت عمه مع أنه من الذين لم يقروا له بالدعوة ولا بالنبوة لأمور:

أولًا: كان يحوطه ويحميه، فلما مات تجرأت قريش منه على ما لم تكن تجرؤ عليه من قبل.

ثانيًا: لأنه مات على الكفر، مما يكشف عن إنسانية هذا الدين وعظمته، وأنه لا يتناقض مع ما جُبل عليه الإنسان من المعاني الإنسانية الكريمة، بل هو يؤيدها ويعمقها ويزكيها، ومن ذلك أن النبي ﷺ أخبرنا عن امرأة دخلت الجنة

في كلب سقته[١]، وأخبرنا عن أخرى دخلت النار في هرة حبستها[٢]، وقرَّر لنا ﷺ بذلك قاعدة عظيمة: «**في كل كبد رطبة أجر**»[٣].

إذًا: هذا المعنى الإنساني الذي يؤكده الإسلام يجب ألا يغيب عنا.

❖ القيم العليا في الإسلام:

نحن بحاجة إلى دعوة إسلامية تبرز القيم العليا للإسلام، وتقول للإنسان في الشرق أو الغرب: إن دين الإسلام قام على أساس تكريم الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

إن خطاب القرآن الأصلي في مكة كان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ثم أضيف إليه مع بقائه الخطاب المدني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فهما خطابان معًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، هذا المعنى يجب ألا يغيب أبدًا.

وما موقف خُبيب بن عَدِي رضي الله عنه وصبره على القتل، وأنه لم ينتقم

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٤٦٧)، وصحيح مسلم (٢٢٤٥)، ومسند أبي يعلى (٦٠٤٤)، وصحيح ابن حبان (٣٨٦)، ومعجم الطبراني الأوسط (٥٣١)، وسنن البيهقي (١٥٥٩٧).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٧٠٠٨، ٢٧٠٠٩)، وصحيح البخاري (٧٤٥، ٢٣٦٤، ٢٣٦٥، ٣٤٨٢)، والأدب المفرد (٣٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٤٢)، وسنن ابن ماجه (١٢٦٥)، وصحيح ابن حبان (٢٨٣٨)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٤/ ٩٤) (٢٥٢)، وسنن البيهقي (٩٨٥١، ١٥٥٩٣).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٣٦٣)، والأدب المفرد (٣٧٨)، وصحيح مسلم (٢٢٤٤)، ومسند الشهاب (١١٣).

من صبي كان للمشركين في حجره والموسى بيده يستطيع أن يقتله[١] -عنا ببعيد، وكذلك الموءودة التي يوبخ الله وائدها يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهي صبية كانت دون البلوغ، وكانت في الجاهلية الأولى وأهلها مشركون، وهي في بيئة مشركة، ولو كبرت لكانت منهم، فهذا المعنى الإيماني عظيم، يجب ألا نغفله في غمرة العداء الذي نحمله للذين يحاربون دين الإسلام.

إن عام الحزن يؤكد المعنى الإنساني في هذا الدين وعظمته حتى وهو يواجه الحرب والعداء من الناس، وأنه يحزن حتى لأولئك الذين حرموا نعيم الهداية على موتهم على غير دين الإسلام.



(١) ستأتي قصته (ص١٠١).

يــوم الطــائف



❖ البلاء العظيم:

يَا شَـــرِيدًا مَـــلأَ الدُّنْـــيَـا اسْمُـــهُ وَغَـــدَا لَـحْنًا عَلَى كُلِّ الشِّفاهْ

وَغَـــدَتْ سِيـــــرَتُـــهُ أُنْشُـــودَةً يَـتَـلَـقَّـاهَـــا رُواةٌ عَـــنْ رُوَاهْ

لَيْتَ شعري هَلْ دَرَى مَنْ طَارَدُوا عَابدُو الــلاتِ وأتبـاعُ مَنَــاهْ

هَلْ دَرَى مَنْ طَــارَدَتْـــهُ أُمَّـــةٌ هُبَلٌ مَعْبُودُها شَاهَـتْ وَشَـــاهْ

طَـــارَدَتْ فِي الغَـــارِ مَنْ بَوَّأَهَـــا سُؤْدُدًا لَمْ يَبْلُـغِ النَّجْـــمُ مَـدَاهْ

طَارَدَتْ فِي الْبَيْـدِ مـنْ شَـــادَ لَهَا دِينَهُ فِي الأَرْضِ جَاهًا أيَّ جَاهْ

سُـؤْدُدًا عَالِــي الـذُّرَى مَا شــادَهُ قَيْصَرٌ يومًا وَلَا كِسْـــرَى بَـنَـاهْ

دخل النبي ﷺ يومًا على عائشة رضي الله عنها، وجلس إليها باسطًا حديث الزوج إلى زوجه، يحكي لها ذكريات قديمة.. فسألته عائشة رضي الله عنها عن ذكريات حصلت له بعد معركة بدر وأحد وغيرها، فقالت: يا رسول الله، لقد كان يوم أحد يومًا عسيرًا، قُتل فيه مَن قُتل، وجُرح مَن جُرح –حتى إن النبي ﷺ شُجَّ وجهه وكُسرت رَباعِيَّته– فهل أتى عليك يوم أشد من هذا اليوم؟ قال:

«نَعَمْ يَا عَائشَةُ، لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ثَلاثَةِ إخوةٍ مِنْ رُؤساءِ ثَقِيفٍ، وَهُمْ: عَبْدُ يَالِيلَ بنُ عَبْدِ كُلالٍ، ومسعودٌ وحبيبٌ أبناءُ عَمْرِو بنِ عُمَيْرٍ».

هؤلاء ثلاثة نفر من أكابر قوم ثقيف، جلس إليهم ﷺ ودعاهم إلى الله وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟! وقال الآخر: أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك. فخرج ﷺ من عندهم مهمومًا.

يقول ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي»**. ليس همه الدنيا، ولا المتاع، ولا السلطان، وإنما همه الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والتبليغ، وأن يتقبل منه الناس، وهذه آية الداعية الصادق، كما قال له ربه سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦].

فانطلق ﷺ وهو مهموم، فلم يفق إلا وهو في قرن الثعالب، لقد طغى الحزن عليه وخالطه مخالطة شديدة، فلم يفق إلا في ذلك المكان، وكانت إفاقته مرهونة بسحابة فوق رأسه ﷺ فيها جبريل عليه السلام، يسلِّم عليه ويقول له: **«إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْـجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْـجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْـجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي**

رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ»[(١)].

وهذه الحادثة تدل على أن هذا الأمر -وهو محاربة الدين- ليس مرتبطًا فقط بقصة الطائف، وإنما هو مرتبط برحلة طويلة من العناد والتكذيب والكفر بالنبي ﷺ.

إذًا: هي سلسلة طويلة وتاريخ قديم من التكذيب للنبي ﷺ والعناد، ومحاولة تشويه صورة الدعوة بكل قول بذيء، وإيذاء النبي ﷺ بكل فعل قبيح، حتى وإن لم يكن معروفًا عند العرب، فقد كان العرب قوم كرم وخلق، إلا أنهم لما هاجر الصحابة إلى الحبشة أرسلت قريش إلى الحبشة رجالًا يحذرونهم من النبي ﷺ ومن أصحابه، ويطلبون من ملك الحبشة أن يطرد من هاجر إليه من المسلمين، وأن يردهم إلى أهلهم، فهم أعلم وأدرى بهم.

❖ النَّفَس الطويل:

لقد عرض مَلَك الجبال على النبي ﷺ أن يُطبق على أهل مكة الأَخْشَبين، فقال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». وذلك لبعد نظره ﷺ في عواقب الأمور ومجريات الأحداث، أما في نظرنا القاصر فربما كان هذا العرض فرصة نادرة، فلو أن أحدنا كان في ذلك الموقف وعرض عليه مثل هذا العرض لقال: ما أجمله من عرض، **إذًا**: أطبق

---

(١) القصة أخرجها البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٧٠٦)، وابن حبان (٦٥٦١)، والطبراني في الأوسط (٨٩٠٢)، وينظر: دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٠٨، ٢٠٨)، والروض الأنف (٢/ ٢٣٥)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٨٤)، والبداية والنهاية (١/ ٤٩)، (٤/ ٣٥٢)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٧).

والأخشبان جبلا مكة: أبو قبيس وقعيقعان.

عليهم الأخشبين. هذه هي نظرة الناس العاديين الذين لا يدركون أبعاد الأمور كما أدركها النبي ﷺ، وتأتي هذه النظرة لأمور:

أولًا: أن هؤلاء قوم مشركون كفار وثنيون، يشركون بالله تعالى في البيت الحرام، فقد كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا تُعْبَد من دون الله.

ثانيًا: أن هؤلاء القوم قد قامت عليهم الحجة، ودعاهم النبي ﷺ ؛ فهم يعرفون صدقه وأمانته ونسبه، ومكانته فيهم معلومة، ومع ذلك ردوا دعوته وكذبوه.

ثالثًا: أنهم حاربوا المسلمين وطاردوهم في كل مكان.

رابعًا: أنهم منعوا قبائل العرب من الإسلام؛ فقد كان النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم كالحج والأسواق، فكانوا يتشاورون فيما بينهم ويقولون: لو كان ما يقوله حقًّا لآمن به قومه، فهم سادة العرب، وأرجح الناس عقولًا، فكيف نتقدم عليهم ونسبقهم ونؤمن له حين كفروا به؟ فهذا غير مناسب لنا ولا لأعرافنا القبلية؛ فربما كان في زوال المكذبين سبب في قبول الناس الدعوة وزوال المانع.

خامسًا: أن موت هؤلاء عن طريق الخسف أو الزلازل أو إطباق الجبلين عليهم سوف يكون قصة رائعة جدًّا، وحدثًا جليلًا، وعندها سيقول القريب والبعيد: لو لم يكن نبيًّا لما حصل هذا؛ لأن الله تعالى قد نصره على من ظلمه، وربما أسرع الناس إلى دين الله سبحانه وتعالى.

إذًا: هذه هي النظرة البسيطة بادي الرأي -كما يقال- لكن لو نظرنا إلى رد النبي ﷺ وهو في أشد الحزن والأسى إذ يقول: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ**

أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». لأدركنا عمق نظره ﷺ في أبعاد الأمور.

❖ دروس عظيمة:

وفي هذه القصة إشارات:

أولًا: حرص النبي ﷺ على هداية قومه وإن لم يؤمنوا به، ولكنه تطلع أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويوحده ولا يشرك به شيئًا.

ثانيًا: أن النبي ﷺ لم يرض أن يقع مثل هذا الأمر؛ بل طلب من الله تعالى أن يمهلهم وينظرهم، وهذا يدل على فضل النبي ﷺ على إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن منهم مَن استدعى العذاب على قومه بعدما أيس منهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦].

ثالثًا: أن رسالة النبي ﷺ ونبوته قائمة على الرحمة؛ ولذلك رحم هؤلاء القوم وخشي عليهم الموت على الكفر والشرك.

رابعًا: فيه إشارة إلى الصبر الذي جُبل عليه النبي ﷺ، على رغم هذه المرارة المتواصلة والأذى والحرب الذي ربما لو وقع علينا جزء قليل منه لفقدنا سيطرتنا على أعصابنا وأنفسنا، وخرجنا عن طورنا، وطلبنا أن تنهار الأمور كلها بعضها على بعض، لكن النبي ﷺ كانت عنده سكينة وهدوء وصبر حتى في أحلك المواقف وأشدها.

خامسًا: أن في رد النبي ﷺ بقوله: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ**

مَنْ يَعْبُدُ اللهَ». إشارة إلى أن هذا الدين قائم على القناعة العقلية والقبول الاختياري، فهؤلاء القوم قبلوا دعوة النبي ﷺ بعد زوال ملكهم وزوال ما يعيقهم، فرأوا الحق واضحًا، كما قال الله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]. فآمنوا بالله سبحانه وتعالى، واتبعوا رسوله ﷺ، ومنهم مَن قُتل بين يدي النبي ﷺ، ومنهم مَن قاتل دفاعًا عنه ﷺ.

بل نجد شجعان قريش أمثال خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي سفيان ممن حاربوا النبي ﷺ وقاوموا دعوته، قد أصبحوا قادة وسادة وأئمة وعلماء، فعجل لهم الله تعالى بالخير والفرج، وليس من أصلابهم، بل منهم أنفسهم عن طريق الاقتناع، فوصل الأمر إلى نصابه ومستقره، ولهذا بعث النبي ﷺ بحجج وآيات، وكانت أعظم آياته ﷺ القرآن الكريم الباقي والخالد، فقد كان أعظم دلالة على صدق النبي ﷺ وصدق الرسالة والنبوة، وفيه من الآيات والمعجزات الكثيرة ما يؤمن على مثله البشر، من حيث كون المعجزات غير مرتبطة بحياة النبي ﷺ فقط، بل يشارك فيها الذين يأتون بعد وفاته ﷺ، ويشاركون في مثل هذا المعنى.

❖ فتح القلوب قبل البلاد:

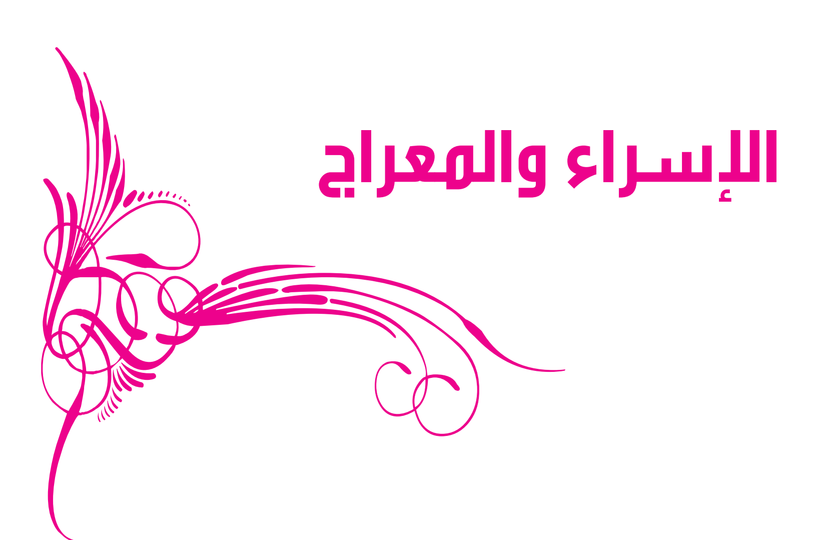
نعم، لقد صبر النبي ﷺ وصابر ومعه ثلة مؤمنة من أصحابه حتى فتح الله لهم الأرض، ولم يمت حتى رأى علامات النصر والفتح، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ

أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر:١-٣].

إنه لم يكن فتحًا وانتصارًا مبنيًّا على القوة والمغالبة المحضة، وإنما كان مبنيًّا على الإقناع والحجة والدليل، وهذا هو الفرق بين الفتح الرباني المنطلق من المعاني الربانية، البعيد عن الظلم والعدوان، وبين الفتح الإمبراطوري الذي همه التوسع وكسب المال والثراء، وتحقيق الملذات، قال الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].



الإسـراء والمعراج



❖ آية كبرى:

يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

لقد كان النبي ﷺ يعاني في مكة ما يعاني من الظلم والتكذيب والعناد، ويواجه ألوانًا من الألم والحزن الشديد، وكان ربه يحوطه ويرعاه، ومن ذلك أن الله تعالى هيأ له حادثة الإسراء ثم المعراج، أما الإسراء فقد ثبت في القرآن الكريم بالنص الصريح: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾. والإسراء المشي ليلًا، فإن الله تعالى أسرى به من مكة إلى بيت المقدس؛ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد جاء في بعض الآثار أن هذا لم يستغرق إلا وقتًا يسيرًا جدًّا من عمر الزمان، وفي نظر الناس، ولكنه كان آية من آيات الله العظمى والكبرى، وأُسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى قبل الهجرة بسنة، كما يقول عروة وابن سعد وابن حزم، بل يدعي ابن حزم إجماع العلماء على ذلك[1].

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٩٢)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٤١)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٣)، وفتح الباري (٧/ ٢٠٣)، وروح المعاني (٣٠/ ١٨٣).

وكان الإسراء في رَبيع الأول، وهذا ما يرجحه كثيرون، وكثير من الناس اليوم يعتقدون أن الإسراء إنما وقع في شهر رجب، لكن الأقرب أنه كان في شهر ربيع الأول[(١)].

كان النبي ﷺ نائمًا، فأتاه جبريل ومعه البُراق، وهو دابة يضع حافره عند منتهى طرفه، فأُسري بالنبي ﷺ ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهناك جمع له الأنبياء، وصلَّى بهم عليهم الصلاة والسلام، وربطت هذه الدابة في المكان الذي كان يربط فيه الأنبياء، ولا يزال إلى اليوم في بيت المقدس ويُسمَّى بحائط البُراق، وهو ما يسميه اليهود بحائط المبكى، ثم عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، حيث فُتحت له أبواب السماء الأولى فالثانية فالثالثة، حتى وصل إلى مستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام، وأوحى الله تعالى إليه ما أوحى، ورأى هناك من آيات ربه الكبرى.

❖ معالم ومعان:

هذه الحادثة العظيمة مليئة بالمعالم والمعاني والتي منها:

أولًا: الاكتفاء بالأحاديث الصحيحة الثابتة التي تدل على مجمل الأحداث التي وقعت للنبي ﷺ في رحلته هذه، وأما الزيادة على ذلك مما نجده في بعض الكتب، ككتاب اسمه: «الإسراء والمعراج» ينسب لابن عباس، وهو

---

(١) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٩٤)، وأسد الغابة (١/ ١٢٨)، ولطائف المعارف (ص٢٣٦)، وتاريخ ابن الوردي (١/ ١٠٢)، وتبيين العجب بما ورد في فضل رجب (ص١١)، وفتح الباري (٧/ ٢٠٣)، وعمدة القاري (٦/ ١١٥)، والإسراء والمعراج للسيوطي (ص٣٦)، وروح المعاني (١٥/ ١٦).

كتاب مليء بالتهاويل والأكاذيب، والحكايات، وليس لها سند لا من عقل ولا نقل، فمثل هذه الأشياء تصور للناس قضايا الإيمان والنبوة كما لو كانت أساطير وخرافات، وتهاويل ومبالغات، مما يجب أن ننفيها عن ديننا، وألا ننساق وراء هذه المعاني التي أشبه ما تكون بمخدرات للعقول والمفاهيم.

ثانيًا: من الواضح جدًّا أن الإسراء كان حقيقة ولم يكن منامًا، كما يدعي بعضهم أن الله تعالى أسرى بالنبي ﷺ من خلال رؤيا منام؛ لأنه لو كان الإسراء رؤيا منام لم يكن هناك كبير شيء، فأي واحد منا ممكن في الليل أن يذهب إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب، وقد يرى نفسه وهو يطير في الأفلاك أو في السماوات، ولن يكون ثمة ميزة للنبي ﷺ.

زد على ذلك أنه من المعروف أن المشركين استغلوا هذه الحادثة وقاموا بحملة إعلامية قاسية وشديدة ضد الرسول ﷺ: كيف يدعي مثل هذا الأمر، وكيف أنه في ليلة واحدة يذهب إلى الشام وإلى بيت المقدس، مع أن الواحد منا يضرب أكباد الإبل شهورًا طويلة، ومحمد يدعي في ليلة واحدة أنه ذهب ورجع قبل أن يبرد فراشه؟! ومن هنا نكتشف باليقين أن الإسراء والمعراج كان حقيقة.

فكان الإسراء بالروح والجسد معًا، وأما الذين يقولون: أسري بروحه فقط، فهذا قول ضعيف، وإن نسب إلى بعض الصحابة كما ذكره ابن كثير عن معاوية وعائشة رضي الله عنها وغيرهم؛ فهو لا يصح عنهم، والواقع أن جمهور علماء المسلمين يرون أن الإسراء كان بجسده وروحه ﷺ، وفي هذا

سر القوة والإعجاز والعظمة(1).

ثالثًا: كان الإسراء والمعراج في نهاية العهد المكي وقبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، مما يشير إلى أن من أهم مقاصد الإسراء ربط مكة ببيت المقدس، والإشارة إلى أن أماكن الرسالات السماوية قد تآلفت واندمجت في وحدة لا تنفصل إلى يوم القيامة على يد النبي الخاتم ﷺ، ولذلك وأنت تقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]. ترى أن هذه الآية جمعت أماكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأماكن التي نشأ فيها عيسى عليه السلام في بلاد الشام والناصرة وفلسطين، والأماكن التي نشأ فيها موسى عليه السلام في سيناء وما حولها ثم في أرض فلسطين أيضًا، والأماكن التي نشأ وبعث فيها محمد ﷺ وهو البلد الأمين والذي هو خاتمة الأمر.

❖ وحدة الرسالات ووحدة الأرض:

إن هذا المعنى يكرِّس الوحدة بين الرسالات، وأن هذه الأرض هي الأرض الإسلامية.

إن هذا المعنى العظيم يدل على ترابط الأماكن المقدسة، وأنها أصبحت جزءًا من تاريخ هذه الأمة وواقعها، بل جزءًا من دينها، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٦-١٧)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٠٩)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٤)، والروض الأنف (٢/ ١٩١)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٠٤)، والبداية والنهاية (٣/ ١١٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ١٤٣)، وعمدة القاري (١٥/ ١٢٥).

الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة[١]، وأن الصلاة في مسجد المدينة بألف صلاة[٢]، وأما الصلاة في المسجد الأقصى فقد ورد في بعض الأحاديث أنها بألف صلاة[٣]، وورد أنها بخمسمائة صلاة[٤]، وفي أحاديث أصح منها أنها بمائتين وخمسين صلاة[٥].

إذًا: هناك فضيلة لهذه المناطق، فهي التي تشد إليها الرحال كما قال النبي ﷺ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا**»[٦].

هذا المعنى الراقي يجب أن نحييه اليوم حينما نستشعر أن المسجد الأقصى يعاني من محنةٍ عظيمة منذ عشرات السنين بوقوعه في قبضة اليهود المغتصبين

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (١٥٨٩١)، ومسند أحمد (١٤٧٣٥، ١٥٣٠٦)، وسنن ابن ماجه (١٤٠٦، ١٤١٣).

(٢) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩١٣٧، ٩١٣٨، ٩١٤٠، ٩١٤٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٧٥١٣، -٧٥١٦، ١٦١٦٢)، ومسند أحمد (١٦٠٥، ١٦١٦٢)، صحيح البخاري (١١٩٠)، وصحيح مسلم (١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦).

(٣) ينظر: مسند أحمد (٧٧٢٥، ١١٧٥١)، وسنن ابن ماجه (١٤٠٧).

(٤) ينظر: أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٩٠)، وشعب الإيمان (٤١٤٠، ٤١٤٤)، وسنن البيهقي الصغرى (١٧٥٢).

(٥) ينظر: معجم الطبراني الأوسط (٦٩٨٣، ٨٢٣٠)، والمستدرك (٤/ ٥٥٤)، وشعب الإيمان (٤١٤٥)، ولفظه عن أبي ذر رضي الله عنه: تذاكرنا عند رسول الله ﷺ: أيها أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ**».

(٦) أخرجه أحمد (٧١٩١، ١١٥٢٣)، والبخاري (١١٨٩، ١١٩٧، ١٨٦٤، ١٩٩٦)، ومسلم (١٣٩٧)، وأبو داود (٢٠٣٣)، وابن ماجه (١٤٠٩، ١٤١٠)، والترمذي (٣٢٦)، والنسائي (٧٠٠).

الغاشمين، الذين يسعون إلى تدميره من خلال الحفريات التي يعملونها حوله، ومن خلال تمكين المتطرفين والغلاة من القيام بأعمال تخريب وإفساد، بدءًا من حرق المسجد الأقصى، ومرورًا بالأنفاق التي تحفر اليوم تحت بيت المقدس، والبحث عن الهيكل المزعوم أو غيره، ولعل من العجب الشديد أن يعترف هؤلاء جميعًا؛ لأنهم في الوقت الذين يبحثون فيه عن آثار يهودية كلما حفروا وفروا المزيد والجديد والعجيب من الآثار الإسلامية.

هذه بلاد الإسلام وتاريخ الإسلام.

❖ دين الأنبياء جميعًا:

إن الإسلام ليس الدين الذي بُعِثَ به محمد ﷺ فحسب، بل كل الأنبياء بعثوا بالإسلام، فنحن نؤمن بدين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ونعتبر أن تراثهم ورثه محمد ﷺ، وهذه الحادثة العجيبة حادثة الإسراء تؤكد على هذا المعنى، وعلى ترابط هذه المواقع العظيمة ورسوخها وأهميتها في تاريخ المسلمين، وأنه لا يحق لأحد -كائنًا مَن كان؛ حاكمًا كان أو محكومًا أو جماعة أو دولة- أن تتخلَّى عن هذه الأرض أو تساوم عليها، أو تتنازل عن جزء منها، فهي جزء من تاريخ المسلمين وأرضهم وعظمتهم ومجدهم، بل ودينهم، وإذا لم تستطع الأجيال الحاضرة أن تحمي هذه البقاع وأن تحافظ عليها، وأن تعيد الحق إلى نصابه فلا أقل من أن تلتزم بأن الحق حق والباطل باطل، وأن الاغتصاب والقوة لا تغير من معايير الحق شيئًا، ولعل الأجيال القادمة تستطيع أن تحقق على يديها ما لم يستطعه هذا الجيل، وينبغي أن نتذكر هذا الترابط والتآخي بين هذه الأماكن المقدسة.

رابعًا: إن حادث الإسراء الذي صلَّى فيه النبي ﷺ بالأنبياء في هذا المكان المقدَّس الطاهر، ليؤكد على خاتمية هذه الرسالة، وأن النبي ﷺ ورث الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام، وجاء بالدين الخاتم الذي أكمل الله تعالى به دينه، وأتم به النعمة على عباده، ورضي به للناس جميعًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

لقد جاء النبي ﷺ بهذا الدين الخاتم، وهذا الكتاب الخاتم، وجاء بالهداية، ووجب بعد ذلك على كل أحد أن يسمع للنبي ﷺ ويتبع ملته، ولا يمكن أن يدخل بعد بعثته ﷺ أحد الجنة إلا من طريقه ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[١]. فالنبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، ودينه خاتم الأديان والرسالات، وهو المهيمن عليها جميعًا.

❖ أمل لا يذبل:

هذه المعاني يجب أن تبعث في قلوبنا الأمل على أن الأرض المقدسة سوف تعود لأصحابها الشرعيين، وأن علينا جميعًا ألا نكتفي بمجرد الانتظار، بل أن نسعى في حماية هذه الأرض ومناصرة جندها المرابطين في سبيل الله من الطائفة المنصورة التي أخبر النبي ﷺ أنهم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس ظاهرين لعدوهم قاهرين، قائمين بأمر الله، لا يضرهم مَن خذلهم

(١) أخرجه الطيالسي (٥٠٩)، وأحمد (٨١٨٨، ٨٥٩٤)، ومسلم (١٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٨).

ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك[1]، فمَن لم يستطع أن يقوم بذلك فلا أقل من أن يبعث كما قال النبي ﷺ بزيت تسرج به قناديل ذلك المسجد[2].

يجب أن نسعى إلى تحقيق هذا المعنى، وتأويل هذا الخبر الإلهي الرباني الذي يؤكده حادث الإسراء، ويبين أن هذه الأرض سوف تعود لأصحابها طال الزمن أم قصر: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص:٨٨].



(١) ينظر: مسند أحمد (٢٢٣٧٤)، ومعجم الطبراني الكبير (٧٦٤٣)، (٢٠/ ٣١٧) (٧٥٤)، والمعجم الأوسط (٤٧).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٧٦٦٧)، وسنن أبي داود (٤٥٧)، وسنن ابن ماجه (١٤٠٧)، ومسند أبي يعلى (٧٠٨٨)، ومعجم الطبراني الأوسط (٨٤٤٥)، وسنن البيهقي (٤١١٤).

بين التصديق بالغيب
والتكذيب بالخرافة



❖ من عبر الحادثة:

من القصص اللافتة في حادثة الإسراء والمعراج أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه جاءه قوم فقالوا له: أتسمع ما قال صاحبك؟ قال: ماذا قال؟ فأخبروه أنه ذهب إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء في ليلة واحدة، فماذا قال أبو بكر الصديق؟ قال: إن كان قاله فقد صدق[1]. فمن يومئذ بل ومن قبله سُمِّي بالصدِّيق، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]. فهو رضي الله عنه كان صدِّيقًا، يُصدِّق النبي ﷺ بالخبر الحق من السماء، وهو أول مَن آمن به إذ كذبه الناس، وهو الذي صدَّق بخبر الإسراء والمعراج.

لكن الأمر الذي يعجب ويطرب أنه رضي الله عنه لما قيل له الخبر قال:

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٧١٩)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٥)، وتفسير الطبري (١٥/ ٦)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٤/ ٤٣٢)(١٠٥٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٦٠، ٣٦١)، والمستدرك (٣/ ٦٥، ٨١)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٦٢)، وتاريخ دمشق (٣٠/ ٥٥)، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي (٤/ ١٦٣)، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/ ٢٥٨)، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٢)، وفتح الباري (٨/ ٣٩٢)، والدر المنثور (٥/ ١٨٨)، والخصائص الكبرى (١/ ٢٥٧)، والسيرة الحلبية (٢/ ٩٢)، والإسراء والمعراج للألباني (ص٦٠-٦١).

إن كان قاله فقد صدق. فربط التصديق بصحة الخبر إلى النبي ﷺ، وهذا يؤكِّد على معنًى عظيم؛ أن الدين مبني على الغيب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣]. فالناس لا يعرفون ما يتعلق بالألوهية، وبالآخرة، والجنة والنار، والبعث، إلا عن طريق الوحي المنزَّل، ولذلك فإن الفرق بين المسلم والكافر أن المسلم يؤمن بالغيب، والكافر لا يؤمن به، وإنما يؤمن بالماديات.

❖ بين الغيب والخرافة:

يجب أن نفرق بين الغيب وبين الخرافة؛ فالغيب فوق العقل، ولا يستطيع العقل إدراكه واستيعابه، ولو أن البشر كلهم حاولوا أن يعرفوا بعض حقائق الألوهية من خلال عقولهم ما وصلوا إلى ذلك؛ لأنه لا يوجد عندهم دليل ولا مثال يقيسون عليه، فالأمر أكبر من عقولهم، وكيف لهذا العقل المحدود، كيف له أن يستوعب القضايا الكبرى من قضايا الألوهية وما يتعلق بها؟

إذًا: الغيب فوق العقل، أما الخرافة والأسطورة فهي تحت العقل، والعقل يرفضها ويستنكرها، ولذلك كل الأساطير والأقاويل التي يتداولها الناس دون أن يكون لها سند صحيح من الشريعة فهي داخلة في الخرافة، والكثير من المسلمين اليوم ربما يتداخل عنده هذا بذاك فتجد أن بلاد الإسلام تسرع إلى تصديق الأخبار الواهية.

قبل أكثر من ثلاثين سنة كنت أقرأ كتابًا للشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في التحذير من وصية الشيخ أحمد المزعومة المتعلقة بأنه يحمل مفاتيح الحرم، وأنه رأى رؤيا طويلة وفيها تفاصيل غريبة، فكنت أقول في نفسي: هل

يحتاج الأمر إلى كتاب يؤلف؟! هذه قضية واضحة يعرفها الخاص والعام، ما الداعي لأن يكتب فيها مثل هذا؟ فإذا بي أجد أن هذه القصة منذ ذلك اليوم وإلى اليوم تتجدد كل سنة، ويبدأ الناس يسألون عنها من خلال رسائل الجوال، ورسائل الإنترنت، والمجالس والمحاضرات، وكأنها تشاع لأول مرة، بل أجد أن مَن قبلنا كالشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله كتب عنها في فتاويه وغيره من أهل العلم.

عجبًا! ما الذي يحمل الناس على تقبل هذه الخرافات والأساطير؟!

إن هذه الخرافات سرعان ما تنتشر عند الناس ويتناقلونها، بل ويؤمنون بها ويصدقونها.

❖ العقل الإسلامي:

العقل الإسلامي يفترض أنه مثال للنقاء والتجرد، والدقة والمعيارية في عدم القبول للأخبار والأمور إلا بالبرهان والدليل، وربنا سبحانه وتعالى علمنا في محكم التنزيل فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧]، فيشير إلى أن هؤلاء الذين عبدوا غير الله ليس عندهم برهان، ويقينًا لا يمكن أن يكون للشرك برهان، لكن هذا إشارة لقضية البرهان والعلم والحجة، أما البرهان فيكون بحسب الحال؛ فقد يكون برهانًا شرعيًّا حينما تكون الدعوة شرعية، وقد يكون البرهان غير ذلك.

هذه الأمة يفترض أنها قائدة العالم، لكن انظر إلى حجم الخرافة في

حياتها، في عباداتها، في أعمالها.

❖ بين الأمس واليوم:

ما أحوج هذه الأمة اليوم إلى منادٍ يصيح بها وينادي بأعلى صوته: إن هذه الأمة ليست كما أمر الله عز وجل، وليست كما يحب الله تعالى، ولا كما ربَّى نبيه ﷺ أصحابه الأولين، فحينما يأتي لأبي بكر رضي الله عنه الخبر عن حادثة الإسراء نقلًا عن النبي ﷺ، والنبي ﷺ على مقربة منه بمكة المكرمة، يقول: إن كان قاله فقد صدق. فيعلِّق تصديق الأمر بأن يكون النبي ﷺ قاله، ويتأنَّى ويتثبَّت.

هذا العقل الذي هو جوهرة نفيسة عزيزة، وبه صار الإنسان إنسانًا يجب أَلَّا نسمح له أن يكون وعاءً يستوعب الخرافات والأساطير، ولكن كلما تجولت في بلد من البلاد الإسلامية لاحظت أن الخرافة تعشش في البيئات المتدينة، فعندما تأتي إلى المساجد تجد المزارات والمقابر، وتجد الرقصات والأغاني، والذين يحيطون بهذه المقابر، ويقرؤون الكف، ويدّعون علم الغيب، ويتحدثون عن المستقبل، ويزعمون معالجة جميع الأمراض والآفات، وهناك تقبل وانسجام وارتياح لمثل هذه الأشياء.

❖ الدين حرب على الخرافة:

هذا أمر عجيب! الدين الذي جاء حربًا على الخرافة كيف آل أمر أهله إلى أن يتقبلوها وينسجموا معها، بل أن يدخلوها في صميم دينهم؟

إن الناظر إلى العبادات ليعجب كيف تغلغلت الخرافة في عبادات الناس

وصلاتهم وتقواهم، وعندما تأتي إلى قضايا الاعتقاد، تجد أن كثيرًا من عقائد المسلمين تسرب إليها من الخرافة ما تسرب، وأصبح جزءًا من صميم حياتهم واعتقادهم.

إن الدين الحق لا يتعاطف مع الخرافة بل يفضحها ويعلن الحرب عليها، ومبادئ القرآن الكريم، ومبادئ السنة النبوية، وسيرة النبي ﷺ، وأصحابه، والسلف، والأئمة، والعلماء، مليئة بمثل هذا المعنى، بل كان بعض الأئمة يقول: إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة[1].

حتى الخطرات والمشاعر النفسية كانوا يتوقون فيها ما يتعلق بالدين، فلا يقبلونها إلا إذا وجد ما يشهد لها من دلالة القرآن والسنة.

❖ دور المصلحين:

نحن ندرك أن كثيرًا من المسلمين اليوم سذج بسطاء، لكن المسؤولية هنا تقع على عاتق العلماء والدعاة ووسائل الإعلام، وأن يكون ثمة سعي دؤوب إلى صناعة العقل الإسلامي الرشيد، العقل الذي لا يتقبل الخرافة ولا يستجيب لها، وإنما العقل الذي شعاره ودليله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]. العقل الذي حجته وقانونه أنه لا يقبل شيئًا إلا بشاهدي عدل من الكتاب أو السنة لا من الخرافات والأساطير التي تكون في مجتمعات المسلمين ومجالسهم، بل أحيانًا خطبهم ومواعظهم، بل

(١) ينظر: الباعث على إنكار البدع (٢٩)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٦٩٤)، (١١/ ٥٨٥، ٥٩٥)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٣٩٠)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٠)، (٣/ ١٤٢).

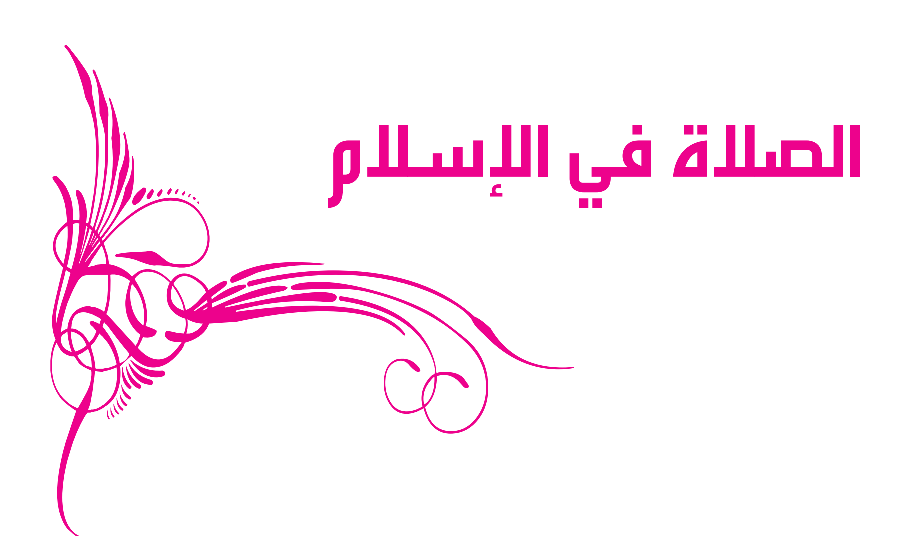
قد يجد الكثير منهم في نفسه حرجًا أن يُكذِّب بمثل هذه الأشياء، لأنه لا يدري أحق هي أم باطل، فيقع عنده التردد.

واجب علينا أن نتعلم ما لا يسع المسلم جهله من الدين، حتى نكون على بصيرة، وحتى لا يختلط الأمر عندنا بين حقائق الوحي المنزل من السماء، وبين الأساطير والخرافات والأقاويل التي ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الإسلام اليوم محجوب بمساوي أهله فهل نكون نحن من يصحح هذه المساوي؟ أرجو وآمل.



الصلاة في الإسلام



❖ فرض الصلاة:

من عجيب الأمر أنه ﷺ حينما أُسري به أمره ربه بالصلاة من فوق سبع سماوات، فسمع وهو في الملأ الأعلى إيجاب خمسين صلاة على أمته في كل يوم وليلة، ومر ﷺ بموسى عليه السلام فقال له: «**بِمَ أُمِرْتَ؟**». قال: «**أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاةً**». وهنا استعاد موسى عليه السلام تجربته مع بني إسرائيل، القوم الذين كثر نكثهم وتلومهم على أنبيائهم، فقال له موسى: «**إنِّي واللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ أشَدَّ الْمُعَالَجَةِ**».

انظر إلى لمعان التجربة حتى في ميدان النبوة.

ثم قال له: «**فَارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ**».

انظر أيضًا إلى النصيحة التي يتبادلها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم رفاق طريق واحد، ولذلك يتعاطون فيما بينهم النصح لأنفسهم ولأممهم.

رجع النبي ﷺ إلى ربه يسأله التخفيف، ثم يمر بموسى ويأمره مثل ذلك، إلى أن ينتهي المطاف بخمس صلوات في كل يوم وليلة، ويكرر موسى نصحه: «**ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْألْه التَّخْفِيفَ؛ فَإنَّ أمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ**». فيقول النبي ﷺ:

«**قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي**». وهنا يسمع النبي ﷺ هاتفًا يقول له: «**إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا**». وقال: «**هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**»[١].

كلمات ربانية ذات دلالات عميقة.

❖ الصلوات خمس بالإجماع:

أي: إن هذا هو القدر الذي أراده الله تعالى في نهاية المطاف لهذه الأمة، وإنما كانت البداية بخمسين إشارة إلى أن هذا أصل التكليف، وجاء بعده التخفيف؛ حتى يدرك الناس فضل الله تعالى عليهم وتخفيفه عنهم، وأن أصل الفريضة باق لهم من حيث الأجر والثواب، فالحسنة في هذه الأمة بعشر أمثالها، والخمس عن خمسين، ولهذا قال: «**هِيَ خَمْسٌ**». يعني: في العدد، «**وَهِيَ خَمْسُونَ**». يعني: في الأجر، ويزيد ربك ويضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

«**قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي**». التي هي الأصل خمس صلوات، ولهذا أجمع المسلمون من عصر النبوة إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها: عوامهم وخواصهم وعلماؤهم، أن الصلوات خمس في كل يوم وليلة.

❖ معراج الروح:

وإذا كان النبي ﷺ عُرِج به إلى السماء، ووصل إلى مستوى يسمع فيه

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٧، ١٧٨٦٧، ١٧٨٦٩، ٢١٣٢٦)، والبخاري (٣٤٩، ٣٢٠٧، ٣٣٤٢، ٣٨٨٧، ٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢، ١٦٣)، وابن ماجه (١٣٩٩)، والنسائي (٤٤٨، ٤٤٩)، وابن حبان (٤٨، ٥٠).

صَرِيف الأقلام[(١)]، ووقع له من جراء ذلك مزيد المشاهدة والكشف والعيان، فإن الله تعالى عوض أمته عن ذلك بأن جعل الصلاة معراجًا لأرواحهم، ولذلك الصلاة لا تصلَّى لغير الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يسجد أو يركع إلا لله تبارك وتعالى، وهذا مما يقوِّي ويعزز الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ويجدد أنسجة القلب والروح والجسم، ويزيل الران والوعثاء من هذه الحياة، بل يعطي الإنسان دفعة إيمانية جديدة، حتى إنه يخرج من صلاته بروح جديدة غير التي دخل بها.

ولهذا كان بعض السلف يقول: «إذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر قدر الصلاة في نفسك».

الإقرار بالصلاة واجب قطعي على جميع المسلمين، ولا يصح الإسلام إلا به، وأداء الصلاة هو أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، بل لا يكاد يوجد وعيد على ترك شيء بعد التوحيد مثل ما وجد من الوعيد على ترك الصلاة، حتى قال النبي ﷺ: «**بَيْـنَ الرَّجُلِ وبَيْـنَ الشِّرْكِ والْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**»[(٢)].

وفي الحديث الآخر قال: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وبَيْنَهُم الصَّلاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَها فَقَدْ كَفَرَ**»[(٣)].

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢١٣٢٦)، وصحيح البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٣)، وصحيح ابن حبان (٧٤٠٦)، والمستدرك (٣/ ٧٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٢١، ١٥٢٢١)، والدارمي (١٢٣٣)، ومسلم (٨٢)، وابن ماجه (١٠٨٠)، والترمذي (٢٦١٩)، وأبو يعلى (٤١٠٠)، والبيهقي (٦٢٨٧، ٦٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣٩٦)، وأحمد (٢٢٩٨٧)، وابن ماجه (١٠٧٩)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن حبان (١٤٥٤)، والحاكم (١/ ٤٨).

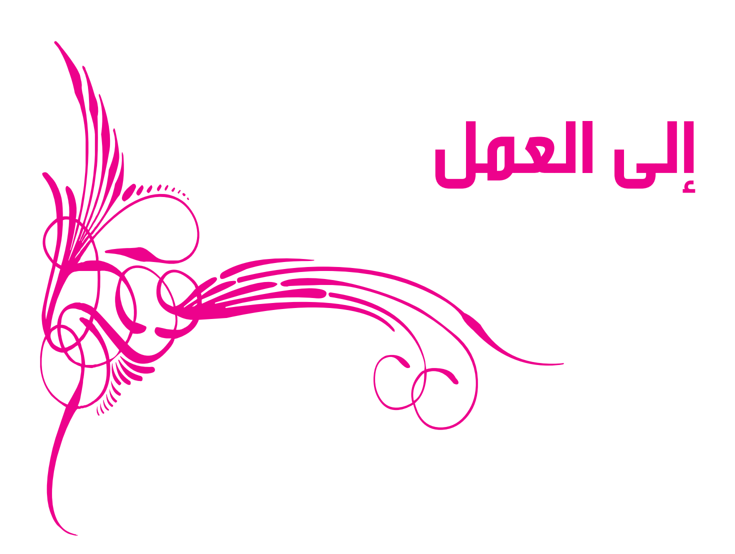


❖ الصلاة تصبغ شخصية المسلم:

ويا سبحان الله! ما أجمل هذا الدين كلما تأملته بوعي ويقظة؛ فبسبب هذا التعليم القوي والإلحاح الرباني والنبوي الشديد على أمر الصلاة صارت للمسلم شخصيته، وللمجتمعات المسلمة شخصيتها؛ فكل بلد تدخل فيه تعرف إسلاميته من خلال المساجد، والمنابر، والمنائر، والحضور الواضح لهذه العبادة العظيمة، فهي معالم شاهقة حضارية في بنائها، وفي إصرار الناس عليها، ولا تكاد تجد مسلمًا إلا وله صلة بالصلاة أو صلة بالمساجد، مهما يكن، قد يكون مدمنًا، قد يكون ضائعًا، ولكن يظل ارتباطه بهذا الدين قائمًا من خلال أصل الإيمان الموجود في قلبه، ومن خلال المظاهر العملية التي أهمها الصلاة، فهي مظهر من مظاهر الخلود والبقاء والشموخ لهذا الدين، ومقاومته لكل عوامل الهدم والتخريب وعوامل التغيير التي تجري على مجتمعات المسلمين.



إلى العمل



❖ بين الإسراء والهجرة:

حينما أذن الله جل وعز لنبيه ﷺ بالإسراء إلى بيت المقدس أتاه جبريل بالبُراق، والبُراق دابة تضع حافرها عند منتهى طرفها، وهذا من الغيب الذي لا نعلمه ولا نكيفه، لكن نؤمن به ونقف عند هذا الحد، ولا فائدة للعقل أن يستطرد وراء البحث والتفاصيل في أمور لا يدركها، وإنما ينبغي أن يتسلط العقل على القضايا التي يحسنها ويتقنها ويملك آلتها.

حينما أذن الله عز وجل لنبيه ﷺ بالهجرة لم يأته البُراق، ولم ينزل عليه جبريل، وإنما تعبَّده ربه جل وعز أن يتدبر الأسباب ويحاولها، فرتب الأمور سرًّا، وتواعد مع أبي بكر وخرج سرًّا حتى من أهله ﷺ، وأخذ الرواحل وركبها، وسلك طريقًا بعيدة وعرة عكسية حتى يفوت على الطلب، واختفى في الغار أيامًا حتى هدأ الطلب عنه، ثم انطلق إلى المدينة، وقد تعرض فيها لمخاطر عدة منها:

❖ قصة سراقة:

قصة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجي، الذي حاول أن يحصل على الجائزة (مائة ناقة) لِمَن يظفر بالنبي ﷺ حيًّا أو ميتًا، ولكنه فوجئ بالرصد وبالمدد وبالحفظ الإلهي، فساخت قوائم فرسه، فكان يقول للنبي ﷺ الذي هو في ظاهر الأمر شريد طريد: يا رسول الله، أمني. فيؤمنه النبي ﷺ، بل يعده فيقول له: «**كَيْفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟**». فيقول: يا رسول الله، كِسْرى بن هُرْمُز؟ قال: «**نَعَمْ، كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ**». فيتعجب سراقة، ويتحقق هذا الوعد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه[1].

❖ الصاحب الصديق:

يواصل النبي ﷺ رحلته بعد خوف وعناء حتى ينزل قول الله عز وجل، فيما يتعلق بأبي بكر الصدِّيق: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه تارة يمشي أمام النبي ﷺ، وتارة خلفه، وتارة عن يمينه، وتارة عن يساره، فيقول له النبي ﷺ: «**مَا هَذَا يَا أَبَا بَكْرٍ؟ مَا أَعْرِفُ هَذَا مِنْ فِعَالِكَ**». فقال: يا رسول الله، أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك،

---

(١) ينظر قصة سراقة في طريق الهجرة في: طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٦)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦١٠)، ومسند أحمد (٣)، وصحيح البخاري (٣٦٥٢)، وصحيح ابن حبان (٦٢٨١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٨٤)، والبداية والنهاية (٣/ -١٨٧ ١٨٨).

وينظر قصة السوارين في: سنن البيهقي (١٢٨١٢، ١٢٨١٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٣٢٥)، والاستيعاب (١/ ١٧٤)، وأسد الغابة (١/ ٤٢٢)، والكامل لابن الأثير (١/ ٢٧٧)، والبداية والنهاية (٦/ ١٩٤)، والإصابة (٣/ ٤١).

ومرة عن يسارك؛ لا آمن عليك[(١)].

❖ الفعل البشري والفعل الإلهي:

إذًا: ثمة فرق كبير بين الإسراء والهجرة، فحادثة الهجرة حادثة بشرية، بجهد وتكليف، وليست أمرًا من أمر الغيب كحادثة الإسراء والمعراج، إنها تعبد بالفعل والأخذ بالأسباب؛ فقد خرج النبي ﷺ من مكة وعينه تدمع، ووقف بالحَزْوَرَة[(٢)] حيث ما يسمى اليوم سوق الليل تقريبًا، والتفت إلى الكعبة وإلى مكة التي كانت مدينة صغيرة يحضنها هذا الجبل، فقال: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[(٣)].

وخرج إلى المدينة وعَزَّاه ربه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

أي: سوف تعود إلى مكة مرة أخرى كما خرجت منها، وهكذا كان ووقع ما أخبره به ربه عز وجل في فتح مكة سنة ثمان من الهجرة.

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٤٢٦)، والحاكم (٣/ ٧)، وابن عساكر (٣٠/ ٨٠).

وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، والبداية والنهاية (٣/ ١٨٠)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٠٣).

(٢) وتضبط بفتح الحاء والزاي وتشديد الواو، وهي موضع بمكة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٩٠٠)، وأحمد (١٨٧٣٧ - ١٨٧٤٠)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والترمذي (٣٩٢٥)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٨)، (٣/ ٤٨٩)، وابن عساكر (١١/ ٤٩٢).

وينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥١٨)، (٥/ ١٠٧)، وزاد المعاد (١/ ٤٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٠٥)، والسيرة الحلبية (٢/ ١٩٦).

ثمة فرق هائل وكبير بين الحادثتين يجب أن نتأمله ونتدبره؛ ففي حادثة الإسراء يأتي البُراق دون أن يكون للنبي ﷺ جهد، فما هي إلا لحظات حتى وصل النبي ﷺ إلى بيت المقدس بل إلى السماوات العلا، أما في حادثة الهجرة فكانت ابتلاءً وتكليفًا، ولهذا خطط النبي ﷺ ورتب، وأعد وأسر، واستخدم كل الإمكانيات العقلية والبشرية والمادية الممكنة حتى تمت حادثة الهجرة على أفضل حال.

إن هذا المعنى العظيم يلهمنا أن سيرة النبي ﷺ هي الجديرة بالتأمل، أما أن نكتفي بأن نستمع إلى سيرته الجميلة العطرة في المجالس والمناسبات، ونطرب لها فإن هذا وحده لا يكفي.

إن سيرة النبي ﷺ مذكرة تفسيرية لتطبيق الإسلام وتنفيذ قيمه، وزراعة الفعل الصحيح والنظر الصحيح عند كل المؤمنين بهذا النبي الكريم ﷺ.

❖ العمل بالأسباب:

إن العمل بالأسباب قضية مهمة جدًّا في الدين والدنيا، فأهل الجنة يقول لهم ربهم جل وعلا: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢].

لم يدخلوا الجنة بعملهم المحض بل برحمة الله عز وجل، لكن أعمالهم أهلتهم لرحمة الله تعالى، كما يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦].

ولهذا من الواضح جدًّا أن مَن دخل الجنة دخلها بعمله الصالح، ومَن دخل النار دخلها بعمله الفاسد، ومَن نال رضا الله عز وجل ناله بطاعته، ومَن

وصله سخط الله فإنما وصله بمعصيته، أما في أمر الدنيا فإن الإسلام يؤكد أهمية الأسباب، فيقول سبحانه: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤].

أولئك الذين يتمنون على الله الأماني: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [الأعـراف:١٦٩]. لا ينفعهم ذلك من الله تعالى شيئًا.

إن الأرض لا تقدِّس أحدًا، والنسب لا يقدس أحدًا، ولكن العبرة بالعمل: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤].

❖ مات وهو ساجد:

إن مجرد التمنِّي لا يصنع شيئًا، وكذلك أمر الحياة الدنيا، فإن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون كثيرًا، ويأملون كثيرًا، ويعتبون كثيرًا، ولو صدقوا لعتبوا على أنفسهم، ولو أنصفوا لكانوا هم أحق باللوم: ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢]. هكذا يقول الشيطان لأتباعه يوم القيامة.

إن المسلم اليوم بحاجة إلى أن يعرف أن الانتماء للإسلام يعني الجدية

والإتقان، ولا يمنع أبدًا أن يصبح المسلم تاجرًا أو عالمًا في شؤون الدنيا، فإن الذي أمر بالصلاة والعبادات هو الذي أمر بتحصيل شؤون الدنيا، ومن الخلل الكبير أن يتوقع المسلمون أن الدين جاء فقط لينظم علاقتهم بربهم من حيث أداء العبادات المحضة التي يتقربون بها إلى الله جل وتعالى.

كثيرًا ما يتمدح المسلمون بأن فلانًا مات وهو ساجد، ودون شك أن هذا معنًى جميل؛ فالسجود هو أقرب حالة العبد إلى ربه: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهُوَ سَاجِدٌ**»[1]. ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩].

لكن.. لماذا لا يتمدح المسلمون أيضًا بذلك المسلم الذي مات وهو يدأب في عمله الدنيوي، أو يجتهد في وظيفته، أو يعكف في معمله أو مختبره؟ أليس هذا من الدين؟ أليست هذه الأشياء عبادة؟! أليس فيها نفع وإحسان إلى الناس؟ والله تعالى كتب الإحسان على كل شيء وأثاب عليه، بل يؤجر المحسن حتى لو كان بغير نية، أليست هذه المعاني من صميم الدين؟ أليس الذي علَّمنا الركوع والسجود هو الذي يقول بأبي هو وأمي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[2]؟

وقوله ﷺ: «**عَمَلًا**» نكرة يشمل أي عمل كبيرًا كان أم صغيرًا، عمل دين أو عمل دنيا، فكما هو مطلوب من العبد مثلًا أن يخشع في صلاته، كذلك

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٨٧٢)، وأحمد (٩٤٤٢)، ومسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي (١١٣٧)، وابن حبان (١٩٢٨)، والطبراني في الكبير (١٠٠١٤)، والحاكم (١/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٢ – ٥٣١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٣).

مطلوب من العبد أن يجتهد في وظيفته ودراسته وتعليمه، وأن يجتهد في أي عمل يقوم به ما دام هذا العمل مباحًا ينفعه في دنياه.

وهو يفعل هذا لينجح أو يتفوق أو يحصل على ترقية، ولكنه يجد هنا حافزًا هائلًا ضخمًا تذهب من أجله الأرواح شعاعًا، إنه «محبة الله».

إن هذا الدين عظيم، ودائمًا وأبدًا يتأكد للإنسان أن مشكلة هذا الدين هي وراثة هذه الأمم التي ضعفت رابطتها بدينها، وأصبحت أحوج ما تكون إلى من يعيد إليها هذه الروح، ويبعثها من جديد، ويقوي صلتها بربها، ويحول إيمانها بهذا الدين إلى عمل وممارسة وإتقان.

فهذا الدين ليس فيه انفصال بين أمر الدنيا وأمر الآخرة، والطريق إلى الجنة يمر من خلال الإحسان إلى الأهل والجيران وأداء الأمانة والقيام بالوظيفة والتفوق في العمل، والإخلاص في التعامل مع الناس، وليس فقط من خلال الأعمال التعبدية المحضة.

إن النصارى يعبدون ربهم يومًا واحدًا في الأسبوع، ويعبدون البنك فيما سوى ذلك، لكن المسلم حياته كلها عبادة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. فليستشعر المسلم معنى العبادة وهو يصلِّي ويسجد، ويركع ويسعى ويَحْفِد، وليستشعر المسلم معنى العبادة وهو يؤدي حق أهله أو يحضن طفله، أو يخلص في عمله، أو يجتهد في دراسته.



أســرى بــدر



❖ في مجلس الشورى:

أَبِنْ أَيُّها التَّاريخُ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ... لِيُبْصِرَه العامُــونَ عَنْهُ تَعَمُّــدَا

إِذَا قَامَتْ الدُّنْيَا تَعُدُّ مَفَاخِرًا ... فَتَارِيخُنَا الوَضَّاحُ مِنْ بَدْرٍ ابْتَدَا

وَيَبْقَى صَدَى بَدْرٍ يَرِنُّ بِأُفْقِنَا ... هِتَافًا عَلَى سَمْعِ الزَّمـانِ مُرَدَّدَا

بِلادٌ أَعَزَّتْها سيـوفُ مُحَمـدٍ ... فَمَا عذْرُها أَلَّا تُـعِـزَّ مُحَـمَّـدَا[1]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما أسر الأسرى في بدر قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**مَا تَرَوْنَ فِي هؤلاءِ الأَسْرَى؟**».

لقد كان من عادته ﷺ أن يستشير أصحابه، ولم يكن مستبدًّا برأيه ولا يستأثر به، مع أن الوحي يأتيه بكرة وعشيًّا، إلا أنه كان يشاور أصحابه رضي الله عنهم، فكان أول مَن نطق وتكلم مقدمهم وإمامهم الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه، فقال: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية،

(١) للشاعر: وليد الأعظمي.

فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

إن هذا الموقف من الصدِّيق رضي الله عنه يعبِّر عن الرغبة في الهداية، حتى لقوم واجهوا النبي ﷺ بالسيوف والرماح، وقتلوا مَن قتلوا من أصحابه، وأسروا في ساحة حرب ضروس بينهم وبين الإسلام بعد أن اعتدوا على المسلمين، وطردوا النبي ﷺ وحاربوه حتى في المدينة التي هاجر إليها، ولقد لحظ أبو بكر رضي الله عنه جانب القرابة، فقال: هم بنو العم والعشيرة. واعتبر أن هذا الأمر مسوغ لأخذ الفدية منهم وألا يقتلوا.

ثم استشار النبي ﷺ الفاروق الذي كان الشيطان يَفْرَق منه، وما رآه سالكًا طريقًا إلا سلك طريقًا آخر[1]، فقال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر.

وهنا الوضوح في المواقف، فهو يختلف عن رأي أبي بكر، فقال: ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عَقِيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان –وذكر نسيبًا له– فأضرب عنقه. وهكذا ذكر أن القريب يمكن من قريبه ليقتله، وكأن مراده رضي الله عنه أن يعلم الناس أنه ليس في قلوب المسلمين مودة للذين كفروا وإن كانوا أقرب الأقارب لهم.

فهوى النبي ﷺ ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قاله عمر، وقال: «**أَنْتُمْ ضُعَفَاءُ فُقَرَاءُ، فلا يُطْلَقُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِداءٍ**». فقدموا الفدية، فمَنَّ النبي ﷺ عليهم وأطلقهم، ثم أنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٢٩٤)، وصحيح مسلم (٢٣٩٧).

﴿فِي الْأَرْضِ﴾[(1)] [الأنفال:٦٧].

وفي هذه الحادثة وقفات:

أولًا: اختلاف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الأسرى:

إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، فهذا أبو بكر أخذ بالقرابة والصلة والرحم في العفو عن هؤلاء القوم وأخذ الفدية منهم، وعمر أخذ بمبدأ نقيض مبدأ أبي بكر، وهو أنه اعتبر أن القرابة والرحم مسوغ للشدة على هؤلاء القوم وقتلهم، وحين أخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر ولم يأخذ برأي عمر من المؤكد أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد، ولم ينقل لنا قط أن الصحابة انقسموا إلى مجموعات: فهذه تؤيد رأي أبي بكر، وهذه تؤيد رأي عمر، وهذه اتخذت موقفًا ثالثًا، وهذه في أمر مريج، وهذه تعتزل، وهكذا، وإنما نقل إلينا أن الموضوع انتهى عند هذا الحد.

ومن الطبيعي أن يختلف الناس في اجتهادهم حول هذه القضية، ثم يتم اختيار قول من الأقوال من قبل الإمام أو الحاكم، وهو هنا محمد رسول الله ﷺ، وينتهي الأمر عند هذا الحد، بأن المجتمع المسلم بعيد عن الخصومات والمجادلات والصراعات الداخلية التي تنبعث من تعصب كل طرف لرأيه، وإصراره عليه إلى النهاية.

---

(١) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٢٦١، ٣٦٦٨٤، ٣٦٦٩٠)، ومسند أحمد (٢٠٨، ٢٢١، ٣٦٣٢)، وصحيح مسلم (١٧٦٣)، ومسند البزار (١٩٦)، وصحيح ابن حبان (٤٧٩٣)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٦)، وسنن البيهقي (١٢٦٢٢، ١٧٨١٨، ٢٠٠٩٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٤٦)، وتاريخ الإسلام (٢/ ١١٥-١١٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٠)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٩٧).

ولم يكن بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بسبب اختلاف الرأي مشكلة، ولم ينقل أن أبا بكر استدعى عمر وجلس معه جلسة خاصة، وقال له: يا عمر، لماذا تكلمت وقد قدمت رأيي؟ فكان عليك أن تصمت. كلا، ولا حدث أن عمر خاطب أبا بكر أو ساره وقال له: إن رأيك لم يكن جيدًا.

فالكل يؤمن بأن المنطلق هو الإخلاص والنية الصادقة، والرغبة في نصرة الدين، لكن أبا بكر رضي الله عنه غلب جانب الهداية، وهو الجانب الذي يغلبه النبي ﷺ نفسه، ولذلك أخذ برأي أبي بكر، أما عمر فغلب جانب النكاية والانتقام من هؤلاء القوم، وإظهار عزة الدين، وأنه ليس في قلوب المسلمين مودة للكافرين المحاربين.

وهذا مبدأ وموقف مهم جدًّا في معركة هي أولى معارك الإسلام.

ثانيًا: غير ذات الشوكة:

نحن ندرك أن معركة بدر هي يوم الفرقان -كما سماه ربنا- وهو أول يوم أعز الله فيه الإسلام، وكانت معركة فاصلة كما يسميها جميع المؤرخين وكتَّاب السير؛ لأنها المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين، وكان انتصار الإسلام فيها مؤذنًا بأنه سيمتد إلى الجزيرة العربية كلها، بل إلى ما وراءها، ومع ذلك فقد سجَّل الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن الصحابة لم يكونوا راغبين في المصادمة مع هؤلاء القوم في البداية، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧].

فقد كانوا يتمنون أن يحصلوا على عير أبي سفيان التي خرجوا لها

ويستردوا أموالهم التي أخذت بغير حق، وألا يكون هناك مجال للمواجهة والقتال، وهذا ينسجم تمامًا مع ما رواه الشيخان وغيرهما أن النبي ﷺ كان يقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ**»[1].

إن الإسلام ليس دينًا يتعطش للدماء والحروب، بل هو دين هداية، دين إنساني عالمي، لكن إذا وُقِفَ في وجه دعوته وحورب وعودي فهو دين له مخالب وأنياب، فلا يواجه القنابل والسيوف والحروب بالورود والزهور والرياحين! كلا، فالنبي ﷺ هو نبي الرحمة ونبي الملحمة، وهذه لها موقفها وتلك لها موقفها، ولذلك كان النبي ﷺ وأصحابه في معركة بدر يتمنون أن غير ذات الشوكة -أي غير الحرب- تكون لهم، والله تعالى

علم ما هو الخير فأراده وأجرى القدر فيه، فالتقى المسلمون مع أعدائهم، والتقى الجمعان:

هناكَ الْتَقَى الْـجَمْعانِ جَمْعٌ يَقُودُهُ
غُرورُ أَبِي جَهْلٍ كَـهِـرٍّ تَأَسَّدَا
وَجَمْعٌ عَلَيْه مِنْ هُداهُ مَهَابَةٌ
وَحَادِيَةٌ بِالآياتِ فِي الصَّبْرِ قَدْ حَدَا
وشَمَّرَ خَيْرُ الْـخَلْقِ عَنْ ساعدِ الْفِدَا
وَهَزَّ عَلَى رَأسِ الطُّغَاةِ الْـمُهَنَّدَا

(1) أخرجه عبد الرزاق (٩٥١٤)، وابن أبي شيبة (١٩٥٠٧، ٣٣٠٨٠)، وأحمد (١٩١٣٧)، والبخاري (٢٨١٩، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤١، ١٧٤٢، ١٩٠٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، والحاكم (٢/ ٨٧).

وَجِبْرِيلُ فِي الأُفْــقِ الْـقَرِيــبِ مُكَبِّرٌ
لِيُلْقِي الْوَنَا والرُّعْبَ فِي أَنْفُسِ العِدَى[(١)]

وكتب الله تعالى النصر للمؤمنين، وجعل الدائرة على أعدائهم، وهذا كله رغم الفترة الطويلة جدًّا من الصعوبات التي واجهها المسلمون في مكة ثم في المدينة، ومع ذلك يخوضون المعركة الأولى على غير رغبة منهم ولا اختيار، ولكنه قدر الله تعالى الذي ساقهم إلى ذلك.

وبعد انتهاء المعركة كان في يد المسلمين هؤلاء الأسارى من صناديد قريش قد ظفروا بهم، والسؤال هو: هل أعمل المسلمون عوامل الانتقام والثأر والانتصار، أم كانت روح الإيمان والإنذار والرغبة في الهداية والرحمة والشفقة على الناس أوسع عندهم من ذلك كله؟

هذا هو ما نجده في الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وبين المسلمين، ثم انتهى بأن يأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر.

إذًا: هو رأي الرسول ﷺ شخصيًّا، وهو رأي أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ولذلك أخذ النبي ﷺ به وطبقه، وجعله نظامًا جرى به على هؤلاء الناس.

ثالثًا: المولى يعاتب نبيه ﷺ:

يتساءل البعض ويقولون: لماذا نزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الأنفال:٦٧]. هل يعني هذا أن رأي النبي ﷺ

(١) للشاعر: وليد الأعظمي.

وأبي بكر رضي الله عنه مرجوح وأن رأي عمر رضي الله عنه كان هو الراجح؟

والجواب: أنه لا يظهر هذا، بل نصوص القرآن تدل على أن ما فعله النبي ﷺ كان صوابًا، ولم يعاتبهم الله تعالى في شأنه قط، وإنما عاتبهم في شأن آخر، فقال لهم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧].

فعاتبهم على الأسر، بمعنى أن الله تعالى كأنه يقول للمؤمنين: وقد لقيتم المشركين في ميدان المعركة وشهروا سيوفهم في وجوهكم، فلماذا تأسرونهم؟ لماذا لم تقتلوهم كما يقاتلونكم؟ هذا شيء طبيعي جدًّا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤]. وليس المعنى: لقيتموهم في الشارع أو في السوق أو في بيوتهم.

وإنما لقيتموهم في ميدان المعركة، وهم قد جاءوا واستعدوا وتهيؤوا لقتالكم، فأي قانون في الدنيا أو نظام أو مبدأ أو دولة يمكن أن يقول: إن هؤلاء يواجهون بغير الحرب؟ قوم حاربوكم وقاتلوكم واستعدوا لقتالكم لا بد أن يواجهوا بمثل ذلك.

وَما هُوَ إلا الوَحيُ أَو حَدُّ مُرهَّفٍ ... تُميلُ ظُبَاهُ أَخدَعَي[1] كُلِّ مائلِ

فَهَـذا دَواءُ الـدَّاءِ مِن كُـلِّ عاقِـلٍ ... وَهَذا دَواءُ الدَّاءِ مِن كُلِّ جاهِلِ[2]

---

(١) المرهف: السيف الحاد. وظب السيف؛ جمع: ظُبَّة، وهو حد السيف. والأخدعان: عرقان خفيان في موضع الحجامة من العنق.

(٢) ينظر: المثل السائر (٢/ ٢٩٥).

قال: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد:٤]. حرب بحرب، وضرب بضرب، وسيف بسيف، ومواجهة متكافئة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾. أي: بالغتم في النكاية بهم وقتلهم، فهنا ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. أي: بالأسر، فالآية تدل على أن الأسر لا يكون في بداية الحرب طمعًا في المغنم أو الفدية، وإنما يكون بعد الإثخان فيهم، وهذا ما لم يقع في يوم بدر.

فالله تعالى عاتبهم أنه ما كان لكم أن تأسروهم حتى تثخنوهم، فإذا أثخنتموهم فأسروهم، فإذا أصبحوا أسرى فقد انتقلوا حينئذ من المقاتلين إلى أن يكونوا أسرى حرب، ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧]. أي: فإذا أثخن في الأرض كان له أسرى، وهؤلاء الأسرى حكمهم: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾. فإذا أثخن فيهم بالقتل انتقل إلى المرحلة الأخرى وهي: ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾. فإذا شددنا الوثاق صار هؤلاء أسرى حرب كما في المصطلحات المعروفة، ثم قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد:٤].

ولم يذكر الله سبحانه وتعالى هنا القتل، فذكر المَنّ أو الفداء.

وهذا الذي عمله النبي ﷺ، أنه قد يمن على بعضهم كما مَنَّ على كثيرين، وقصة ثُمامة بن أُثال رضي الله عنه هي مثال لذلك[١]، وذلك دون أن يطلب منه فدية، أو يطلب الفدية، وهذا ما بينه بقوله: ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾. أي: أن يطلب

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٥١)، وصحيح البخاري (٤٦٢، ٢٤٢٢، ٤٣٧٢)، وصحيح مسلم (١٧٦٤)، وسنن أبي داود (٢٦٧٩)، وتفسير الطبري (٢٦/ ٤٢)، وتفسير البغوي (٤/ ١٧٨)، والبداية والنهاية (٥/ ٤٩).

منهم الفدية ويطلقوا مقابلها، وقد يكون من أئمة الإسلام مَن يرى أن له أن يقتل الأسير لسبب معين، مثل: أبي عزة الجمحي الذي خدع المسلمين مرة بعد أخرى، فقال له النبي ﷺ: «**لَا واللهِ، لَا تَمْسَحُ عَلَى عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ: قَدْ خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ**»(١).

رابعًا: دين الإسلام دين الرحمة والملحمة:

إن دين الإسلام هو دين الرحمة، ودين الملحمة، ودين العدل، وقد جعل الله تعالى لكل شيء قدرًا، فالحرب لها أحكامها، والأَسْر له أحكامه، والسِّلْم له أحكامه، وكثير من المسلمين اليوم الذين يختلطون بغير المسلمين ويعايشونهم في بلاد الغرب وسواها قد تضطرب عندهم الأمور، فلا يفرقون بين الناس، ولا بين المَوَاطِن، وهذه الأوضاع التي يعيشها المسلمون المغتربون، أو من أهل البلاد الأصلية في أوروبا أو أمريكا تجعلهم في أمسِّ الحاجة إلى أن يتعلموا ويتقنوا أساليب التعامل مع هؤلاء القوم ومخاطبتهم ودعوتهم، بالإقناع، والقدوة، وبيان محاسن الإسلام التي من شأنها أن تقربهم، وتجعل قلوبهم أكثر استعدادًا لتقبل الإسلام والنظر فيه، فالمسلمون دعاة قبل أن يكونوا جباة أو مقاتلين، وإنما القتال دواء لداء، أو عبارة عن الكي الذي هو آخر الدواء، والمسلمون في عصور التاريخ كلها لم يكونوا معتدين

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٥)، وسنن البيهقي (١٧٨٠٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٠٧)، ونصب الراية (٣/ ٤٠٥)، والبداية والنهاية (٤/ ٤٦، ٥١)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٥٤)، وفتح الباري (١٠/ ٤٤٠)، والمقاصد الحسنة (١٣٢٩)، وكشف الخفاء (٣١٣٢).

ولا ظالمين، ولا طلاب مال أو شهوة أو شهرة، وإنما كانوا دعاة إلى الله عز وجل.

إنه يجب أن نقول: إن عدد الذين قُتلوا في الفتوح أو في الحروب الإسلامية كلها في عهد النبي ﷺ لا يتجاوزون بضع مئات خلال أكثر من ثلاث وعشرين سنة، بينما نجد أن ضحايا حرب واحدة من الحروب التي تديرها القوة الغربية والشرقية اليوم على الإسلام يعدون بالآلاف أو عشرات الآلاف: من المقاتلين، ومن الرجال والنساء والأطفال والشيوخ الأبرياء، فهذا الدين دين الرحمة الذي بعث الله به نبيه ﷺ رحمة للعالمين.



خبيب في مكة



❖ على مـاء الرَّجِيـع:

أرسل النبي ﷺ مجموعة من أصحابه في سرية بقيادة عاصم بن ثابت رضي الله عنه، فأسرهم المشركون، فقاتل بعضهم حتى قتلوا، واستسلم ثلاثة منهم تحت العهد والميثاق ألا يقتلوا، وكان منهم خُبيب، فأخذوه وباعوه لبعض المشركين بمكة ليقتلوه بأبيهم الذي قُتل يوم بدر، فأسر خُبيب رضي الله عنه، وكان ينتظر القتل، وفي أسره عبر أي عبر.

❖ وفاء في وجه الغدر:

جاء في «صحيح البخاري» أن خُبيبًا رضي الله عنه كان قد تهيأ للموت وهو في الأسر، فطلب من صاحبة البيت موسى حتى يستحد بها، ويزيل شعره من بدنه، وفي هذه الأثناء تسلل إليه طفل صغير من أطفالهم.

تقول صاحبة البيت: ما إن فقدت الطفل حتى شعرت باللوعة والخوف؛ أين ذهب ابني، فنظرت فإذا هو على فخذ خُبيب، فأصابني ما أصابني، وقلت: السكين في يده، والطفل في حجره، وهو رجل مأسور ينتظر الموت، فلا بد أنه سوف يأخذ بثأره فورًا، ويقتل هذا الطفل بنفسه.

لقد عرف خُبيب ما في نفسها وابتسم وقال لها: أتخشين أن أقتله؟ والله ما كنت لأفعل ذلك[1].

❖ شرف الخصومة:

إن أثر هذا الدين في التربية الراقية التي يغرسها في أبنائه ليست من خلال الادعاءات العريضة والشعارات الجوفاء، بل من خلال الممارسة العملية الصغيرة والكبيرة؛ فإن هذا الصحابي الأسير ما أقبل على أي عمل، مع أن العاطفة البشرية قد تحمله على أن يعمل عملًا ما، لكن هذا الدين رباه تربية خاصة بحيث إنه لم يفكر أن ينتقم ويقتل هذا الطفل البريء.

هذا المعنى العظيم يجب أن يجدد اليوم في واقع المسلمين، ويؤكِّد للعالَم أجمع أن هذه القيم العظمى هي قيم الإسلام، وأن المسلمين حتى خلال الحرب كانت وصية نبيهم ﷺ إليهم أن لا يقتلوا وليدًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأةً، ولا أصحاب الصوامع... إلى آخر ما هو معروف في وصايا النبي ﷺ ووصايا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، والبخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩، ٤٠٨٦)، وأبو داود (٣١١٢)، والنسائي في الكبرى (٨٨٣٩)، وابن حبان (٧٠٣٩)، والبيهقي (٦٤٢٨). وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٢٥)، وتفسير البغوي (١/ ١٨١)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٣٠- ٢٣١)، والبداية والنهاية (٤/ ٦٢- ٦٣).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٧٢٨، ٢٣٠٨٠)، وصحيح مسلم (١٧٣١)، وسنن أبي داود (٢٦١٣، ٢٦١٤)، وجامع الترمذي (١٤٠٨، ١٦١٧)، وسنن ابن ماجه (٢٨٥٧، ٢٨٥٨)، وصحيح ابن حبان (٤٧٣٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٣٠٥، ٧٣٩٧، ١١٥٦٢)، والمعجم الأوسط (١٣٥، ١٤٣١، ٤١٦٢)، والمعجم الصغير (٣٤٠، ٥١٤)، والمستدرك (٤/ ٥٨٢)، وسنن البيهقي (١٧٧٢٨، ١٧٨٢٥، ١٧٩٢٩، ١٧٩٣١ - ١٧٩٣٤).

❖ ولا تعتدوا:

نحن اليوم أمام ما يسمى بالحرب على الإرهاب، والتي وجدنا أنها عرت الكثير من الادعاءات التي تقال عن حقوق الإنسان، خصوصًا حين تنتقل الجيوش إلى دول أخرى غير دولها، فأصبح هناك عدوان، وتعذيب، وإطاحة بالإنسانية، واستخفاف بالجنس البشري، ويصاحب ذلك حملة هائلة وضخمة ومضللة من ادعاءات تتعلق بالحفاظ على حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، لكن الإسلام ينشر هذه الحقوق بطريقته الخاصة، وهذه القصة هي أبلغ تعبير يجب أن يوصل للمسلمين كما يوصل لغيرهم.

طفل صغير في حجر رجل يتهيأ للموت ظلمًا وعدوانًا وقهرًا، فقد أخذ بالخدعة والعهد والميثاق، ومع ذلك يقول لها: لا تخافي على طفلك، ما كنت لأقتله.

هذه تربية محمد ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[1].

أين شباب المسلمين من هذا المعنى: ألَا تقتل طفلًا، ولا امرأةً ولا شيخًا ولا بريئًا -يعني: ممن لا يقاتلون- وهذا حينما تكون منهمكًا في معركة شرعية واضحة المعالم مع عدوك، فكيف إذا كانت القضية فيها لبس؟ فكيف إذا كانت القضية فيها عدوان؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠]. ويقول

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٩٤٩)، وأحمد (١٥٤٦٢)، والدارمي (٢٥٩٧)، وأبو داود (٣٥٣٤، ٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والدارقطني (٣/ ٣٥)، والحاكم (٢/ ٥٣)، والبيهقي (٢١٠٩٢).

سبحانه في محكم تنزيله في غير ما موضع: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة:٨]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ﴾ [المائدة:٢]. مَن عصى الله فيك فحقه أن تطيع الله فيه، فلا تخن مَن خانك، ولا تظلم مَن ظلمك، ولا تغدر مَن غدر بك، ولا تهتك عرض مَن هتك عرضك.

هذه قيم وأخلاقيات حتى في الحرب يقررها الإسلام لأبنائه.

❖ أحب إليه من نفسه:

موقف آخر: يخرج خُبيب بن عَدي رضي الله عنه من مكة ليُقتل، فيقال له: أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي»(١).

يعني: أُفَضِّل أن أموت على أن تصيب النبي ﷺ شوكة في رجله.

إن هذا هو الإيمان والشعور بنعمة الله تعالى عليك ببعثة هذا النبي الكريم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

فهو يفدي النبي ﷺ بنفسه وأهله وماله وولده، وحتى في هذا الموقف

---

(١) ينظر: معجم الطبراني الكبير (٥٢٨٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٢٦-٣٢٧)، وحلية الأولياء (١/ ٢٤٦)، وتاريخ دمشق (٢١/ ١٦٢)، والمنتظم (٤/ ٣٠٣)، وزاد المعاد (٣/ -٢٤٤ ٢٤٥)، والبداية والنهاية (٤/ ٦٦).

الذي يؤمن فيه الكافر، ويعيى فيه الشاعر، ويصدق فيه الكاذب، كان تعبير خُبيب رضي الله عنه تعبيرًا عن كل الذين أحبوا النبي ﷺ من أعماق قلوبهم، وأدركوا عظيم أثره في حياتهم، وأنه هو القيادة النبوية التي اختارها الله تعالى لهذه الأمة، فهو حظنا من النبيين، كما نحن حظه من الأمم، ولذلك فإن حبه ﷺ مغروس في أعماق أعماق القلوب، والذين لم يذوقوا طعم محبته ﷺ لم يذوقوا طعم الإيمان بالله عز وجل: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[١].

❖ خبيب أمام المشنقة:

لقد خرج خُبيب رضي الله عنه إلى القتل، فكان منه موقفين:

أولًا: قصيدة يرتجلها وكأنه يقدم إلى عرس واحتفال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْـزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا
قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُـلَّ مَـجْـمَـعِ

وَكُلُّهُـــمْ مُـبْـدِي الْعَدَاوَةَ جَاهِــدٌ
عَـلَيَّ لأَنِّــي فِــي وَثَــاقٍ مُـضَـيَّعِ

وَقَدْ قَـرَّبُــوا أَبْـنَـاءَهُمْ وَنِسَـاءَهُـمْ
وَقُــرِّبْتُ مِــنْ جِــذْعٍ طَـوِيلٍ مُمَنَّعِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٢١)، وأحمد (١٢٨٣٧، ١٣٩٩١)، والدارمي (٢٧٤١)، والبخاري (١٤، ١٥)، ومسلم (٤٤)، وابن ماجه (٦٧)، والنسائي (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥)، وابن حبان (١٧٩).

إِلَى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتـي بَـعْـدَ كُرْبَتِي
وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي
فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَـاسَ مَطْمَعِي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتُ دُونَـهُ
وَقَـدْ ذَرَفَـتْ عَيْنَـايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِي حِذَارُ الْـمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّـتٌ
وَإِنَّ إِلَى رَبِّـي إِيـابِي وَمَـرْجِعِـي
وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُـسْـلِمًا
عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَـانَ فِي اللهِ مَـضْـجَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَـــهِ وَإِنْ يَشَـأْ
يُـبَــارِكْ عَلَى أَوْصَـالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[١]
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَـدُوِّ تَـخَـشُّـعًا
وَلَا جَــزَعًا إِنِّـي إِلَى اللهِ مَـرْجِعِـي

بهذه القوة وبهذا الوضوح يتكلم ويخاطب حتى كتب هذه القصيدة وحفظها قوم كافرون، ثم هم بعد يؤمنون ويتحدثون عنها.

(١) هذا البيت والذي قبله أخرجه: عبد الرزاق (٩٧٣٠)، وأحمد (٧٩١٥، ٨٠٨٢)، والبخاري (٧٤٠٢)، وابن حبان (٧٠٣٩)، والطبراني في الكبير (٤١٩١).

والقصيدة بكاملها موجودة في: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٣٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٢٩)، وحلية الأولياء (١/ ١١٤)، والاستيعاب (٢/ ٤٤١)، وتاريخ دمشق (٢/ ٢٣٤)، والبداية والنهاية (٤/ ٦٧)، وعمدة القاري (١٤/ ٢٩٣).

ثانيًا: يستأذنهم ليصلِّي ركعتين، فيأذنون له، فيستقبل القبلة ويصلِّي ركعتين.

إن رباطة الجأش وقوة القلب إنما توجد عند أولئك الذين قرروا أن يربطوا قلوبهم بالله جل وتعالى: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[(١)]. فيقوم ويصلِّي ركعتين، والعجب كل العجب أنه حين صلَّى ركعتين خففهما ولم يطل في صلاته، ثم أقبل عليهم يعطيهم درسًا في عزة الإيمان وقوته: «والله لولا أن تظنوا أني إنما أطلت خوفًا من الموت لأطلت»[(٢)].

هذه المعاني العظيمة، وهذه الممارسات العملية التي تربَّى عليها المؤمنون الأولون هي ما نحتاجه اليوم، وهي ما يحتاجه المسلم حتى يعرف حقيقة دينه وعظمته، والأخلاقيات التي تربى عليها المؤمنون الأولون هي ما نحتاجه اليوم أيضًا حتى نقدم بها الإسلام لغير المسلمين، والذين يظن الكثير منهم أن الإسلام دين العنف والدموية والقتل والانتقام، لكن لو قدمنا لهم نماذج السيرة النبوية وتصرفات المسلمين الأولين التي هي خير تعبير عن حقيقة هذا الدين، لأحدثت عندهم نقلة هائلة غير متوقعة.



(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣، ١١٥٦٠)، والحاكم (٣/ ٦٢٣، ٦٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤، ١١٣٩، ١٠٠٠٠، ١٠٠٠١).

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٢٦)، وحلية الأولياء (١/ ١١٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٦٥).

اليوم يوم وفاء وبر



❖ يوم الفتح:

جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ لما فتح مكة دخل الكعبة وفيها ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده، فتتهاوى وتتساقط واحدًا بعد الآخر وهو يقول: «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كانَ زَهُوقًا، جَاءَ الْـحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**»[1].

هذا الموقف التاريخي العظيم المتمثل في فتح مكة كان في السنة الثامنة من الهجرة، ولم يكن هذا الموقف العظيم فتحًا لمكة البلد الحرام فحسب، وإنما كان تتويجًا لدينونة الجزيرة العربية كلها لدين الإسلام، وإيذانًا بانتقال الإسلام إلى مرحلة أخرى من المجاهدة والفتح والإصلاح.

لقد كانت مكة أعصى المدن على دعوة الإسلام وعلى النبي ﷺ؛ خرج منها بالأمس متألمًا حزينًا لفراق بلده، يلتفت إليها وهو يقول: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْـرُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥٨٤، ١٠٩٦١)، والبخاري (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨٠، ١٧٨١)، والترمذي (٣١٣٨)، وابن حبان (٤٧٦٠، ٥٨٦٢)، والطبراني في الكبير (١٠٤٢٧، ١٠٥٣٥، ١٠٦٥٦).

أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْك مَا خَرَجْتُ»[1].

فعزَّاه وسلَّاه ربه ومولاه فقال له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

وها هو قد عاد ﷺ، وها هي كتائب الإسلام تدخل مكة ظافرة منصورة، ومع أن هذا الفتح أعظم الفتوح، إلا أنه لم يرق فيه دم، حتى قال بعض أهل العلم: إن مكة فتحت صلحًا. وقال آخرون: بل فتحت عنوة وبالقوة والحرب. وأيًّا ما كان فإن عدد القتلى يعدون بالأصابع في هذا الفتح العظيم، وهذه إشارة كبيرة إلى أن جهاد الإسلام لم يكن يستهدف قتل الناس، وإنما يهدف إلى دينونة الناس لربهم جل وتعالى لا لغيره.

❖ الجهاد ليس توسعًا ولا استكبارًا:

إن الجهاد الإسلامي لا يسعى لابتزاز أموال الناس واستعبادهم، وإنما يسعى لدينونة الناس لله عز وجل، ورفع الظلم عنهم، وقديمًا كان كسرى وقيصر وغيرهم من الملوك يَسُومُونَ الناس سوء العذاب، حتى جاء الرسول ﷺ بهذا الدين.

فجاء الإسلام ليحرر الإنسان من طغيان أخيه الإنسان ويعبِّده لربه الواحد الديان، وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء:٧٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٩٠٠)، وأحمد (١٨٧٣٧، ١٨٧٣٨)، والدارمي (٢٥١٠)، والترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والطبراني في الأوسط (٤٥٤).

فتح النبي ﷺ مكة وجعل يطوف بالبيت وبيده عود يطعن به الأصنام فتهاوت واحدًا بعد الآخر، ومؤذنه يصدح: (أن لا إله إلا الله).

إن تاريخ الفتح الإسلامي الرشيد تاريخ أبيض نظيف، وإن تخلله في بعض العصور المتأخرة شيء من مطامع الدنيا ومكاسبها، فإن العبرة ليست بالتاريخ فقط، إنما العبرة بالممارسات الراشدة التي تمثل حقيقة هذا الدين، ومع ذلك يظل الفتح الإسلامي هو الأرقى والأنقى، وباعتراف الأعداء قبل الأصدقاء، فهاهم كُتَّاب الغرب يعترفون بذلك، كما يقول أحد المؤرخين البريطانيين الكبار (أرنولد توينبي): ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب.

لقد كان فتحًا عظيمًا؛ لأن محمدًا ﷺ هو قائد المسيرة، ولذلك أرشد الناس إلى البوصلة الصحيحة، وبين لهم حقيقة الأمر.

هذا الفتح العظيم الذي سجلت البشرية صفاءه ونقاءه وحفاظه على الناس لم يعتد على حقوقهم، ولم يبخس أحدًا منهم ولم يظلمه.

❖ أنظمة العالم كانت أنظمة بغي واستخفاف:

إن الكثيرين ممن كتبوا عن الإسلام وتاريخ الإسلام وفتوحاته حتى من غير المسلمين يعترفون بعظمة هذا الدين، وعظمة الأخلاق التي انتصر بها المسلمون، فقد كانوا يفتحون قلوب العباد قبل البلاد، وهذه الأمم والشعوب والأجناس التي فتحت آنذاك أصبحت اليوم تدين بالإسلام وتدافع عنه، وتؤمن به، وتموت في سبيله، وتشارك في صناعة واقعه كما شاركت من قبل في صناعة تاريخه العظيم، وما ذلك إلا لأن الفتح لم يكن عدوانًا ولا اغتصابًا

ولا تسلطًا، ولكنه كان فتحًا للقلوب، وحماية للشعوب.

لقد وَجَدَتْ تلك الشعوب من فتح الإسلام وعدالته ما لم تجده في الحكام الذين كانوا من جنسها، فأَحَبَّت المسلمينَ وآثرتهم، وشهدت لهم بالفضل، واعتنقت الدين الذي انتصر وتغلب، فهذا الدين العظيم فتح القلوب بالحق والعدل والأخلاق قبل أن يفتح البلاد بالسيف والقوة والسلطة، واليوم يستطيع المسلم الذي لا يملك القوة أن يفتح القلوب بصدقه وأخلاقه النبيلة، وعلمه الصحيح، وتفكيره المعتدل، وقوله السديد، وأن يكون ناطقًا بالقرآن، ناطقًا بالحق والعدل.

❖ اليوم يوم وفاء وبر:

كانت سدانة البيت في الجاهلية إلى آل شيبة، فلما فتح الله مكة لرسوله ﷺ قام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحِجابة مع السِّقاية[1] صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «**أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟**» **فدعي له فقال**: «**هَاكَ مِفْتاحُكَ يَا عُثْمانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفاءٍ**»[2].

هذا المعنى العظيم الذي يكرِّسه النبي ﷺ بهذه المناسبة الخالدة، من التأكيد على معنى البر والوفاء والشكر، يؤكد أن هذا الدين الذي جاء مهيمنًا

(١) الحجابة: خدمة البيت، والقيام بأمره.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٧٤)، وتاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٩)، وزاد المعاد (٣/ ٤٠٩)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٠١)، والسيرة الحلبية (٣/ ٥٢)، ومختصر السيرة لابن عبد الوهاب (٢٠٣).

على الحياة كلها جاء بأحوال من السعادة والأنس، والرضا والفرح والسرور الذي من طبع الإنسان أن يميل إليها ويبتهج بها.

❖ فليفرحوا:

لقد فرح النبي ﷺ والمسلمون بفتح مكة ما لم يفرحوا بمثله قط، وكان النبي ﷺ قبل ذلك يشعر المسلمين بشكل مستمر أن الفرح جزء من الحياة، وأن العبد عليه أن يفرح ويسر سواء بالمكاسب الدينية: من علم، أو عمل، أو عبادة، أو صيام، أو قيام، أو توفيق، أو قرآن، أو حفظ، أو خير، أو دعوة، أو نجاح في أمر من هذه الأمور التعبدية، وفي ذلك قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]. أو الفرح بالدنيا أيضًا فهي المعنية في قوله: ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. وإن كانت الأولى خيرًا منها إلا أن الفرح بالدنيا ما دامت في حدود ما يرضي الله مطلب أيضًا، كأن يفرح الإنسان بتوفيق، أو ترقٍّ، أو نجاح، أو مستوى أفضل في عيشه، أو في زواجه، وما أشبه ذلك، فهذا الفرح لا يذم، بل هو محمود ومن طبيعة الإنسان.

إن الحياة ليست جدًّا دائمًا، ولا أمرًا صارمًا، فلا بد فيها من أوقات يستروح فيها الإنسان إلى الراحة والرضا والسرور والأنس الذي هو مرضاة لله عز وجل، وتسلية للقلب، وإبعاد للهم والغم، فالحياة بغير فرح لا تدوم ولا تستمر، ولا يقوى العبد على مواجهة صعوباتها وآلامها، فلنفرح، فالفرح فيما لا يسخط الله عز وجل خير، يفتح مباهج النفس وآفاقها، ويجدد إمكانياتها وطاقاتها، ويدفعها دفعًا إلى مزيد من الإنجاز والنجاح.

لا بد من الفرح في الحياة، والترويح عن النفس، حتى للجادين والمشغولين؛ كان عمر رضي الله عنه وأرضاه يسلِّي نفسه ويقول الشعر، ويتندر ويضحك ويبتسم، ولا عجب؛ فقد تلقن هذا من النبي ﷺ، وإني حينما أذكر عمر فإني أذكر الفاروق الصارم الذي قد يظن بأنه لا يبتسم، ولا يعرف الفرحُ والترويحُ عن النفس إلى قلبه سبيلًا، بينما هو رضي الله عنه خلاف ذلك.

كان عمر رضي الله عنه متلبسًا بإحرامه راكبًا على ناقته، فكانت ترتفع وتنخفض في سيرها، والناس يلبون: «لبيك اللهم لبيك»، وعمر رضي الله عنه يقول[1]:

كَأَنَّ رَاكِبَهَا غُصْنٌ بِمَرْوَحَةٍ ... إِذَا تَدَلَّتْ بِهِ أَوْ شَارِبٌ ثَمِلُ

فيشبه هذه الناقة وراكبها بالغصن في يوم الريح الذي يتحرك ذات اليمين وذات الشمال، أو: شارب ثمل. يعني: يتحرك ويتمايل وهو لا يدري بما حوله.

وكان هو وابن عباس -وابن عباس مازال شابًّا في مقتبل عمره، وكان بينه وبين عمر في العمر فارق زمني كبير جدًّا، ابن عباس في الثالثة عشرة من عمره، وقد ناهز الاحتلام أو جاوز الاحتلام بقليل- ينغمسان في الماء لينظرا أيهما أكثر بقاءً دون أن يتنفس[2].

وسُئل عثمان رضي الله عنه عن المحرم: هل يدخل البستان؟ فقال: «نعم،

---

(١) ينظر: مسند الشافعي (١/ ٣٦٦)، والمجالسة للدينوري (٢٨٥٢)، وسنن البيهقي (٨٩٦٥)، وكشف المشكل (١/ ٣٨٣).

(٢) ينظر: المحلى (٧/ ١٧٤).

ويشم الريحان»[1].

❖ الترويح حق للنفس:

وهكذا كان هدي الصحابة رضي الله عنهم، وهدي المسلمين والأئمة والعلماء أن يعطوا النفس حقها من الترويح، حتى كان الشافعي رضي الله عنه يقول: كان يقال: «ليس من المروءة الوقار في البستان»[2]؛ وإذا ذهب إلى البستان خلع عمامته ومزح وضحك، وتحدث وابتسم، ولاطف مَن حوله. فالحياة فيها كبار وصغار، وشباب ومراهقون وأطفال، ورجال ونساء، وفيها فسحة وسعة.

لقد وقع أن كان النبي ﷺ مضطجعًا في حجرة عائشة رضي الله عنها في يوم عيد، وفوق رأسه جاريتان تغنيان ومعهما الدُّف بغناء العرب في الجاهلية، فدخل أبو بكر رضي الله عنه، فهم بهما وقال: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟! فقال له النبي ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، دَعْهُمَا؛ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ**»[3].

ولما لعب الحبشة بالحِراب في المسجد قال ﷺ: «**الْعبوا** -وفي رواية:

---

(١) ينظر: الشريعة للآجري (ص ١٠٣)، وتاريخ دمشق (١٥/ ٢٤٩، ٢٥٠)، والمهذب للشيرازي (١/ ٢٠٩)، والمبسوط (٤/ ١٢٣)، والمجموع (٧/ ٢٤١)، ومجمع الزوائد (٣/ ٥٢٤)، وعمدة القاري (٩/ ١٥٦)، والتلخيص الحبير (٢/ ٢٨٢).

(٢) ينظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٧٢٦، ٢٤٩٩٦، ٢٥٠٧٢)، والبخاري (٩٥٠، ٩٥٢، ٩٨٨، ٢٩٠٧، ٣٥٣٠، ٣٩٣١)، ومسلم (٨٩٢)، وابن ماجه (١٨٩٨)، والنسائي (١٥٩٣، ١٥٩٧)، وابن حبان (٥٨٦٨، ٥٨٧٧)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٨٠، ١٨١) (٢٨٦-٢٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١١٠).

خُذُوا- يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، حَتَّى يَعْلَمَ الْيَهُودُ والنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةٌ»[(١)].

نعم، إن في ديننا فسحة، ويجب أن نحسن توظيف هذه الفسحة، لأن أخذ النفوس بالجد الصارم أسرع ما يكون إلى قصف الأعمال وانقطاعها، وعجز الإنسان عن المواصلة.

نعم، في ديننا فسحة، وينبغي أن نستثمر هذه الفسحة، وأن نضبطها بضوابط ديننا لئلا تتحول إلى تجاوز أو انحراف.

❖ الحلال والحرام في المتعة:

إن العبد ليعرف في كثير من الأحيان بفطرته الفرق بين الحلال والحرام، وقد قال ﷺ: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**»[(٢)]. يعني: كثير من الحلال بين وكثير من الحرام بين. وفي بعض الألفاظ: لما سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ عن البر والإثم قال: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**»[(٣)].

في كثير من الأحيان يعرف الإنسان من مؤشر قلبه أنه يتجه نحو الخطأ..

---

(١) ينظر: مسند الحميدي (٢٥٤)، ومسند أحمد (٢٤٨٩٨، ٢٦٠٠٤)، وصحيح البخاري (٩٥٠، ٩٨٨، ٢٩٠٧، ٣٥٣٠)، وصحيح مسلم (٨٩٢)، ومسند الحارث (٨٦٦- بغية)، ومسند أبي يعلى (٤٨٢٩)، والسنن الكبرى للبيهقي (٢٠٧٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩٤، ١٨٣٩٨)، والدارمي (٢٥٣١)، والبخاري (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩)، وابن ماجه (٣٩٨٤)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٥٣٩٧، ٥٣٩٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٣٠، ١٨٠٣٥)، والدارمي (٢٥٣٣)، وأبو يعلى (١٥٨٦، ١٥٨٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٤٨) (٤٠٣).

إغراء.. إثارة.. فتنة.. تعلق بشهوة.. استجابة للشيطان.. غفلة عن الله عز وجل، فمعنى ذلك أن الاتجاه حينئذ خطأ، وأن هذه الفسحة ليست شرعية وينبغي أن تجتنب ويبتعد عن مغبتها.

وبحسبك أن تقتصر على ما أحل الله عز وجل، وفي الحلال مندوحة عن الحرام، ولو أن الناس اكتفوا بما أحل الله تعالى لهم من ألوان الطيبات والمتع الحلال لتحقق لهم:

أولًا: طيب الحياة وسلامتها، وصفاء النفوس والقلوب، وتجدد العزائم والهمم مرة بعد أخرى.

ثانيًا: التزام دين الله عز وجل، وتحقيق المثل العليا.

❖ تعبيس أو تدنيس:

إن من الناس مَن لا يفرق بين الجد والهزل، ولقد رأيتُ أقوامًا وهم في عيدهم أو في زواجهم، ومع ذلك تغيب البسمة عن وجوههم، ويستثقل الواحد منهم النكتة حتى لو كانت بريئة، وتجد إسراع الكثير من هؤلاء إلى تكدير هذه اللقاءات الجميلة بإشكالات ومساءلات ومخالفات، وجدل عقيم ومناقشات، وهذا أبعد ما يكون عن الفسحة، كما تجد في المقابل أقوامًا يعتقدون أن للفرح حالًا استثنائية، فيتعدون فيها ما أحل الله إلى ما حرم، ويقعون فيما يعلمون هم أن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه، ولو رآهم محمد ﷺ على هذا الحال لاستحوا وخجلوا من ذلك، فكيف والله عز وجل مطلع عليهم.

إن في ديننا فسحة، والكثيرون لم يحسنوا استخدام هذه الفسحة بشكل صحيح، فحرموا أنفسهم منها أو أساءوا استخدامها، ولقد كان سيدنا محمد ﷺ وهو إمامنا وقدوتنا يفرح ويأذن بالفرح، بل يُعلم أصحابه كيف يفرحون، لقد تسابق هو وعائشة وهم في غزو، فسبقته مرة وسبقها أخرى، وقال ﷺ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»[١].

ولقد داعب ﷺ زاهرًا الأسلمي وهو أعرابي كان صديقًا له واحتضنه من خلفه، وبدأ يعلن عليه بالمزاد: «**مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ، مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟**». فالتفت فرأى النبي ﷺ، فطفق يلصق ظهره بالنبي ﷺ ويقول: إذًا والله تجدني كاسدًا. قال: «**لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ**»[٢].

وجاءته امرأة تسأل عن زوجها فقال لها: «**أَهُوَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟**». فكأنها خشيت وخافت، فقال لها: «**إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ**»[٣].

وجاءته أخرى تسأله أن يدعو لها بدخول الجنة فقال: «**إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**». قال: فولَّت تبكي، فقال: «**أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ**: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٥٨٨)، وأحمد (٢٦٣٢٠)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في الكبرى (٨٩٤٣، ٨٩٤٤، ٨٩٤٥)، وابن حبان (٤٦٩١)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٧) (١٢٤، ١٢٥)، والبيهقي (١٩٥٤٣، ١٩٥٤٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٩٦٨٨)، وأحمد (١٢٦٦٩)، وأبو يعلى (٣٤٥٦)، وابن حبان (٥٧٩٠)، والطبراني في الكبير (٥/ ٢٧٤) (٥٣١٠)، والبيهقي (٢٠٩٦١).

(٣) ينظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٤٢١)، وإغاثة اللهفان (٢/ ١٠٥)، وتخريج أحاديث الإحياء (٣/ ٨٩) (٧).

ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة:٣٥-٣٧][1].

ليس من الوقار التكلف الزائد والجد الصارم، فالابتسامة صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وحسن المؤانسة والمعاشرة لمن تحت يدك من زوج أو ولد أو متعلم إحسان وصدقة، ينبغي أن نلقن هؤلاء هدي الإسلام في الفرح والسرور.



(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤١)، والطبراني في الأوسط (٥٥٤٥)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (١٨٥)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩١)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٧٩، ٣٨٢). وينظر: البداية والنهاية (٦/ ٤٧، ٤٨)، وتخريج أحاديث الإحياء (٣/ ٨٩) (٦)، وروح المعاني (٢٧/ ١٤٢)، والسلسلة الصحيحة للألباني (٢٩٨٧).

في بيت خديجة



❖ حب شريف:

تزوجها النبي ﷺ بمكة وهو في مقتبل عمره وريعان شبابه، بينما كانت قد جاوزت الأربعين من عمرها، ولم يتزوج النبي ﷺ عليها امرأة حتى ماتت[1]، وكانت أم أولاده جميعًا، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية[2].

كان النبي ﷺ يحب خديجة رضي الله عنها، فقد تعرَّف عليها من خلال معاملة تجارية؛ حيث ذهب ببعض ثروتها إلى الشام مع غلام لها، ثم عاد بالربح الوفير، ورأت عليه أمارات الأمانة والصدق فأكرمته وأجلته، فتزوجها ﷺ[3].

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٥/ ٢٣٨)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٤٠٠٣)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٢/ ٤٥) (١٠٩٥)، وتاريخ دمشق (٣/ ١٨٥)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٥/ ٢٣٨)، والسيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٥٧)، والاستيعاب (١/ ٥٠)، والأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لابن عساكر (٣٨)، وزاد المعاد (١/ ١٠٥).

(٣) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٢/ ٦٠)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٧)، وطبقات ابن سعد (١/ ١٣١-١٣٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٦٦-٦٧)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٧٨، ٢٣٢)، والكامل في التاريخ (١/ ٥٦٩)، والبد اية والنهاية (٢/ ٢٩٤)، والسيرة الحلبية (١/ ٢٢٥).

❖ ذكريات عذبة:

ولما ماتت خديجة رضي الله عنها كان النبي ﷺ يذكرها ويثني عليها، حتى إن عائشة رضي الله عنها كانت تغار منها، مع أنها لم ترها؛ حيث كانت جارية في حداثة سنها، فقد تزوج النبي ﷺ عائشة وهي بنت سبع، ودخل عليها وهي بنت تسع، وتوفي ﷺ وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ومع ذلك فقد كانت عائشة تغار من كثرة ذكر النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها[١].

❖ وفاء نادر:

وفي يوم من الأيام استأذنت على رسول الله ﷺ امرأة، فسمع صوتها فإذا به يشبه صوت خديجة رضي الله عنها، مَن هي هذه المرأة يا تُرى؟! إنها هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها، فقال النبي ﷺ وهو فرح مسرور: «**اللَّهُمَّ هالَةُ**»[٢]. يفرح لأختها.

وكان النبي ﷺ يذبح الشاة ويبعث بها إلى صديقات خديجة رضي الله عنها[٣]، وكان ﷺ كثيرًا ما يذكرها، حتى إن عائشة رضي الله عنها قالت له

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٤٣٥٥، ٢٥٦٩٩، ٢٦٤٣٠)، وصحيح البخاري (٣٨١٦-٣٨١٨، ٧٤٨٤)، وصحيح مسلم (٢٤٣٥)، وسنن ابن ماجه (١٩٩٧)، وجامع الترمذي (٢٠١٧، ٣٨٧٥)، وسنن النسائي الكبرى (٨٣٦٣، ٨٩١٣)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٣/ ١١) (١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩)، وسنن البيهقي (١٤٥٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٠١)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢) (١٨)، والبيهقي (١٤٥٧٣)، وينظر: البداية والنهاية (٣/ ١٢٨)، والآداب الشرعية (١/ ٢٦٥)، والإصابة (٨/ ١٤٦).

(٣) ينظر: مسند أحمد (٢٤٣٥٥، ٢٥٦٩٩)، وصحيح البخاري (٣٨١٦، ٦٠٠٤)، =

يومًا: يا رسول الله، ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها؟![(١)] تعني نفسها، لكن النبي ﷺ لا يمل، بل يكرر ويقول لعائشة في هذا الموقف نفسه: «**مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عز وجل خَيْرًا مِنْهَا**»[(٢)]، وفي رواية: «**إِنَّها كانَتْ وكانَتْ وكانَ لِي مِنْها وَلَدٌ**»[(٣)]. بعفوية تامة يكرر السيرة من جديد ويقول لها: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[(٤)].

أَعِدْ ذِكْرَ نُعْمَانٍ لنا إنّ ذكرَهُ ... هُوَ المِسْكُ مَا كرَّرْتَهُ يتضوَّعُ

ومع هذا الوفاء الرفيع منه ﷺ لزوجته نقف عدة وقفات:

أولًا: أن هذا درس كبير في الوفاء والحفاظ على الود، حتى كان النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ حُسْنَ العهد مِنَ الإيمانِ**»[(٥)]. فلقد ماتت خديجة رضي الله عنها،

=وصحيح مسلم (٢٤٣٥)، وجامع الترمذي (٢٠١٧، ٣٨٧٥)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٣/ ١١) (١٥)، والمستدرك (٤/ ١٩٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧)، والبيهقي (١٤٥٧٣)، وينظر: مسند أحمد (٢٥٢١٢، ٢٥٢٥١)، وصحيح ابن حبان (٧٠٠٨)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٣/ ١١) (١٤)، والمستدرك (٤/ ٣١٨).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٤٩٠٨)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٣/ ١٣) (٢٢)، والبداية والنهاية (٣/ ١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨١٨)، وينظر: مشكاة المصابيح (٦١٧٧)، والبداية والنهاية (٣/ ١٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٣٥)، وابن حبان (٧٠٠٦)، وينظر: صحيح السيرة النبوية (٣٨).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٤) (٢٣)، والحاكم (١/ ٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢، ٩١٢٣)، وابن عساكر (٤/ ٥٢)، وينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٥)، وتخريج أحاديث الإحياء (٢/ ١٤١) (٢)، والمقاصد الحسنة (٤٠٩)، والسلسلة الصحيحة (٢١٦).

لكن حبها لم يمت في قلب النبي ﷺ؛ بل كان يفخر ويجاهر به، ويقول -كما تقدم-: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**». فاعتبر حبه لها رزقًا يفرح به ﷺ، ولا يستخفي ولا يستحيي أن يقول بحضرة أصحابه أنه كان يحب خديجة، والناس اليوم أحوج ما يكونون إلى أن يتلقوا هذا الدرس العظيم في الوفاء ونماذجه من المعلم الأول ﷺ.

ثانيًا: أن هذا درس مهم في بناء العلاقات الاجتماعية بين الناس، فمثلًا: مع الزوجين: ربما يعيش الزوجان في حياتهم الأولى ألوانًا من السعادة، لكنك تتساءل: إلى متى يستمر ويمضي هذا الحال؟ وهل ستظل هذه العلاقة الحميمة الجميلة الرائقة بينهما أم أنها سوف تعدو عليها العوادي وتتغير ولو بعد حين، وتنقلب إلى مشكلات، وخصام ونفار، وأخذٍ وردٍّ، وصراخ وصياح؟!

إن للحياة الزوجية تبعات ومسؤولية، وإن من أسباب نجاح البيوت الإسلامية التعامل بقدر طيب من الروح الأخوية والود، والصفاء والوفاء بين الزوجين؛ إنه لمن الضروري لكل مسلم في كل وقت وخاصة في هذا العصر -عصر النخاسة الإعلامية- الذي أصبح فيه الرجل والمرأة على حد سواء، يرون من خلال ما يعرض على الشاشة من الأفلام والمسلسلات والأغاني المصورة وأشياء كثيرة ما يشدهم إلى الشهوة والاندفاع الجسدي البحت، وقد لا يجد الرجل أو المرأة في شريك العمر المواصفات التي يرونها على الشاشة؛ لا من الناحية الشكلية ولا الجسدية ولا غيرها؛ فهنا تصبح الحاجة ملحة إلى أن نتعلم دروس الوفاء والحفاظ على عقد أبرمناه فيما بيننا، وسماه ربنا تبارك وتعالى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١]؛ لئلا يتحول إلى شكل

وصورة، ومن ثم تؤول مؤسسة الزوجية إلى فشل ودمار وانهيار.

إننا في حاجة ماسة إلى تلقي مثل هذه الدروس للزوج والزوجة قبل الزواج وبعده، من أجل المحافظة على الحياة الزوجية، والتعامل بقدر طيب من الود والعلاقة والحب، والصبر والتحمل، وتقدير ظروف الآخر.

ثالثًا: لا بد من الوفاء مع الأصدقاء، وزملاء العمل، وزملاء الدراسة، فكلنا قد عشنا في مراحل معينة: ففي المرحلة الابتدائية لك أصدقاء، وفي المتوسطة والثانوية، وفي الجامعة، وهؤلاء الأصدقاء قد تفرَّقت بهم السبل، وانتقلوا إلى أعمال مختلفة، وبلدان مختلفة، وربما اختلفت فيما بينكم الأفكار والاجتهادات والرؤى وأشياء كثيرة جدًّا، ولكن يظل الوفاء خلقًا يحكم العلاقة فيما بينكم.

كذلك الوجه الطيب الذي أحببته يومًا من الأيام وكنت معه على مقاعد الدراسة، أو في مكاتب العمل، أو في طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أو في ميادين الوظيفة الدنيوية، أو حتى مع الجيران الذين عايشتهم يومًا من الأيام، وكنت معهم في مدارج وملاعب الصبا، ثم بحكم التوسع العمراني انطلقت إلى حي آخر، أو بحكم ظروف العمل انتقلت إلى مدينة أخرى؛ لكن تظل هذه الأسماء ذكريات جميلة، قد لا تستطيع التواصل دومًا وأبدًا مع هؤلاء، لكن هناك اتصال بالهاتف، أو حتى رسالة جوال بين الوقت والآخر، أو تهنئة بمناسبة العيد، أو بمناسبة دخول شهر رمضان أو غيره.

وما الذي يمنع أن يكون هناك نوع من الاتصال والزيارة والرحلة والعمل المشترك الذي يجمع زملاء العمل الذين تخرجوا من هذه المؤسسة جميعًا

ولو كان ذلك في الشهر مرة، أو في ستة أشهر مرة، أو في السنة مرة؟!

وإن أقل ما يمكن أن يكون لهم في قلبك وفاء، فإذا قابلت هذا الإنسان الذي شاهدته أو رأيته أو عرفته أو أحببته أو جاملته، إذا قابلته لا تقابله بوجه بارد، وابتسامة منطفئة، وكلمات رخوة! لا، بل جدد العهد، وأعطه مشاعر طيبة، وكلمات رائقة، ودعوات صادقة، وعبر عن شعورك وتأسفك عن الانقطاع، وأن ظروف المعيشة والعمل والارتباطات... وأشياء كثيرة جدًّا هي سبب عدم الاتصال فيما بينكم.

يجب أن تكون علاقة حسن العهد والوفاء قائمة بيننا وبين زملائنا وأصحابنا، وأصدقاء الطفولة، وأصدقاء الشباب، وأصدقاء الدراسة، وزملاء العمل، وزملاء الحارة أو الحي، وغيرهم من الناس الذين كتب وقدر علينا أن نلتقي بهم في يوم من الأيام.

رابعًا: من أرقى وأعظم صور الوفاء: **الوفاء مع مَن أحسن إليك**، أو قدم لك جميلًا؛ لأن الروح التي تسعى إلى تقديم الجميل بين الناس هي روح راقية، والإسلام يحث كثيرًا على أداء الجميل والإحسان إلى الآخرين، وفي المقابل يحث على حفظ هذا الجميل وعدم نكرانه؛ لأن نكران الجميل يجعل الآخرين لا يعملونه، فحين أصنع معروفًا اليوم ثم أقابل بنكرانه غدًا؛ فإنه لا يكون عندي نشاط إلى أن أكرر فعل الجميل في المرة الثانية، وكما قال الشاعر الجاهلي عنترة:

نُبِّئْتُ عَمرًا غَيرَ شاكِرِ نِعمَتي ... وَالكُفرُ مَخبَثَةٌ لِنَفسِ المُنعِمِ[1]

---

(١) ينظر: ديوان المعاني (ص١٠٨).

إن ذلك الإنسان الذي أحسنت إليه ورد جميلك بالإساءة قد أعطاك درسًا بألا تحسن إلى الناس، وكثيرًا ما تجد مَن يشتكي من الناس، ويقول: إنهم لا يحفظون الود والجميل، وعليه فلا داعي لأن يصنع الإنسان معروفًا. فنقول: لا، بل اصنع المعروف وارمه في البحر، فلا تتذكر هذا المعروف ولا تضعه نصب عينيك، وكلما جاءت مناسبة قلت: لقد عملت كذا وعملت كذا وعملت كذا! نعم، قد تذكره بمناسبة معينة، لكن لا تكرر ذكره على لسانك.

وأيضًا: احفظ الود للذين أحسنوا إليك بالتعليم، والتوجيه، والإرشاد، فقد يكون لك أستاذ في الطفولة، أو في مرحلة معينة، أو شيخ أو داعية أو موجه؛ فاحفظ له الود، ولذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله، وهو من كبار حكماء هذه الأمة الذين تخرجوا من مدرسة النبوة، يقول: «الحر مَن راعى وداد لحظة، أو تمسك بمَن أثابه لفظة».

وكلمة (الحر) من الحرية، ومعناها: الرجولة، والشهامة، والنخوة، وجمال الأخلاق الفاضلة، فالشافعي رحمه الله يفسِّر (الحر) بأنه ذلك الذي يراعي وداد لحظة، فلو صار بينك وبين شخص ود للحظة من الزمن وربما انقطَعت وابتعدتم؛ فالحر يراعي هذه اللحظة ويحافظ عليها.

وقوله: أو تمسك بمَن أثابه لفظة. أي: لو أن شخصًا علَّمك حرفًا أو كلمةً أو رأيًا أو فتوى، أو أرشدك ووجَّهك إلى حكمة؛ فإنك تراعي هذا الإنسان، وتحفظ له الود، وتدعو له وتثني عليه.

خامسًا: من أجمل صور الوفاء للبشر والمخلوقين: الوفاء للأبوين، فالإنسان يتخيل والده ووالدته في الطفولة، والذين قد أصبحوا آباء قد جربوا

مشاعر الود والمحبة والشفقة التي يعيشها الآباء تجاه أبنائهم، حتى إنه لا أحد يفضِّل غيره على نفسه إلا الوالد، وقد ورد في قصة قوم نوح: أن امرأة كان معها صبي، فلما جاء الطوفان والغرق كانت كلما ارتفع الماء إلى مكان ارتفعت بصبيها إلى مكان غيره، حتى وصلت إلى أعلى قمة جبل، وعندما وصل الماء إلى حلقها كانت ترفع صبيها فوق رأسها، وتتمنى لو غرقت هي وينجي الله تعالى ذلك الصبي! وكما في بعض الروايات: «**لَوْ رَحِمَ اللهُ أحدًا من قوم نوح لَرَحِمَ أمَّ الصَّبِيِّ**»(١).

فهذا الشعور الأبوي الغامر بالحنان المتدفق ينبغي أن نحفظه لآبائنا بالدعاء لهم، والترحم عليهم، وبحفظ مكانتهم: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، فلم يأمر الله تعالى بالذل لأحد إلا لهم فقال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

إن كثيرًا من الشباب يقولون: إن والدي لا يتفهم ظروفي. وبعض البنات تقول: أمي لا تفهمني. نعم، قد يكون لا يفهمك لأنك من جيل وهو من جيل آخر، فمستوى الثقافة والمعرفة بينك وبينه مختلف، لكن ينبغي أن تسعى أنت إلى فهمه وتقدير ظروفه، وربما يفهمك ولكنه لا يوافقك بالضرورة على كل ما تريد، وربما أنه ينظر إلى مصلحتك من زاوية أخرى، فاستفد من خبرة

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٢، ٥٩٦)، وابن عساكر (٦٢/ ٢٥٤)، وينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٥)، وتاريخ الطبري (١/ ١١٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٨)، والبداية والنهاية (١/ ١١٣، ١١٤).

الشيوخ ومعرفتهم وعلمهم وحرصهم، ولن تجد أبر ولا أحنى ولا أعطف ولا أنصح لك من والديك، وهذا لا يعني أن الوالد دائمًا على حق، لكن بالتأكيد أن الوالد دائمًا وأبدًا محب ومشفق وناصح، وإن من الوفاء الذي نتعلمه من مدرسة النبوة أن نحرص على الوفاء للوالدين.

❖ الخلق العظيم:

وصلى الله على النبي محمد الذي علَّمنا هذا الخلق، وصدق عليه قول القائل:

وَإذا رَحِمــــتَ فَأَنــتَ أُمٌّ أَو أَبٌ ... هَذانِ في الدُّنيا هُما الرُّحَمــاءُ

وَإذا غَضِبتَ فَإِنَّمـا هِيَ غَـضـبَـةٌ ... في الحَقِّ لا ضِغنٌ وَلا بَغضـاءُ

وَإذا رَضيتَ فَـذاكَ في مَـرضاته ... وَرِضا الكثير تَحَـــلُّـمٌ وريــاءُ

وَإذا خَـطَـبْـتَ فِللمَـنـابـر هـــزَّةٌ ... تَعْرُو النَّديَّ ولِلقُلـوبِ بُكـــاءُ

وَإذا قَضَيتَ فَــلا ارتِيابَ كَأَنَّـمـا ... جاءَ الخُصومَ مِنَ السَّماءِ قَضاءُ

وَإذا حَمَيتَ الـمـاءَ لَم يـورَد وَلَـو ... أَنَّ القَياصِرَ وَالمُلـوكَ ظِـمـاءُ

وَإذا أَجَـرتَ فَأَنـتَ بَـيـتُ اللهِ لَم ... يَدخُل عَلَيـهِ المُستَجيـرَ عَــداءُ

وَإذا مَلَكتَ النَّفسَ قُمتَ بِبـرِّها ... وَلَوَ انَّ ما مَلَكَت يَـداكَ الشــاءُ

وَإذا صَحِبْتَ رَأى الوَفاءَ مُجَسَّمًا ... في بُردِكَ الأَصحابُ وَالخُلَطاءُ[1]





(١) ينظر: الشوقيات (١/ ٣٦).



من وحي الحياة الزوجية



❖ لا تحزن:

في السنة العاشرة من بعثة النبي ﷺ وقبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان ذلك العام يسمَّى عام الحزن، والحزن جزء من الطبيعة البشرية، فالنفوس تتألم وتعاني، وتمضها اللأواء، لكن فرج الله تعالى وفضله وعونه أقرب.

الحياة أجمل وأحلى، وحتى الحزن بالصبر والرضا يتحول إلى سرور، ويعالج القلب المريض بجرعة من الرضا واستشعار القدر والقضاء، فتحلو وتطيب الحياة مهما يكن فيها من الآلام.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما الذي أحزنك وأمضك وأدمع عينك؟ لقد اجتمع عليه في هذا العام مصيبتان: إحداهما: موت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي زوجه ﷺ، بل كانت أكثر من ذلك، فقد كانت خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ شيئًا كبيرًا، فقد عرفها قبل النبوة وتاجر لها، فأحبت أخلاقه وكرمه وطيبته، ورغبت في الزواج منه، وهكذا كان، ثم كانت له نعم الأنيس والصديق، والمشير والمعين حتى جاءه الوحي، فكانت أول مَن آمن به.

يقول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ**



فِيهِ وَلاَ نَصَبَ»[1]. يا لله! هذه البشارة العظيمة ما أعظم وقعها وأبعد معناها.

❖ سفينة الزواج في أمواج المشكلات:

قد تكون الحياة في بداية الزواج مليئة بالمتعة، ولكن كلما تقدم الزمن بدأت المشكلات تتكشف، ويبدأ الزوجان في التباعد، حتى قد ينتهي الأمر بنوع من العلاقة الزوجية الرسمية التي لا حقيقة لها، فالزوجان يسيران في طريقين متوازيين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، والمشكلة أنهما قد يتقاطعان ويتعارضان ويتعاندان فيما بينهما لكنهما لا يلتقيان، ولهذا كانت بشارة خديجة رضي الله عنها ببيت في الجنة من القصب لا صخب فيه ولا نصب.

إن الكلمة الهادئة، والنظرة الراضية، والصبر الجميل أساس في العلاقة الزوجية بين الذكر والأنثى، والبيت مليء بالمسؤوليات، بما فيه من أطفال وأعمال، ومشكلات واختلافات، وتقلبات في الوظيفة والسكن، وفي الإقامة والسفر، والبرامج المختلفة، فما لم يكن هناك قدر من الصبر والرضا وقوة الاحتمال فإن الحياة الزوجية معرضة للزوال.

الكثيرون يتحدثون عن العلاقة الزوجية بكثير من الألم من الإخوة والأخوات، والحقيقة ضائعة؛ لأن كل طرف قد يطالب الطرف الآخر بينما لا يقوم هو بالبذل.

إنني أعتقد من واقع اطلاعي على كثير من أحوال البيوت أن الحياة

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٨، ٧١٥٦، ٢٦٤٢٤)، والبخاري (١٧٩٢، ٣٨١٦، ٦٠٠٤)، ومسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣، ٢٤٣٥)، وابن ماجه (١٩٩٧)، والترمذي (٣٨٧٦)، وأبو يعلى (٦٠٨٩، ٦٧٩٧)، وابن حبان (٧٠٠٤، ٧٠٠٥، ٧٠٠٩)، والحاكم (٣/ ٢٠٣).

الزوجية عبارة عن سفينة تحتاج إلى يقظة واعية ودائمة، وفي اللحظة التي يغفل فيها الرقيب فإن الرياح قد تميل بها ذات اليمين وذات الشمال، بل قد تغرق السفينة بمَن فيها، ونحن نحتاج إلى قدر كبير من التنازلات من الطرفين، بحيث يكون البيت لا صخب فيه ولا نصب كبيت الصديقة المؤمنة زوج النبي ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها.

❖ علاقة تكاملية متكافئة:

إن العلاقة الزوجية لا يمكن اختصارها في علاقة جسد بجسد، فإن هذا قد يذبل مع الوقت وتنطفئ حرارته، لكن حينما تكون علاقة متكاملة علاقة عقل بعقل، يكون بينهما تفاهم عقلي، ورؤية مشتركة، وتفاهم قلبي في مشاعر الحب والحنان، والعطف والصبر، والستر، وليست العلاقة حبلًا يحاول كل طرف أن يجره إليه، فالمرأة تطالب وتعاتب، والرجل يوبِّخ وينتقد، وحينئذ يكون التفاهم ضعيفًا أو معدومًا، والضحية الحياة الزوجية ثم الأطفال بعد ذلك.

لكي تستقيم هذه الحياة وتستقر علينا أن نقتدي بالمعلم الأول ﷺ، وهذه مدرسة عظيمة لو قرأناها لوجدنا العجب العجاب في تعامله ﷺ مع أزواجه.

إن نبينا وسيدنا محمدًا ﷺ قد علمنا كل شيء حتى علاقة الرجل بزوجه، وبين لنا أن الحياة إنما تطيب بعيدًا عن الضجيج والصخب، تطيب بالتواضع.. تطيب بالبعد عن الأنانية.. تطيب بتقدير وجهة النظر الأخرى.. تطيب بتفويت الغضب والانفعال.. وألا نسمح لنوباتنا العارضة أن تؤثر في حياتنا، فلا يسمح

أحدنا لنفسه ذكرًا كان أو أنثى أن يطلق كلمة سب أو شتم، أو عيب أو انتقاد في ساعة غضب، وإذا وقع هذا بحكم الطبيعة البشرية فالباب مفتوح أن يندم الإنسان، ويسدد ويعوض باعتذار مباشر وصريح، وتعويض آخر بألوان من الممارسات الرشيدة الصادقة التي فيها حفظ مقام المرأة عند الرجل، أو مقام الرجل عند المرأة.

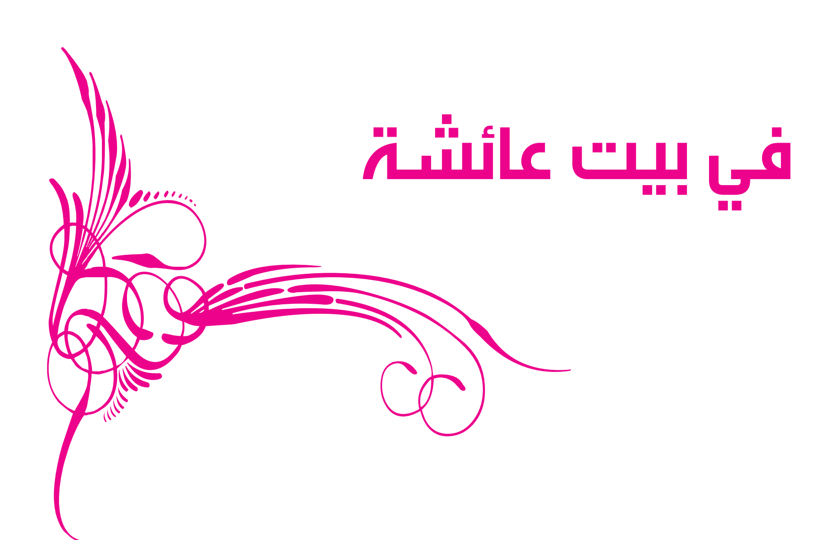
❖ الإلحاح والمطالبات:

«**أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ**».

بيت ليس فيه مشكلات.. ليس فيه تكليف شديد، وهذه إحدى المشكلات المؤثِّرة في استقرار الحياة الزوجية، فتجد كثرة المطالب والإلحاح مع أن كل واحد من الطرفين يعرف الآخر، فالزوجة تعرف إمكانيات الزوج الاقتصادية والمادية، ظروفه العملية ومواعيده وارتباطاته، مما قد لا تسمح له بالكثير من العمل والكثير من الإنجاز الذي يقدمه، وكذلك الزوج يعرف ظروف الزوجة، وما يعرض لها من الحيض والحمل، وفي كل هذه الحالات فإن نفسية المرأة تتغير، وتحس أحيانًا بنوع من الاكتئاب أو الضغط النفسي أو المشكلات التي تتطلب قدرًا من الحنو والرعاية، فليكن للمؤمنات الصالحات أسوة بالسيدة خديجة رضي الله عنها، وليكن للرجال المؤمنين الصالحين أسوة بسيدهم محمد ﷺ لمَن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا.



في بيت عائشة



❖ معلِّمة الرجال:

كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون عظيم فضلها ومنزلتها، فهي زوجة نبيهم، وأحب نسائه إليه ﷺ[1].

وعائشة رضي الله عنها حافظة حديث رسول الله ﷺ، وأستاذة كبيرة في هذا العلم، حتى قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا»[2].

لقد خلقها الله تعالى لتكون حبيبة بيت النبوة، وتتعلم العلم وتحفظه، حتى إنها تعد من أكثر الصحابة حفظًا ورواية للسنة، وكانت تستدرك على أكابر الصحابة وتصحح لهم، كما صححت لعبد الله بن عمر وأبي هريرة

---

(١) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٢٧٦، ٣٢٢٨١، ٣٢٨٦٦)، ومسند أحمد (١٢٦١٩، ٢٥٢٩٩)، وصحيح البخاري (٣٤١١، ٣٤٣٤، ٥٤٢٨) وصحيح مسلم (٢٤٣١، ٢٤٤١، ٢٤٤٦)، وسنن ابن ماجه (٣٢٨٠، ٣٢٨١)، وجامع الترمذي (١٨٣٤، ٣٨٨٧)، وسنن النسائي (٣٩٤٧، ٣٩٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٨٣)، وينظر: صفة الصفوة (٢/ ٣٢)، وتاريخ الإسلام (٤/ ٢٤٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٩)، ومشكاة المصابيح (٦١٨٥)، والبداية والنهاية (٨/ ٩٢).



وابن عباس وغيرهم؛ بل ألَّف بعض العلماء (الزركشي) كتابًا خاصًّا أسماه: «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» وبنت في هذا السن، متألقة الذهن ذات ذكاء وقاد وحرص شديد في بيت النبوة، يدل على أن من وراء ذلك حكمة ربانية بالغة.

❖ لماذا تزوج عائشة رضي الله عنها؟

لم يكن النبي ﷺ يبحث في الفتيات عن الجميلات، وإن كانت عائشة من أجمل النساء، ولم يكن يبحث عن الفتاة صغيرة السن، ولو شاء لقدمت له قريش أحسن فتياتها، ولكنه اختار أولًا خديجة رضي الله عنها، وبعدما توفيت تزوج عائشة، وهي الوحيدة التي تزوجها بكرًا؛ وذلك لعمق العلاقة والمكانة بينه وبين الصديق رضي الله عنه، ولحكمة الله تعالى في أن تكون عائشة مدرسةً نبوية تحفظ للمسلمين هدي النبي ﷺ، خصوصًا فيما يتعلق بالشأن الداخلي، فمثلًا: مَن هو الذي روى لنا كيف كان النبي ﷺ يصنع وهو في الفراش مع زوجته؟!

نعم، هذه أسرار وخصوصيات، لكن بالنسبة للنبي ﷺ كانت حاجةً لأن يتعلم الناس أحكامها وحلالها وحرامها، وما هو المشروع منها، وما هو الممنوع، فكانت عائشة رضي الله عنها هي التي تنقل لنا ذلك، حتى تقول رضي الله عنها: أنها إذا حاضت أمرها النبي ﷺ أن تتزر، ثم ينام النبي ﷺ معها ويداعبها دون أن يقع في المنهي عنه[1]، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤٤٩، ٢٥٤٥٥)، والبخاري (٣٠٢)، ومسلم (١١٠٦)، وأبو داود (٢٦٨، ٢١٦٧)، والنسائي (٢٨٦، ٣٧٤، ٣٧٥)، وابن حبان (١٣٦٤، ١٣٦٧).

﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢].

مَن الذي علَّمنا كيف كان النبي ﷺ يغتسل في بيته؟ إنها عائشة رضي الله عنها التي تحكي أن النبي ﷺ كان يكون معها في مكان الاغتسال فتأخذ من الماء وتصب على جسدها، ويأخذ النبي ﷺ ويصب على جسده، وهي تقول: دع لي يا رسول الله! وهو يقول: «**دَعِي لِي يَا عَائِشَةُ**»[1]. هكذا كانت حياة النبي ﷺ مع أهل بيته بهذه البساطة والعفوية التي تفتقدها الكثير من البيوت اليوم، وهكذا كان النبي ﷺ بعيدًا عن التكلف والمبالغات والتصنع والأمور التي تحول دون وضوح العلاقة وانسجامها وصدقها.

❖ بيوتات النبوة:

جاء النبي ﷺ ليلة إلى بيت عائشة، ولم يكن بيتها قصرًا فارهًا ضخمًا ولا بنيانًا هائلًا، كلا، إن أزواج النبي ﷺ كن في مجموعة من الحجرات صغيرة جدًّا، ربما إذا قام الإنسان وصل رأسه إلى السقف، وإذا نام ربما تكاد تصل رجله إلى أقصى الجدار، وكان النبي ﷺ إذا صلَّى من الليل وعائشة نائمة أمامه، وأراد السجود، غمزها في رجلها فترفع رجليها حتى يسجد ﷺ، ثم إذا قام بسطت رجليها لتواصل نومها رضي الله عنها[2].

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٦٧، ٢٤٩١٠، ٢٥٤٢٦)، ومسلم (٣٢١)، والنسائي (٢٣٩، ٤١٤)، والبيهقي (٨٥٢، ٨٥٣)، وينظر: مشكاة المصابيح (٤٤٠)، ونيل الأوطار للشوكاني (١/ ٣٣)، وآداب الزفاف (ص: ٣٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٣٧٦)، وأحمد (٢٤٢١٥، ٢٦٢٢٤)، والبخاري (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، ومسلم (٥١٢)، وأبو داود (٧١٢)، والنسائي (١٦٧، ١٦٨)، وابن حبان (٢٣٤٢، ٢٣٤٨)، والبيهقي (٦٠٩، ٣٢٤٠، ٣٣٠٩).

لقد كانت بيوت نساء النبي ﷺ بيوتًا بسيطة المبنى والأثاث، لكنها عظيمة المجد والعلم والحضارة، وفيها قمة الروح والسعادة، فمتى يعي الناس ويدركون أن السعادة ليست في الجواهر والملابس، ولا السيارات الفارهة، والقصور الفخمة، والممتلكات والأرصدة، وإذا كانت هذه الأشياء من الحلال فهي من المباح، ولا حرج فيها، ولكن لنعلم جميعًا أن السعادة تنبع من داخل القلب العامر بذكر الله تعالى وطاعته.

أتى النبي ﷺ إلى بيت عائشة رضي الله عنها في ليلتها ونام معها، حتى إذا رأى أنها قد نامت قام ﷺ بهدوء ولبس ثوبه ونعليه، ثم خرج قليلًا قليلًا وأغلق الباب برفق، فاستيقظت عائشة رضي الله عنها؛ لأنها لم تكن قد استغرقت في النوم، وهنا ثارت ثائرتها رضي الله عنها، وقد ظنت أن النبي ﷺ ذهب إلى بعض أزواجه في ليلتها، فلبست ثيابها وخرجت في الليل البهيم تتتبع خطواته ﷺ، فذهب النبي ﷺ وعائشة وراءه ترقبه من بعيد، وتتبع خطواته، حتى وصل ﷺ إلى قبور البَقِيع، وسلَّم على أصحابه رضي الله عنهم الذين قضوا وأفضوا إلى الدار الآخرة، فسلَّم عليهم، ودعا لهم واستغفر.

ثم رجع النبي ﷺ وخلع ثوبه ونعليه، ثم جلس في الفراش والتفت إلى عائشة فرآها نائمة قد أغمضت عينيها، كما لو كانت نائمة فعلًا، ولكن حركة صدرها والنفس الثائر يدل على أنها لم تكن نائمة، فالتفت إليها المعلم الزوج ﷺ وقال لها: «**يَا عَائِشَةُ، مَا الخَبَرُ؟**». ففتحت عينيها كأنها تستيقظ لتوها، وقالت: لا شيء يا رسول الله. فقال: «**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**».

فقالت: والله يا رسول الله رأيتك خرجت فخرجت وراءك، وخشيت أن تذهب

إلى بعض نسائك، فقال لها: «**أَظننت أنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ ورَسُولُه؟ أنتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أمَامِي؟**». قالت: نعم يا رسول الله. فضربها في صدرها بيده، ولكنها ليست ضربة عنف وقسوة كما يفعل بعض الناس، وإنما ضربها ضربة مؤانسة ومداعبة، وليقول لها: إن هذا الفعل الذي فعلتيه كان خطأ، ولم يكن لك أن تظني هذا الظن، ولا أن تفعلي هذا الفعل.

ثم إذا به ﷺ يوضح لها فيقول لها: «**إنَّ جبْرِيلَ أَتَانِي فقالَ لِي: إنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُكَ أنْ تَذْهَبَ وأنْ تَسْتَغْفِرَ لأهلِ الْبَقِيعِ. فَذَهَبْتُ واسْتَغْفَرْتُ لَهُم**»[1].

❖ دروس في التصحيح:

إن هذه القصة فيها عجب ومشهد من مشاهد بيت النبوة:

إن عائشة رضي الله عنها الصدِّيقة المعلمة الفقيهة العالمة وقع منها مثل هذا الشعور في حق رسول الله ﷺ، ثم باحت به، بل وتتبع خطواته ﷺ، وينتهي الموقف عندما لكزها ﷺ لكزة تأديبية خفيفة، وأخبرها بأن جبريل أتاه وأمره أن يستغفر لأهل البقيع.

تأمل كيف أن النبي ﷺ في مقامه الرفيع العالي قدر عائشة رضي الله عنها في مثل هذا الموقف ووضَّح لها الخبر بشكل متكامل.

إن الاختلافات التي تقع بين الأزواج تكاد تطيح بالحياة الزوجية؛ بل هي أكثر ما يدمر الحياة الزوجية، ويفضي إلى الانفصال، سواء كان انفصالًا عاطفيًّا أو انفصالًا يفضي إلى الطلاق، وتدمير البيت الذي أسس على الإيمان

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٧١٢)، وأحمد (٢٥٨٩٧)، ومسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧، ٣٩٦٣، ٣٩٦٤)، وابن حبان (٧١١٠).

والتقوى، وعلى عقد شرعي مقدس، وإن هذه الاختلافات ليست بسبب مشكلات كبيرة وضخمة ومعقدة، بل ربما تكون بسبب مشكلات صغيرة تراكمت ولم تحل بشكل جيد.

إذًا، نحن بحاجة إلى أن نتعلم كيف نتكيف مع الآخرين، وكيف نكون منصفين.

ينبغي على الزوج عند حدوث مثل هذه المشكلات أن يضع نفسه في مقام زوجته، فالمرأة حبيسة أربعة جدران، تعاني من المشكلات والأطفال والطبخ وغيبة الزوج وبعده، فلا تستغرب أن تعتب عليك إذا تأخرت في المجيء، فربما أنك قد تسهر في استراحة مع أحد أصدقائك، فلا تستغرب إذا وجدت منها نوعًا من الغضب لمعاناتها مع أطفالها، فلو فرض أنك ستتولى أمر المطبخ يومًا من الأيام، فهل تطيق ذلك، أو تتحمله؟ لا، ولو كُتب عليك أن تعتني بأمر الأطفال، وتقوم بتلبيسهم وتنظيفهم، وتغذيتهم، وتتحمل صراخهم وانفعالاتهم وخصامهم فيما بينهم، فهل كنت ستتحمل أو تستطيع ذلك؟! لكن الله تعالى أعطى المرأة قدرة على التحمل لا يطيقها الرجل، فالمرأة في حمل الطفل ثم ولادته تتحمل أمرًا لا يستطيعه أشداء الرجال الذين يواجهون المعارك والحروب، ثم كذلك رعاية الزوج، فهي سيدة على مملكة كبيرة جدًّا تستحق التوقير والإجلال والإكرام والاحترام، والشفافية والمصارحة والوضوح، والصبر على ما يحصل منها.

وبالمقابل، فالزوجة عليها أن تدرك حق الزوج ومكانته، وأن تعلم أنه في النهاية هو السيد، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾

[يوسف:٢٥]. أي: زوجها، وهو صاحب القرار الأخير، فإذا عرف كلا الزوجين قدر الآخر، فإننا نستطيع أن نضمن بيوتًا سعيدة آمنة مطمئنة، يظللها الإيمان والبر والتقوى.

إن هذه البيوت الآمنة هي من أعظم الضمانات للحفاظ على المجتمع المسلم والأمة المسلمة، ومقاومة عوامل التدمير والهدم في المجتمع الإسلامي.

وأمر آخر أن على الإنسان أن يكون عنده من الإيمان بالدار الآخرة، والاستعداد لها، بقراءة القرآن، وزيارة القبور، وتذكر هذه الأمور ما يحفظ له إيمانه ويقينه.

أَتَيْتُ الْقُبورَ فَنَادَيْتُهُنَّ ... أَيْنَ الْمُعَظَّمُ وَالمُحْتَقَرْ
وَأَيْنَ الْمُدِلُّ بِسُلْطَانِه ... وَأَيْنَ القَوِيُّ عَلَى ما قَدَرْ
تَفَانَوْا جميعا فَلا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جميعًا وأَضْحَوْا عِبرْ[١]



(١) ينظر: تاريخ دمشق (٥٦/ ٤١٦)، والمجالسة للدينوري (٥٨٨).

كان خلقه القرآن



❖ نبي الأخلاق:

يـــا رَسُـــولَ اللهِ حُـــبُّــكَ في	مُهْجَتِي كالدُّرِّ فِي الصَّدَفِ
والشَّـذَى في الرَّوْضَةِ الأُنُفِ	والفُرَاتِ العَذْبِ في الدِّيَمِ
لَيْسَ كالمُخْتارِ فِي البَشَـرِ	فَهْوَ كُلُّ السَّمْـعِ والبَصَـرِ
واحِـدُ الـتَّـارِيـخِ والسِّيَـرِ	وإمـامُ الرُّسْـلِ والأُمَـمِ
دَمَــعَــتْ عَيْـنِي لِـمَـرْآهُ	وهَـفَـى قلْبِـي لِلُقْـيَـاهُ
خَـصـهُ بالفَـضْـلِ مَـولاهُ	فَهْوَ فِي الأَخْيـارِ كالعَلَـمِ

بُعث ﷺ بالخلق الكريم، ولا غرابة؛ فهو القائل ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَـمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**»[1]. والأخلاق نوعان:

النوع الأول: أخلاق فطرية، وهي التي جُبل عليها الناس، فكل الناس يحبون

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الحاكم (٢/ ٦٧٠)، والبيهقي (٢٠٥٧١)، وينظر: تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ١٢٠، ٢٥٩)، (٣/ ٢٦، ٣٤).

وهو بلفظ: «**صَالِحَ الأَخْلَاقِ**» عند: ابن أبي شيبة (٣١٧٧٣)، وأحمد (٨٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والبيهقي (٢٠٥٧٢)، وفي شعب الإيمان (٧٩٧٨).

الصدق ويكرهون الكذب، ويحبون الوفاء ويكرهون الغدر، ويحبون الكرم ويكرهون البخل، ويحبون مكارم الأخلاق العامة ويكرهون سفاسفها.

النوع الثاني: ما هو من تزكية هذه الأخلاق وتقويمها وتسديدها، وحث الناس عليها، وهذا هو الذي بعث به النبي ﷺ؛ ليتمم مكارم الأخلاق، ولهذا احتوى دينه على أعظم الأخلاق، وكان ﷺ هو المذكرة التفسيرية، والقدوة العملية لهذه الأخلاق؛ يدعو إليها ويؤمن بها.

❖ المحك العملي:

نعرف اليوم في حياة البشرية -بل ومنذ قرون التاريخ كلها- أن كثيرًا من الدعوات والحركات والنظريات تتكلم عن قيم ومعان لا تطبقها، فلو نظرنا إلى الشيوعية لوجدناها تتكلم عن المساواة، والعدالة، وحقوق العمال، ولو نظرنا إلى الماسونية وقوانينها وأنظمتها لوجدناها كذلك تتكلم عن العدل والمساواة، ولو نظرنا إلى جميع النظريات التي قامت في الشرق أو الغرب من النظريات الديمقراطية، أو الرأسمالية، أو الليبرالية، أو غيرها، القديم منها والجديد؛ لوجدنا أن ثمة كلامًا جميلًا يقال، وثمة قيم تبث، وشعارات ترفع؛ لكن المحك العملي هو الذي يصدق هذه الأشياء أو يكذبها، فكم من الشعوب أبيدت، وكم من الأموال سرقت، وكم من المظالم ارتكبت، وكم حصل من التعسف والعدوان والظلم باسم الحرية والعدالة والإنصاف، أما محمد ﷺ فكان شيئًا آخر مختلفًا.

كان ﷺ مع الخدم والعبيد الذين يعملون، متواضعًا قريبًا منهم، يستمع إلى شكاويهم، حتى إن المرأة تأتي إليه فيقول لها: «**انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ حَتَّى**

أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فيأتيها ﷺ وتحدثه[1].

هذا النبي العظيم هو قائد جيش، زعيم أمة، مؤسس ملة، جبريل ينزل عليه بالوحي صباحًا ومساءً، ومع ذلك يذهب إلى امرأة في مكان ما، وماذا عسى هذه المرأة أن تشتكي من سيدها، أو من مولاتها، أو من أولادها، أو من العمل ومشقته، أو من أشياء

ربما تبدو في نظرنا أمورًا تافهة أو صغيرة؛ لكنه ﷺ اقتطع جزءًا من وقته تعاطفًا مع مشكلة هذه المرأة.

❖ هموم الصغار والضعفاء:

وأعجب من ذلك أنه ﷺ في الوقت الذي كان العالم فيه يضج بالطغيان كما قال الشاعر:

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِم ... إِلّا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ
مُسَيطِرُ الفُرسِ يَبغي في رَعِيَّـتِـهِ ... وَقَيصَرُ الرومِ مِن كِبرٍ أَصَمُّ عَمِ

ومع ذلك كان النبي ﷺ يقول للخادم أحيانًا: «**أَلَكَ حَاجَةٌ؟**»[2]. يعرض على الخادم: هل تحتاج شيئًا؟ هل تريد أن تقول شيئًا؟ هل في نفسك أمر من الأمور تحب أن تبوح به؟

---

(١) أخرجه: أحمد (١٢٢١٨، ١٣٢٦٤، ١٤٠٧٨)، ومسلم (٢٣٢٦)، وأبو داود (٤٨١٨)، وأبو يعلى (٣٤٧٢)، وابن حبان (٤٥٢٧)، وابن عساكر (٤/ ٨٨)، (١٥/ ٢٥٢)، وينظر: مختصر الشمائل (٢٨٥)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٢٩)، ومشكاة المصابيح (٥٨١٠)، والبداية والنهاية (٦/ ٤٠)، وتخريج أحاديث الإحياء (٢/ ١٥٤) (٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٦١٢٠)، وينظر: السلسلة الصحيحة (٢١٠٢).

متى عرف الناس مثل هذا اللون من التواضع والبساطة والقرب من الضعفاء والخدم والموالي وغيرهم؟!

وأيضًا: نجد أن من هديه ﷺ التعامل مع الصغار والأطفال، وهم جزء لا يتجزأ من الحياة، فهم صغار اليوم كبار الغد، كان أبو عُمير أخو أنس طفلًا صغيرًا، وكان معه عصفور يلعب معه، فرأى النبي ﷺ هذا الطفل واندماجه مع هذا الطائر وشغفه به كما نلاحظه في صبياننا وأطفالنا، وهكذا هي طبيعة الطفولة وولعها بهذه الأشياء، فيأتي إليه النبي ﷺ يومًا من الأيام وهو حزين لموت هذا الطائر، فيسأله النبي ﷺ فيقول: «**يَا أَبَا عُمَيْر، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[1].

سبحان الله! هذا القلب الكبير المشحون بالقضايا العظيمة والمهمة والضخمة لم يمنعه ذلك من أن يجد مكانًا في قلبه لهمِ طفلٍ صغير يلعب مع عصفور، فسأله عنه ويبادله الأحزان لموته!!

❖ هموم النساء:

من هديه ﷺ أسلوبه في التعامل مع النساء، سواءً كن أزواجه في بيته، أو من نساء المجتمع من حوله، في سؤالهن له ﷺ، وعرض مشكلات كثيرة عليه، فقد كان النبي ﷺ ملجئًا لهؤلاء، حتى إنه في يوم من الأيام نهى عن ضرب النساء؛ لأن العرب كان من عادتهم ضرب النساء، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأمر أصحابه أن يحترموا المرأة، وألا يضربوها ولا يعتدوا عليها.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٠٤٢، ٢٦٢٩٢)، وأحمد (١٢١٥٨، ١٤١٠٣)، والبخاري (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، وأبو داود (٤٩٦٩)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والترمذي (٣٣٣، ١٩٨٩).

وبعد ذلك جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ يشكون وقالوا للنبي ﷺ: ذَئِرْنَ[1] النساء على أزواجهن. فرخص النبي ﷺ في ضربهن، فلما كان من الغد جاءت نساء إلى بيت رسول الله ﷺ يشتكين من أزواجهن، فقام النبي ﷺ خطيبًا، وقال: «**لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ**»[2]. نعم، ليسوا من الخيار، بل الخيار كما قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**»[3].

❖ هموم الناس:

لقد كانت حياة النبي ﷺ كلها مع الناس، إلا ما قل، فهو مع الناس في المسجد، ومع الناس في البيت، ومع الناس في السفر؛ حتى إن الذي يقرأ سيرته يتعجب من بركة وقته ﷺ؛ كم عدد أسفاره ﷺ! جلوسه في المسجد أحيانًا كان يستغرق أيامًا، كما جاء في اعتكافه في شهر رمضان، وأنه اعتكف العشر الأول، ثم العشر الأواسط، ثم العشر الأخيرة[4].

وهكذا تجد النبي ﷺ مع الناس في متقلبه، وذهابه وإيابه، وسفره وإقامته،

---

(١) ذئرن: أي اجترأن ونشزن وغلبن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٧٩٤٥)، والدارمي (٢٢١٩)، وأبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥)، وابن حبان (٤١٨٦)، والحاكم (٢/ ٢٠٥)، والبيهقي (١٤٥٥٣).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٢٦٠)، وابن ماجه (١٩٧٧)، والترمذي (٣٨٩٥)، وابن حبان (٤١٧٧، ٤١٨٦)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٦٣) (٨٥٣)، والبيهقي (١٥٤٧٧)، وفي الشعب (٤٢٢٠، ٨٧١٨، ١١٠١٤).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧٦٨٣)، ومسلم (١١٦٧، ١١٧٢)، وابن حبان (٣٦٨٤)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤١٢) (٩٩٤)، والبيهقي (٨٣٥٠).

ويدخلون عليه بيته ويستأذنونه في كل الأحوال، ومع ذلك كان النبي ﷺ محافظًا على رباطة جأشه، وعلى حلمه وصبره، فلا يقع منه مع أحد غضب ولا انفعال، مع كثرة ما يقع من الناس.

فمثلًا: يأتي أعرابي بخشونة وغلظة البادية فيجبذه بردائه من ورائه، فحمَّر رقبته، ويقول: احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. فيسكت عنه النبي ﷺ ثم يأمر له بعطاء[١].

وآخر له دَين على النبي ﷺ، فيأتي ويقول: إنكم يا بني عبد المطلب أصحاب مطل. أي: أنتم أهل مماطلة وتتأخرون في سداد الديون، فيضحك النبي ﷺ ويأمر بأن يُسدَّد له حقه ويوفَّى دينه[٢].

وجاء آخر إلى النبي ﷺ -وهو من البادية أيضًا- والصحابة مجتمعون، فقال: أيكم محمد؟ هكذا بغير مقدمات، فأشار الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن عبد المطلب فقال له النبي ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. فقال: «**سَلْ عَمَّا بَدا لَكَ**». فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آللَّه أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قال:أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلِّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٢٦٠٤)، والبخاري (٥٨٠٩، ٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧)، وأبو داود (٤٧٧٥)، والنسائي (٤٧٧٦)، وينظر: شرح مشكل الآثار (٩/ ١٥٣)، والآداب الشرعية (١/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٨٨)، والطبراني في الكبير (٥١٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٧) (٢٢٣٧)، والبيهقي (١١٠٦٦)، وينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٣٦١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٧٩)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٣٣).

نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي[1].

إن تعامله ﷺ مع الناس على كثرة ما يقع منهم من سوء الخلق، مثل عدم وجود نوع من التهذيب والأدب والأسلوب مع النبي ﷺ، حتى قال له ربه جل وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤].

وهم قوم جاءوا إلى النبي ﷺ وصرخوا في البيت: يا محمد، اخرج إلينا[2]. وهذا الأسلوب من التعامل والنداء أمر غريب على آحاد الناس، فكيف إذا كان مع النبي ﷺ، وهو الذي ربَّى أصحابه على طريقة الاستئذان والنداء، حتى قال الله عز وجل: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]. فمَن أراد أن يدعو أو ينادي الرسول ﷺ فلا يناديه باسمه المجرد: يا محمد. وإنما يقول: يا رسول الله، يا نبي الله. أو ما أشبه ذلك من العبارات التي فيها اعتدال وأدب.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣١٨)، وأحمد (٢٣٨٠، ١٣٠٣٤)، والدارمي (٦٥٠، ٦٥٢)، والبخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، وابن ماجه (١٤٠٢)، والترمذي (٦١٩)، والنسائي (٢٠٩١، ٢٠٩٢، ٢٠٩٣، ٢٠٩٤)، وابن خزيمة (٢٣٥٨)، وابن حبان (١٥٤، ١٥٥)، والطبراني في الكبير (٨١٤٩)، والحاكم (٣/ ٥٥)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٢٦٧)، والبداية والنهاية (٥/ ٦٢)، والسيرة الحلبية (٣/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٤)، وتفسير الطبري (٢٦/ ١٢١)، وتاريخ دمشق (٤٠/ ٣٥٨)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣١٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٩)، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٣٢٩-٣٣١)، وروح المعاني (٢٦/ ١٤١).

❖ حتى مع الخصوم:

كذلك تعامله ﷺ مع أعدائه وخصومه، فهذا رجل حمل سيفًا على النبي ﷺ وقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «**اللهُ**». فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، وقال: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قال: كن كخير آخذ. فقال له النبي ﷺ: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**». قال: لا، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، ثم خلَّى سبيله ﷺ، ولم يتعرض له بشيء(١).

فتأملوا هذا الأسلوب في التعامل منه ﷺ مع الأعـداء والخصوم والمحاربين، ومع من هموا بقتله ﷺ أو اغتياله.

إن هذا اللون من الخلق العظيم يؤكد ويزكي أن قوله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**» أو: «**صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(٢). لم يكن مجرد شعار يرفع، وإنما كان أنموذجًا عمليًّا يفعله النبي ﷺ بهديه وسيرته ونفسه، ويربِّي عليه أصحابه لينقلوه إلى مَن بعدهم، ولهذا كان الإسلام في تاريخه وحركته ودعوته رحمة للبشرية كلها، كما يشهد بذلك المنصفون من الشرق والغرب.

نبيَّ الْهُدَى قَدْ جَفَوْنَا الْكَرَى ... وَعِفْنَا الشَّهِيَّ مِـنَ الْمَطْعَمِ
نَهَضْنَا إِلَى اللهِ نَجْلُو السُّـرَى ... بِرَوْعَـةِ قُرْآنِـهِ الْـمُحْكَـمِ
ونُشْهِدُ مَنْ دَبَّ فَـوْقَ الثَّـرَى ... وَتَحْتَ السَّما عِزَّةَ الْمُسْلِمِ

---

(١) ينظر: مسند أحمد (١٤٣٧٤، ١٤٩٧٠، ١٤٩٧١، ١٥٢٢٧)، وعبد بن حميد (١٠٩٦)، وأبو يعلى (١٧٧٨)، وصحيح البخاري (٢٩١٠، ٤١٣٧، ٤١٣٩)، وصحيح مسلم (٨٤٣)، وصحيح ابن حبان (٢٨٨٢، ٢٨٨٣، ٤٥٣٧)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٣١) (٤٣٢٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٥٣).

الرسـول العبد

❖ عبد الله ورسوله:

صلوات الله وسلامه على النبي الكريم، الذي بعثه ربه رحمة، فدان الناس بدينه، واتبعوا شريعته، حتى إن أعداءه تحول الكثير منهم إلى أتباع مؤمنين، بحكم ما جبل عليه ﷺ من الرفق والحلم، فقال قائلهم:

لَعَمْرُكَ إنِّي يومَ أحـمـلُ رايــةً	لِتغلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَـيْـلَ مُحَمَّدِ
لك المدلِجِ الحَيْـرانِ أَظْلَـمَ ليلُهُ	فهذا أواني حِيـنَ أَهْدِي وأَهْتَـدِي
هدَاني هادٍ غيرُ نفسـي ونالَنِـي	معَ اللهِ مَـنْ طَرَّدْتُ كـــلَّ مُـطـرَّدِ
أَصُدُّ وأنأَى جاهدًا عنْ مُحَمَّـدٍ	وأُدْعَى وإنْ لَـمْ أنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدِ
هُمُ ما هُـمُ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَواهُـمُ	وإنْ كـــان ذا رَأْيٍ يلَـــمْ ويُـفَـنَّــدِ
أُريدُ لأُرْضِيهمْ ولَسْتُ بلائِــطٍ	مَعَ الْقَوْمِ ما لَمْ أُهْدَ فِي كلِّ مَقْعَــدِ
فَقُلْ لِثَقيفٍ: لا أُريـدُ قِتالَــهـا	وقُلْ لِثقيفٍ تِلْكَ غَيْــرِيَ أَوْعِــدِي

والنبي ﷺ كان يقول: «**أنتَ طَرَدْتَنِي كلَّ مُطَرَّدٍ؟**»[(١)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٤٦)، وابن عساكر (٢/٥٣٦)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/٥٨)، وتاريخ الطبري (٢/١٥٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٢٨)، والاستيعاب (٤/ ١٦٧٥)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٨٨).

آيات نبوته تلوح كالشمس في رابعة النهار ليس دونها سحاب، انظر إلى عفويته ﷺ وعبوديته لله، وبعده عن كل معاني الكبرياء والعظمة التي يدعيها الناس، لقد عرف التاريخ قوادًا وملوكًا وفاتحين، وأباطرة وأكاسرة، وطالما دونت هذه السير وعرفت، ولا زالت إلى اليوم أمم الأرض تعاني من القوى الكبرى المستكبرة التي ربما تقدم للناس كلامًا جميلًا، ولكنها تقدم لهم فعلًا سيئًا بشعًا.

❖ آية الكسوف:

محمد ﷺ كان رجلًا سمحًا سهلًا قريبًا، ويمكن أن نرى ذلك جليًّا في قصة كسوف الشمس التي رواها صاحبا «الصحيحين» وغيرهما أنه لما كسفت الشمس خرج النبي ﷺ يجر رداءه فزعًا يخشى أن تكون الساعة، فصلَّى بهم صلاة طويلة بركعتين، في كل ركعة ركوعان، وقرأ بقدر سورة البقرة وآل عمران، حتى كاد بعض الناس أن يجلس، ثم سلَّم النبي ﷺ وخطب بهم خطبة وقال لهم: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِـمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللهَ وَصَلُّوا حَتَّى تنكَشِفَ**». ثم قال ﷺ: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»[١].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٢٥)، وابن أبي شيبة (٨٢٩٩، ٣٦٤٩٦)، وأحمد (٢٧١١، ٦٤٨٣، ٢٥٣٥١، ٢٧٠٣٧)، والبخاري (١٠٤٤، ١٠٤٨، ٥٧٨٥)، ومسلم (٩٠١، ٩٠٤، ٩٠٧، ٩١١، ٩١٥)، وأبو داود (١١٧٨)، وابن ماجه (١٢٦٣)، والنسائي (١٤٥٩، ١٤٧٤، ١٥٠٢)، وابن خزيمة (١٣٩٥)، وابن حبان (٢٨٤٥).

❖ ولا تقربوا الفواحش:

استثمر النبي ﷺ روح الخوف التي استشعرها المؤمنون حينذاك من تغير وضعية الشمس ليلقي إليهم بهذا الأمر العظيم، وهو: معنى الحفاظ على الأعراض، والبعد عن المحرمات، خصوصًا الزنى وما فيه من الجرم والإثم والحوب، حتى قال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ﴾ [الإسراء:٣٢].

والفاحشة: هي الفعل الفظيع الشنيع المفرط في القبح؛ لما فيه من سوء الأثر في الدنيا والآخرة، ومن آثاره في الدنيا ما يتحدث به الأطباء من أن ملايين من المصابين بالإيدز أو مَن يحملون هذا الفيروس الذي يمكن أن ينقض عليهم في أية لحظة، وقد ينتقل إلى الزوجة أو إلى الأطفال الأبرياء، أو إلى غيرهم، يكاد يكون السبب الوحيد هو الوصال الجنسي المحرم، أو نقل الدم الملوث، فالنبي ﷺ حذر من هذه الفاحشة التي هذا من آثارها.

ثم انتقل ﷺ إلى قوله: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ**».

❖ تفنيد شائعة:

لقد تسامع بعض الناس أن حصول الكسوف يومئذ كان بسبب موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وكان ابنه من مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس، وكان النبي ﷺ يحب إبراهيم، وكان يأتي إليه في بيت مرضعته ويدخل والدخان في المنزل، ويقعد ﷺ ويأخذ إبراهيم ويضمه إلى صدره ويقبله ويحبه ﷺ، وأذن

ربنا تبارك وتعالى أن يموت إبراهيم وهو في الرضاع طفلًا، فتأثر النبي ﷺ وحزن حتى بكى وفاضت دموعه والصحابة ينظرون، حتى قال أحدهم: يا رسول الله، هذا وأنت رسول الله تبكي! فقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَيْـنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَي رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

فجمع النبي ﷺ بين الكمال البشري الذي هو حصول الحزن والتأثر لفراقه، وبين أن يظل هذا الحزن عند حده فلا يتطور ليكون جزعًا أو غضبًا أو قولًا أو فعلًا لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

وكثير من الناس لا يستطيع الجمع بينهما؛ فإما أن يغلب جانب مشاهدة القضاء والقدر والإيمان والتسليم فلا يظهر الحزن[2]، وإما أن يغلب عليه جانب الحزن والتأثر، حتى إن بعض النساء إذا مات ولد لها تظل فترة طويلة ودمعها لا يتوقف، وهي تذكر هذا الطفل حين يدخل ويخرج، وحين يلعب أو يبتسم أو ينام، وكلما رأت شيئًا ذكَّرها به، فيتجدد لها حزنها وألمها.

خصص النبي ﷺ جزءًا مهمًّا من الخطبة ليبين للناس أنه لا ارتباط بين وفاة إبراهيم وبين الكسوف، في حين تجد كثيرًا ممن يريدون السلطان والقوة والعلو والمجد في الدنيا يفرحون أن يربط الناس بعض القضايا بهم؛ فيكون

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٦٧٢)، وابن أبي شيبة (١٢١٢٤، ١٢١٢٦)، وأحمد (١٣٠٣٧)، والبخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، وأبو داود (٣١٢٦)، وابن ماجه (١٥٨٩)، وابن حبان (٢٩٠٢، ٣١٦٠)، والحاكم (٤/ ٤٣).

(٢) كما نقل عن الفضيل بن عياض رحمه الله: أنه لما مات ولده ضحك، وهذا نوع من التغييب لجانب الفطرة البشرية.

نزول المطر بسبب بركة مجيئه، أو وقوع الكسوف بسبب وفاة ولده، أو يربط أي ظاهرة كونية أو أمر رباني بهذا الإنسان؛ حتى يبدو هذا الإنسان وكأنه تعدى حدود البشرية ليكون له تأثير آخر.

وكثير من العظماء والأكابر يؤيدون ذلك ويفرحون به، وقد يقول لهم الشعراء ما يقولون، حتى إن أحدهم قال لبعض ملوك الفاطميين:

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأقدَارُ ... فَاحْكمْ فأنتَ الواحدُ القَهَّارُ
وَكَأَنَّما أنتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... وَكَأَنَّما أَنْصَارُكَ الأنصارُ[(١)]

فهذه المبالغة والتهويل الذي يصل إلى حد الألوهية والربوبية، وإسباغ المقامات التي لا تليق بالبشر، قد يوافق عليها بعض أهل الدنيا، وأهل السلطان والمال، وأهل المجد، وما أشبه ذلك، أو يرفضونها على سبيل إظهار التواضع.

لكن هذا النبي المعلم ﷺ بتواضعه وعفويته لم يرض من الصحابة أن يربطوا بين حصول الكسوف وبين وفاة ابنه إبراهيم، واستدعى الأمر أن يقوم فيهم خطيبًا، ويقول لهم: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ**». فليست الشمس حزينة على فراق فلان أو على موته، أو لولادة أحد معين مثل أن يكون شخصًا مشؤومًا أو شريرًا أو ما أشبه ذلك، وإنما هي آية من آيات الله تعالى يخوف بها عباده.

---

(١) من قصيدة لابن هانئ الأندلسي في المعز لدين الله الفاطمي، وهي في ديوانه (ص١٤٦).

❖ مدرسة التواضع:

وعندما جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه، فجعلت فرائصه ترتعد، فقال له النبي ﷺ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِك إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[(١)].

فمَن الذي يعلِّم الناس مثل هذه المعاني إلا رسول الله ﷺ ومَن اهتدى بهديه واستن بسنته، وإلا فإن البعض من الناس ممن يكون مدير شركة، أو مدرسة، أو مسؤولًا، أو عالمًا، يحيط نفسه بنوع من الهالة والأُبَّهة، والتفخيم في تواصل الناس معه، وفي دخولهم عليه وتخاطبهم وعلاقتهم، ويريدون أن يكون بينهم وبين الناس فواصل وعوازل وحدود وسدود، وألا يتعدى أحد قدره معهم، ولم يكن النبي ﷺ كذلك؛ لأنه نبي رضي واختار أن يكون عبدًا رسولًا، لا أن يكون ملكًا رسولًا، فكان يمشي مع الناس، ويَخْصِف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويخرج إلى السوق، ويحمل متاعه بيده، وكان كما تقول عائشة رضي الله عنها: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج»[(٢)].

هكذا كان الرسول صلوات ربي وسلامه عليه، بهذه العفوية والتواضع والقرب من الناس، حتى إن الرجل يأتي إلى الصحابة فلا يعرف رسول الله ﷺ من بينهم؛ بل لما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق لم يكن الأنصار الذين استقبلوه يعرفونه من قبل، فلم يعرفوا أيهم رسول الله ﷺ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والطبراني في الأوسط (١٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٥٠٦)، (٣/ ٥٠)، وابن عساكر (٤/ ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦)، وينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٦٩)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٩٣)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٧٢، ٢٤٩٩٢، ٢٥٧٥١)، والبخاري (٦٧٦، ٥٣٦٣)، وفي الأدب المفرد (٥٣٨)، والترمذي (٢٤٨٩)، والطبراني في الأوسط (١٠٨٢)، والبيهقي (٢٩٨٩).

حتى إذا أصابت الشمس النبي ﷺ قام أبو بكر عليه يظلله، عرفوا أن هذا رسول الله ﷺ.

وهكذا في الحج.. في زحمة الناس.. في المطاف.. في المسعى.. عند الجمرة.. في عرفة.. في الدفع.. الناس بزحمتهم وكثرتهم كان عددهم مائة وأربعة عشر ألف حاج كلهم يذهبون مع النبي ﷺ وخلفه مرة أسامة بن زيد، ومرة الفضل بن العباس، والناس يزاحمونه، ويزحمون ناقته ﷺ، ويطوفون به يسألونه عن أحكام الحج، والحلال والحرام، ومَن قَدَّم ومَن أَخَّر... إلخ، والنبي ﷺ في كل ذلك لم يحب أن يتميز عنهم بشيء؛ لا في خيمته، ولا في لباسه، ولا في شكله، ولا في هيئته، ولو أن الناس وأهل العلم والفقه حاولوا أن يكونوا أقرب إلى الناس وأكثر تداخلًا وقربًا وعفوية وتبسطًا، وتنازلوا عن قضية الرغبة في المديح والثناء والتبجيل والخصوصية؛ لكانوا بذلك أكثر تأثيرًا على الناس، وأكثر قربًا منهم، ولكانوا أكثر اقتداءً وتأسيًا واتباعًا للنبي ﷺ الذي رضي واختار أن يكون عبدًا رسولًا.

رَسُولَ العُلا لي في مَدِيحِــكَ وَقْفَــةٌ … أُرَجِّي بها خيرًا لدَى مَوْقِفِي غَدَا
لِسَاني لَـمْ يَنْطِقْ حرامًـا ولا هَــوًى … وشِعْرِي لَـمْ يَضْمُمْ كلامًا مُفَنَّدَا
وَلَـمْ أَتَــلَــوَّنْ كالَّذِيــنَ تَلَوَّنُــوا … وَزاغُوا وَراغُوا خِـسَّـةً وَتَـصَيُّدَا
وحسبي مِنَ الشِّعْر الحلال قصائدٌ … نطقتُ بها تبقى إِذا لَفَّنِـي الرَّدى



يحب الجمال



❖ الكبرياء لله:

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ ذكر قصة رجل كان يمشي يتبختر، مسبلًا إزاره، تعجبه نفسه في خيلائه، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة(١).

هذا الحديث العظيم يعبِّر عن روح التواضع، ويحث الإنسان على معرفة قدر نفسه ووضعها في موضعها، ويؤكد على معنى عظيم وهو: أن كل معاني ومظاهر الخيلاء مذمومة. إن النبي ﷺ قد بُعث عبدًا رسولًا، وجاء لإزالة كل آثار التعاظم الكاذب، والادعاء الموهوم الذي يعطيه الناس لأنفسهم اغترارًا بمال، أو جاه، أو سلطة، أو منصب، أو شهرة، أو لأي اعتبار من الاعتبارات التي قد تخرج الإنسان عن بشريته، مع أن الإنسان يعلم في حقيقته وقرارة نفسه أن بدايته كانت بداية ضعيفة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٦٢، ١١٣٧١)، والدارمي (٤٣٧)، والبخاري (٥٧٨٩، ٥٤٥٢)، ومسلم (٢٠٨٨)، والترمذي (٢٤٩١)، والنسائي في الكبرى (٩٦٧٩)، والطبراني في الأوسط (٧٧٢٠، ٩١٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٢٤، ٨١٦٣، ٨١٦٤).



مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧].

فهذه البداية لا تهيئ الإنسان ولا ترشحه لأن يتعاظم ويفاخر بنفسه؛ لأن العظمة منحة من الله سبحانه وتعالى، وهكذا النهاية التي يصير إليها الإنسان وهي الموت والفناء لا ترشحه للتعاظم والتفاخر، ولهذا تجد أكابر الملوك والسلاطين والأباطرة والعظماء في تلك المواقف التي يقبض فيها ملك الموت أرواحهم ويغتالهم، يصبحون صغارًا جدًّا، ويتمنون غير ما كانوا عليه.

إنَّ يومَ الْحِسابِ يومٌ عظيـمٌ ... شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يومًا طويـلًا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدا فِي ... رُؤوسِ الْجبالِ أَرْعَى الْوُعُولَا
كلِّ عَيْشٍ وَإنْ تَطَاولَ حـينًا ... فَقُصارى أَيَّـامِـهِ أنْ يَـزُولَا[1]

فهكذا كان ينتهي بالأكابر المطاف.

إذًا: الإنسان مهما تمتع بنعم الله سبحانه وتعالى وأرغد بالعيش، ورزق واستفاد وفتح عليه، إلا أن عليه ألا يغفل، وألا تنسيه هذه الأشياء حقيقته التي خلق منها وإليها يعود.

❖ الكبر في النار:

وهذا يؤكد على معنى عظيم، وهو أن الخيلاء والكبر والتعاظم من أكبر الذنوب وأعظمها التي ينبغي لصاحبها أن يعاقب عليها في الدنيا قبل الآخرة،

(١) الأبيات لأمية بن أبي الصلت. ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب (١٣/ ٢٣٣)، وتفسير الخازن (٢/ ٣١٣)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٥٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٠٦)، وكشف الخفا (١/ ٣٤).

ولهذا قال النبي ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً؟ قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْـرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[(١)].

وقوله: «**بَطَرُ الْحَقِّ**». أي: رده واستنكاره، وقد يكون ذلك لأن الذي جاء به إنسان آخر غيرك، ولو كان الأمر منك لقبلته، وكأنك ترى أن الحق لا يكون إلا منك، فالنبي ﷺ هنا عرَّف الكبر بأنه رد الحق وجحده، واحتقار من جاء به.

وقوله: «**غَمْطُ النَّاسِ**». أي: بخس الناس حقوقهم، وهكذا تجد من الناس من قد يُبتلى بتتبع أخطاء الآخرين وعيوبهم، وقد يجد متعة كبيرة جدًّا في أن يعرض في المجلس مجموعة من الناس فيتم قصفهم بأوصاف ومعايب شكلية أو شخصية، أو بأشياء خُلقية أو خَلقية، أو بمواقف معينة، المهم لن نعدم أن نجد في أي إنسان يستعرضه عيبًا؛ فهذا بخيل، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا سمين، وهذا دميم... إلخ.

وأيضًا: الجوانب الأخلاقية، فقد تجد بعض الناس يقول عن فلان: إنه غير عالم. فإذا كان عالمًا قال: غير مخلص. وما أدراه عن الإخلاص الذي في قلبه؟!

وإذا كان عابدًا قال: ليس المهم كثرة العبادة، لكن المهم صدق النية والعمل. وما أدراه بالنية وما في قلوب الناس؟!

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٨٩، ١٧٤٠٧)، ومسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وابن حبان (٥٤٦٦)، والحاكم (١/ ٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٩٢، ٨١٥٢).



فلماذا لا نعود أنفسنا على أن ننظر إلى الجوانب الإيجابية في الناس، حتى لو كانت قليلة ونثني عليها ونطريها، ونقتبس من الهدي النبوي في هذا الجانب؛ لئلا نتحول إلى متكبرين مصابين بالعجب والخيلاء، وكأننا نريد أن نحتكر الخير ونحتجزه لأنفسنا ونمنعه عن عباد الله الآخرين، فإن رأينا أحدًا وُفِّق إلى دين أو دنيا فإننا نحاول أن نغمزه، أو نستنقص الأمر الذي وُفِّق إليه بشكل أو بآخر من حيث نشعر أو لا نشعر.

❖ الشريعة والجمال:

الجانب الآخر في الحديث: هو قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**».

فليس الحديث مداره على انتقاد عناية الإنسان بالشكل، بل العكس، فالإسلام جاء ليهتم بهذا الجانب؛ لأن الجمال منزلة عظيمة في الإسلام، فقد علَّم الإسلام أهله قولًا وفعلًا أن يعتنوا بالمظهر وبالجمال، وكم من النصوص والأدلة والتعليمات الشرعية والأوامر التي تهتم بجانب الجمال في الإنسان: في مظهره، وثيابه، وشعره، الجمال في شكله، وفي قوله، وفي فعله.

إن الجمال ليس مظهرًا فقط، ومع ذلك فقد اعتنى الإسلام بالمظهر؛ حتى قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»(١). فالله إذا وسع عليك فالبس الأشياء الجميلة؛ لأنها ليست حكرًا على أحد، والإسلام ليس

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٢، ١٩٩٤٨)، والترمذي (٢٨١٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٥) (٢٨١)، (١٩/ ٢٧٨) (٦١٠)، وفي الأوسط (٤٦٦٨)، والحاكم (٤/ ١٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٩٤، ٦١٩٦).

عدوًّا لهذه الأشياء، بل إنه يطلبها من أصحابه.

إن الإسلام يطلب من أصحابه بالأمر الشرعي الديني التعبدي لله سبحانه وتعالى أن يحرصوا على غسل أبدانهم وتنظيفها للمناسبات والتجمعات، فغسل الجمعة يقول فيه النبي ﷺ: «**غُسْلُ يَوْمِ الْجُمْعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ وَسِوَاكٍ وَيَمَسُّ مِنْ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ**»[1]. وذلك لأن الناس سوف يجتمعون، فيأمرهم بالاغتسال وتنظيف أبدانهم وتطييبها.

وهكذا لبس الملابس الجميلة، وقد كان النبي ﷺ يلبس يوم الجمعة وللوفود لباسًا خاصًّا، ويوصي أصحابه بذلك[2].

إن كثيرًا من المسلمين يغفلون عن معنى ضرورة العناية بالجمال في ملابسهم وشعورهم، وقد كان للنبي ﷺ شعر يسرِّحه ويدهنه[3]، وكذا شعر لحيته كان يتعاهده ﷺ؛ حتى تبدو من أجمل ما يكون، والعلماء متفقون على إزالة ما تطاير من شعر اللحية وزاد وأصبح منظره مشوِّهًا للإنسان، وقد ثبت هذا عن بعض الصحابة؛ كأبي هريرة وابن عمر، وعن التابعين كسعيد ابن المسيب، وعن الأئمة؛ كأحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة وجميع

(١) أخرجه أحمد (١١٢٦٨، ١١٦٧٦)، والبخاري (٨٨٠)، ومسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٤٤)، والنسائي (١٣٧٥، ١٣٨٣)، وابن خزيمة (١٧٤٧)، وابن حبان (١٢٣٣)، والبيهقي (١٣١٨، ٥٧٤٨).

(٢) ينظر: سنن أبي داود (١٠٧٨)، وسنن ابن ماجه (١٠٩٥، ١٠٩٦)، وصحيح ابن خزيمة (١٧٦٥)، وصحيح ابن حبان (٢٧٧٧)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٩٩٢)، وسنن البيهقي (٥٧٤٥).

(٣) ينظر: ما تقدم (ص٢٢-٢٥).



الأئمة[١].

❖ العناية بالنظافة:

وهكذا فالعناية بالنظافة أمر مطلوب في الإسلام فقد قال النبي ﷺ في خصال الفطرة: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالاِسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ**»[٢]. فهذه كلها أشياء مطلوبة.

والنبي ﷺ أذن للنساء بالخروج إلى المساجد في الصلوات، ونهى أصحابه عن منعهن[٣]، وأمر ألَّا تتطيب المرأة[٤]؛ لأن خروجها للصلاة خروج مصلحة لغرض وحاجة، وليس بقصد الإثارة أو الفتنة، أو لفت نظر الآخرين، لكن لا يلزم من الأمر بعدم التطيب أن تخرج المرأة وهي ذات رائحة سيئة؛ بل

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٨)، ومصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٢٥)، وصحيح البخاري (٥٨٩٢)، والتمهيد (٢٤/ ١٤٥)، وإكمال المعلم (٢/ ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٩، ٥٨٩١، ٦٢٩٧)، ومسلم (٢٥٧)، وأبو داود (٤١٩٨)، وابن ماجه (٢٩٢)، والنسائي (٩)، وابن حبان (٥٤٨٠، ٥٤٨١)، والبيهقي (٦٦٩، ٥٧٥٧، ١٧٣٣٤)، وفي شعب الإيمان (٢٧٥٩، ٦٤٤٢، ٨٦٣٧).

(٣) ينظر: مسند أحمد (٤٦٥٥، ٢٤٤٥١)، وسنن الدارمي (١٢٧٩)، وصحيح البخاري (٩٠٠)، وصحيح مسلم (٤٤٢)، وسنن أبي داود (٥٦٧)، وسنن ابن ماجه (١٦)، وصحيح ابن خزيمة (١٦٧٨، ١٦٧٩، ١٦٨٤)، وصحيح ابن حبان (٢٢٠٩، ٢٢١١، ٢٢١٤)، والمستدرك (١/ ٣٢٧).

(٤) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٥١٠٨، ٥١١٩، ٥١٢١)، ومصنف ابن أبي شيبة (٥١٥٧، ٧٦٠٩)، ومسند أحمد (٥٧٢٥، ٢٤٤٥١)، وسنن الدارمي (١٢٧٩)، وسنن أبي داود (٥٦٥)، وصحيح ابن خزيمة (١٦٧٩)، وصحيح ابن حبان (٢٢١١، ٢٢١٤)، ومعجم الطبراني الكبير (٥٢٣٩)، (١٣٤٧١)، والمعجم الأوسط (٥٦٨، ٣٤١١)، وسنن البيهقي (٥١٦٠).

مطلوب منها النظافة والستر في الملبس، وهذا قدر مطلوب من الجميع، فلا تكون روائحهم كريهة ولا تكون مظاهرهم سيئة أيضًا.

ولقد جاءت الأحاديث في النهي عن ثوب الشهرة، فقال ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا**»(١).

فالمبالغة في اللباس الذي يكون فيه فرط اهتمام غير عادي يجعل الناس كلهم ينظرون إلى الإنسان بشكله وملبسه الخارج عن المألوف والمعهود، فهذا منهي عنه، وقد يكون ثوب الشهرة رديئًا جدًّا أكثر من المألوف، حتى يلتفت الناس وينظرون ماذا يلبس هذا الإنسان؟

❖ بين الزينة والتواضع:

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**»(٢). ومعناه: التواضع وعدم المبالغة في الملبس.. لكن المطلوب أن يكون الملبس جيدًا ونظيفًا؛ لأن الله تعالى أنزل هذا الدين للناس كلهم.

والناس منهم مَن يعشق الجمال ويحبه في مظهره وشكله وهيئته، وهذا لا حرج فيه، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»(٣). فهذا مما أحله الله

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٧٩)، وابن أبي شيبة (٢٥٢٦٦)، وأحمد (٥٦٦٤، ٦٢٤٥)، وأبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٦، ٣٦٠٧)، وأبو يعلى (٥٦٩٨)، والنسائي في الكبرى (٩٥٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٢٧، ٦٢٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والحاكم (١/ ٥١)، والطبراني في الكبير (٧٨٨-٧٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٧٣، ٦٤٧٠، ٨١٣٥، ٨١٣٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٧٥).



تبارك وتعالى، فإذا لم يلبس الإنسان ثوب حرير، ولم يسبل ثيابه، ولم يجرّها خيلاء، ولم تكن الثياب مسروقة ولا حرامًا؛ فهو أمر مباح، فالله عز وجل قد جعل لعباده بابًا من الخير، وربما كان لبسهم الجميل البعيد عن الحرام سبب خير يؤجرون عليه.

وبالمقابل فهناك من الناس بطبيعتهم يحبون التواضع وعدم المبالغة في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن، فجعل لهؤلاء نظامًا خاصًّا فقال ﷺ: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**». فهذا التواضع عندهم هو من الإيمان، ومعرفتهم لما عند الله تعالى، وطمعهم فيما عند الله والدار الآخرة.

❖ موافقة الناس في لباسهم:

إن عناية المسلم بمظهره أمر مهم جدًّا، وقد يكون من ذلك أن يراعي المسلم المجتمع الذي يعيش فيه، فيلبس مثل لباسهم ما لم يكن حرامًا، أو فيه مخالفة لشرع الله، أو تعدٍّ للضوابط الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى في اللباس، فيكون أقرب إلى الاندماج والتأثير والشعور بالتقارب الذي هو وسيلة وسبب في دعوة هؤلاء الناس إلى الله سبحانه وتعالى، فلا يشعرون أن هذا الإنسان أتى من كوكب آخر، أو أن هناك حاجزًا أو عزلة كبيرة بينه وبينهم، فلا بد من ذلك لدعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى والتأثير عليهم.

وقد أقر الإسلام أن يلبس الإنسان ما يلبسه الناس مما أحله الله تبارك وتعالى، ولذلك تجد العالم الإسلامي في كل بلد له نوع من الألبسة، والمؤمن ينبغي أن يلبس لباس الناس الذين يحيط بهم ويجالسهم، ما لم يكن

هذا اللباس مخالفًا للشريعة، وقد كان النبي ﷺ وهو في مكة يلبس لباس أهل مكة، وفي المدينة مثل ذلك، لبس العمامة ومشى بدون عمامة، وخرج يومًا من الأيام للصحابة ورأسه يقطر ماءً[1]، وهذا يدل على أنه لم يكن على رأسه شيء، فقد يلبس القَلنسوة أو ما تيسر له من الثياب، وحتى الملابس التي غنمها المسلمون من أعدائهم في حروبهم كانوا يستفيدون منها ويلبسونها.

فالإسلام لا يَشْتَرِط لباسًا خاصًّا، وإنما له شروط ومواصفات في نوع اللباس، **وأما ماذا يلبس الإنسان؟** فإنه قد يلبس كثيرًا من الأشياء التي الأصل فيها الإذن والإباحة، وباب الإباحة في الشريعة واسع جدًّا في أمور الناس العادية والحياتية، ولا شك أن هذا مما وسع الله تعالى به على المسلمين وأنعم عليهم، فجعل الإنسان يتكيف مع مختلف الظروف والأحوال، والتغيرات والتقلبات، والبيئات القريبة والبعيدة، سواء كانت بيئات عربية أو غير عربية.



(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٢١١٣)، ومسند أحمد (٧٧٧)، وصحيح البخاري (٦٤٠)، وصحيح مسلم (٦٠٥)، وسنن ابن ماجه (٥٤١، ١٢٢٠)، وسنن النسائي الكبرى (٢٩٣١)، وصحيح ابن حبان (١٥٣٣)، وسنن الدارقطني (١/ ٦٣٢)، ومعجم الطبراني الكبير (١١٣٩٠)، والمعجم الأوسط (٢٥١، ٣٩٤٧، ٤٠٦٤، ٦٣٩٠).

الــرؤيـــا



أخوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتًا فقـامَ لَـهُ وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أجيالًا مِنَ الرِّمَمِ

جاءَ النَّبيونَ بالآياتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْـرِ مُـنْـصَـرِمِ

آياتُهُ كلَّما طـالَ المَـدَى جُـدُدٌ يَزِينُهُنّ جَلالُ العتــقِ والقِـدَمِ

لقد بعث الله تعالى بهذا النبي أجيالًا من الرمم والظلام والجهل، وأنار قلوبهم بهذا الدين وهذا القرآن، فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس، وتحولوا من رعاة غنم إلى قادة أمم.

كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ ورفيقه وأول مَن آمن به: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة:٤٠]. وهو أول الخلفاء الراشدين، وله فضائل جمة لا يأتي عليها العد هنا.

❖ رؤيا مستقبلية:

في «الصحيحين»: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسولَ الله، إني أرى الليلة في المنام ظُلة تنطف السمنَ والعسلَ، فأرى الناسَ يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى سببًا واصلًا من السماء إلى الأرض،

فأراك أخذتَ به فعلوتَ، ثم أخذ به رجلٌ من بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع به، ثم وصل له فعلا. قال أبو بكر: يا رسولَ الله، بأبي أنت والله لتدعني فلأعبرنها. قال رسول الله ﷺ: «**اعْبُـرْها**». قال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي يَنْطِف من السمن والعسل فالقرآن؛ حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا**». قال: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأتُ. قال: «**لَا تُقْسِمْ**»[1].

في هذا الحديث وقفات:

❖ أبو بكر سيد المعبِّرين:

أولًا: عناية أبي بكر رضي الله عنه –وهو الصدِّيق– بالرؤيا؛ لأن الرؤيا مرتبطة بعالم الغيب، مرتبطة بالآخرة، مرتبطة بما لم يحط الناس به أصلًا، وإنما جعلها الله تعالى نافذة يحاول الناس أن يكتشفوا من خلالها بعض ما خفي عنهم، ولهذا جاء في الحديث: «**الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٤٨١)، وأحمد (٢١١٣)، والبخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩)، وأبو داود (٣٢٦٨، ٤٦٣٢)، وابن ماجه (٣٩١٨)، والترمذي (٢٢٩٣)، وأبو يعلى (٢٥٦٥)، والنسائي في الكبرى (٧٦٤٠)، وابن حبان (١١١)، والبيهقي (١٩٦٦٩، ١٩٦٧٠).

مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[1]. ولذلك تلقت أسماء بنت الصديق عن أبيها تفسير الرؤيا، ومن هنا جاء علم ابن سيرين بالرؤيا؛ لأنهم كانوا موالي عند أسماء رضي الله عنها، فكان ابن سيرين هو سيد المعبرين من التابعين[2].

المهم أن نلاحظ كيف فسر أبو بكر رضي الله عنه الرؤيا، فقال: يا رسول الله، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال: «**أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأتَ بَعْضًا**». قال: يا رسولَ الله، ماذا أصبتُ وماذا أخطأتُ؟ وأقسم على ذلك، فقال له النبي ﷺ: «**لَا تُقْسِمْ**». أي: لن أخبرك، وإن كانت من المبشرات، وهي جزء من أجزاء النبوة، وفيها آثار كبيرة جدًّا، والنبي ﷺ كان يعبِّر الرؤيا وكان يراها، وفي القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام ذكر رؤيا الملك التي فسرها يوسف عليه السلام.

❖ الرؤيا متنفس:

ثانيًا: إن الرؤيا قد تكون أحيانًا فرجًا؛ ولذلك فإن أكثر من يتعلَّقون بها هم الذين يعيشون نوعًا من الضيق أو الكرب، مثل السجين؛ فإنه غالبًا ما يتعلق بالرؤيا، والسجناء إذا كان عندهم فرصة يلتقي بعضهم ببعض ويتحدثون ويتساءلون: ماذا رأيت البارحة؟ ويُذكر عن صالح بن عبد القدوس -وكان قد سُجن- أنه كان يقول:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٥٢)، وأحمد (٧٦٣٠، ١٢٢٩٤، ١٢٥٣٠)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، وابن ماجه (٣٨٩٣)، والنسائي في الكبرى (٧٦٢٤)، وابن حبان (٦٠٤٣)، والحاكم (٤/ ٤٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٦٣).

(٢) وهناك كتاب في التعبير ينسب له، وليس صحيحًا؛ وإن كان يصح وينسب لابن سيرين رحمه الله كثير من التعبيرات التي يتناقلها العلماء.

خَرَجنا من الدُّنْيا وَنَحنُ مِنَ أهلها	فَلَسنا مِن الأَحْيـاءِ فيها وَلا الموتَـى
إذا دَخَل السجانُ يَومًا لِحاجـــةٍ	عَجبْنَا وَقُـلنـا جاءَ هــذا مــن الدُّنْيا
وَنَفرَحُ بِالرُّؤْيا فَجُـلُّ حَـدِيـثِـنَـا	إِذا نَحنُ أَصْبَحْنا الحَدِيثُ عَن الرُّؤْيَا(١)

وهكذا نجد في قصة يوسف عليه السلام خبر الرجلين اللذين كانا معه في السجن: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ [يوسف:٣٦].

❖ أحــلام نائـم:

الرؤيا مرتبطة بالضيق والشدة، وقبل ذلك هي مرتبطة بالنوم؛ لأن الرؤيا لا يراها إلا النائم، ولذلك فقد أصبحنا نحن معاشر المسلمين لدينا اليوم ولع مرضي بالرؤيا وتفسيرها، وكل ما يراه الإنسان فإنه يتحدث به ويسأل عنه، وقد أصبح هناك برامج وكتب ومواقع كبيرة في الإنترنت لتعبير الرؤيا، وهذا لا يعني نقد مثل هذه الأشياء كلها؛ بل هناك أشياء سليمة وصحيحة.

ولكنني أقول: إن الناس مسرفون في تفسير رؤاهم، وإلا فالإنسان عندما ينام لمدة أربع أو خمس أو ست ساعات فيرى الرؤيا، وقد يراها بتفاصيل وأحداث طويلة إلا أنها لبضع ثوان، فممكن أن يرى الإنسان في النوم أشياء طويلة جدًّا أضعاف مضاعفة لهذا الوقت الذي هو ست ساعات، ولو أن

---

(١) ينظر: المحاسن والأضداد للجاحظ (ص٣٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٥)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٣٠)، وشذرات الذهب» (١/ ٣٣١)، ورُوي بعضها لعبدالله بن معاوية، ونسبت أيضًا لأبي العتاهية.

الإنسان أصبح يستذكر كل ما يراه ثم يقيده ثم يسأل عنه لصارت هذه مشكلة كبيرة، ولن يكون عندنا وقت آخر لنسأل حتى عن أمور دنيانا ومصالحنا، وفتاوينا وأمور ديننا ومشكلاتنا، بل سنكون غارقين جدًّا في النوم، ولعل هذا هو أحد أسرار الولع بالرؤيا، فالعالم الإسلامي ضمن العالم النائم، ولذلك يستغرق في النوم ويكثر من الرؤى ويتعلق بها؛ لأنه يشعر بالشدة والضيق والعجز عن مواجهة الواقع، ومحاولة اختراع وابتكار المشاريع الإصلاحية والتنموية التي تبني وتؤسس وتصلح؛ ولذلك يلجأ إلى الأحلام والرؤى التي يراها في المنام، وربما تشكل له تعلقًا أو سلوانًا... إلى غير ذلك من الآمال.

إن السجين وهو يشعر بالشدة والضيق ربما يكترث للرؤيا ويهتم بها؛ لأنه ليس عنده أخبار، ولا وسائل لمعرفة الأحوال، ولا يدري ما خبر أهله وزوجه، وأمه وبنته، وولده وقريبه، وجاره وماله؛ ولذلك تأتي الرؤيا -أحيانًا- إجابة على هذه التساؤلات، وقد تكون الإجابة صحيحة أو ظنية أو غير ذلك.

❖ الولـع بالـرؤيـا:

ثالثًا: إن الرؤيا ليست من الأمور التي يجب أن يعرفها الناس أو يعرفوا أين الخطأ وأين الصواب فيها، أو أن يكون هناك إلحاح ومتابعة لكل ما يراه الإنسان في نومه، ويكون عنده نوع من برمجة مثل هذه الأشياء وتوظيفها، وقد تتحول أحيانًا إلى مكاسب مادية عن طريق التفسير بمقابل مادي، مع أن المشكلة ليست في المقابل المادي فقط بقدر ما فيها من تعلق الإنسان بالرؤيا.

والمرأة لروحها العاطفية وتوهجها الانفعالي أكثر تعلقًا وسؤالًا عن الرؤيا من الرجل، وهذا أمر ملحوظ ملموس، ولذلك ينبغي وضع الرؤيا في نصابها، فقد تكون مبشرة فتعطي الإنسان فرحة وسعة في أمره، وقد تعطيه وعدًا وتفاؤلًا، وهذا جميل، ويحسن لمفسِّر الرؤى أن يعطي الإنسان نوعًا من المتنفس والخير والبركة، وقد كان النبي ﷺ عندما يسأل عن رؤيا يقول: «**خَيْـرًا رَأَيْتَ**». أو: «**خَيْـرًا لَنَا وشَرًّا لأَعْدائِنَا**»[(١)]. فالتفاؤل جميل وجيد، ولكن لا نحول الرؤيا إلى برنامج وبإلحاح شديد، وإفراط، وكثرة سؤال، حتى إن الإنسان يسأل عن الرؤيا أكثر مما يسأل عن أمور الشريعة التي تهمه، وأكثر مما يسأل عن مشكلاته التي يعانيها؛ وذلك لأن الناس ينتظرون شيئًا مألوفًا أو متوقعًا، فتجد بعض الناس يبنون قرارات على الرؤيا، فمثلًا: فتاة تريد الزواج وحين تنام تنتظر الرؤيا.

فهذه أشياء يراها الإنسان من تغير وتعكر المزاج، وهي لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تدل على شيء، وبمجرد أن يصلِّي الإنسان ركعتين ويسأل الله تعالى أن يوفقه إن كان هذا الأمر خيرًا أو يبعده إن كان شرًّا، يزول عنه ذلك القلق وهذا هو المطلوب، وليس معناه أنه لا بد أن ترى رؤيا تقول لك: افعل أو لا تفعل. وهناك قرارات قد تكون متعلقة بالشركة، أو الأسرة، أو المؤسسة، بل أحيانًا قرارات متعلقة بالأمة تكون مبنية على رؤيا يراها الإنسان ثم يعول عليها ويبني عليها نتائج ضخمة وكبيرة، فضلًا عن بناء الأحكام الشرعية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩١٧)، وابن ماجه (٣٩٢٣)، والطبراني في الكبير (٢٥/ ٢٥، ٢٧ ،٣٩، ٤٢)، والحاكم (٣/ ١٩٤).

وكذلك لا يبنى على الرؤيا الحلال والحرام، والحق والباطل، والخطأ والصواب، أو أنه يكره هذا الإنسان ويحب ذاك، أو يعتقد أن هذا أقرب وذاك أبعد بناءً على مجرد الرؤيا.

❖ حديث النفس:

رابعًا: غالب ما تكون الرؤيا انعكاسًا لحال الإنسان؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ أن الرؤيا قد تكون من الله، وقد تكون من الشيطان، وقد تكون حديث النفس.

ومن خلال قراءتي ومتابعتي لهذا الباب ومعرفتي بأحوال الناس ألاحظ أن (٪٩٠) مما يراه الناس هو من حديث النفس.

فأي خواطر وأفكار تشغلك في اليقظة تراها في المنام، كما أن الإنسان عندما يكون مشغولًا بموضوع فإنه يكثر التحدث عنه، فهكذا في النوم يظل الإنسان يحدث نفسه بهذه الأشياء التي تشغله في اليقظة، وهذا حديث لا يدل على شيء؛ فهو حديث محايد، لا يدل على خطأ ولا على صواب، ولا: افعل أو لا تفعل. بل هو مجرد انعكاس لشعورك أو حديث لنفسك أثناء نومك، وهذا هو الغالب.

قد يرى الإنسان في منامه رؤى مرتبطة برموز وأشخاص أو أشياء أخرى، وهنا ينبغي للإنسان أن يعتدل في هذه الرؤيا ولا يبالغ، ولا حاجة للسؤال أيضًا؛ لأننا طالما أضعنا أوقاتنا وأوقات الآخرين الذين نطلب منهم أن يعبروا رؤانا.

وقد تكون الرؤيا أحيانًا عبارة عن فيلم طويل، وسالفة أو قصة، فسرد الرؤيا نفسها يحتاج إلى عشر دقائق أو ربع ساعة، وفي النهاية قد تكون هذه الرؤيا لا تعني شيئًا وإنما هي حديث النفس.

❖ اليقظة خير من المنام:

خامسًا: إن الإنسان عنده قرآن، وحديث، وإيمان بالله سبحانه وتعالى، وعنده عقل أيضًا يستخدمه ويفكر به، ويعرف الخطأ والصواب، وماذا يفعل في هذه المواقف، وعنده إخوانه المؤمنين؛ من أهله.. من والديه.. من زملائه.. من الناصحين.. من الناس، يستشيرهم في المواقف التي تلم به، وفي الحاجات التي يتطلبها أمره، وتبقى الرؤيا مبشرة إذا كانت من الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

قال بعض المفسرين: من البشرى: الرؤيا الصالحة، فهي تبشِّر الإنسان بخير، وقد تكون تحذيرًا أو نهيًا للإنسان عن شيء أو ما أشبه ذلك، فهذه تشكل نسبة من الرؤيا وهي موجودة وواقعة.

❖ لا يُلعب بالنبوة:

وأخيرًا: إنه لا ينبغي أن يكون هناك مجال للعبث والتلاعب؛ فقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الرؤيا فتوى، كما في قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١].

فينبغي للإنسان أن يتوقع فيها، فلا يسأل عن كل شيء، والمعبِّر عليه أن يرفق بالآخرين؛ فلا يعبِّر لهم أشياء تخيفهم أو تزعجهم، وكم من إنسان قضى فترة طويلة من حياته وهو مهموم؛ لأنه رأى رؤيا وفسرت له تفسيرًا مرعبًا، فأصبح قلقًا مهمومًا ينتظر هذه الساعة، حتى يقيض الله تعالى له مَن يكشف عنه هذه الغمة، ويقول له: إن هذا التأويل خاطئ، ولا يمت إلى الحقيقة بسبب.

إن الكثيرين يعطون الرؤيا حجمًا كبيرًا في اعتقاد أنها رؤيا وليست حلمًا من الشيطان، ثم في السؤال عنها، ثم في تفسيرها تفسيرًا ضخمًا بعيدًا يتجاوز الحدود الطبيعية التي تتعلق بها الرؤيا، والنبي ﷺ كان المرشد الأمين حين قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «**أَصَبْتَ بَعْضًا، وَأَخْطَأتَ بَعْضًا**».



لا تغضب



عن سُليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ؛ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». فسمع أحد الصحابة[1] كلام النبي ﷺ فانطلق إلى ذلك الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ، وقال له: تعوذ بالله من الشيطان. فاشتد غضبه وزاد، ونفض بيده، وقال له: أترى بي بأس، أمجنون أنا؟! اذهب[2].

وهذه القصة فيها فوائد وعبر:

أولًا: مقامات الناس في الغضب:

أشار النبي ﷺ إلى أن الغضب من الشيطان، هذا إذا كان غضبًا بغير حق،

(١) في بعض الروايات أنه معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٣٨٢، ٢٩٥٨٢)، وأحمد (٢٢١٣٩، ٢٢١٦٤، ٢٧٢٤٩)، والبخاري (٣٢٨٢، ٦٠٤٨، ٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠)، وأبو داود (٤٧٨٠، ٤٧٨١)، والترمذي (٣٤٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٢١، ١٠٢٢٤، ١٠٢٢٥)، وابن حبان (٥٦٩٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٠، ١٤١) (٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩)، والحاكم (٢/ ٤٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٢٨٣).

وهو غالب ما يعتري الإنسان غضب وانفعال، وربما نستطيع أن نقول: إن غالب ما يصيب الناس من الغضب هو انتصار لأنفسهم، فالإنسان إذا شعر أن ذاته أو أنانيته تتعرض للابتزاز أو المضايقة، أو أن شيئًا من حقوقه يتعرض للمصادرة؛ فإنه يغضب وينفعل.

والناس في مقامات الغضب على مراتب:

الأولى: مَن هو بطيء الغضب بطيء الرضا، فإذا غضب فليس من السهل أن يرضى.

الثانية: مَن هو سريع الغضب سريع الرضا، وهذا أمره والتعاطي معه سهل إذا فهمه الإنسان وأدركه.

الثالثة: مَن هو بطيء الغضب سريع الرضا، وهذا في أفضل الدرجات، فلا يغضب إلا قليلًا، وإذا غضب فسرعان ما يتراجع ويستغفر ربه سبحانه، ويعود إلى رشده وصوابه.

الرابعة: مَن هو سريع الغضب بطيء الرضا، وهذا في شر المنازل، فيغضب بسرعة ولأتفه الأسباب، وإذا غضب فمن الصعب جدًّا مراجعته وترضيه.

ثانيًا: الغضب.. والفطرة:

إن الغضب فطرة إنسانية، وفي وجوده حِكَمٌ ومصالح وفوائد، إذا تم توظيفه بشكل صحيح؛ لكن المشكلة تكمن فيما إذا سيطر الغضب على الإنسان، وأصبح يتصرف بمنطلق الاندفاع الغضبي دون أن يحكم نفسه بالحلم أو العقل أو الأناة، فهذا أشج عبد القيس لما جاء إلى النبي ﷺ قال

له ﷺ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**». فقال: يا رسولَ الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خَلتين يحبهما الله ورسوله[1].

ثالثًا: علاج الغضب:

إن الحلم والصبر مدرسة تحتاج إلى تدريب وتعليم، فربما تتحدث مع غيرك لكن هذا المتحدث لأتفه موقف قد ينسى كل ما تعلمه، فيغضب ويزمجر، ويظهر أثر الغضب وملامحه باحمرار عينيه، وانتفاخ أوداجه وحركاته، وربما يبطش أو يضرب أو يعتدي.

وكم من القرارات والمواقف والتصرفات كانت بناءً على حالة غضبية لم يستطع الإنسان أن يحكمها، وكم من البيوت دمرت بسبب كلمة طلاق أطلقت في حالة غضب! وقد يندم الإنسان ندمًا شديدًا لكن بعد فوات الأوان! وكم من إنسان لا أقول: فَقَدَ زوجته أو حياته أو ماله؛ بل أقول: فَقَدَ دينه وآخرته بسبب كلمة غضب، فبعض الناس ربما سب وشتم ولا يبالي مَن يسب ومَن يشتم، وقد يصل إلى سب الدين، أو سب النبي ﷺ، أو سب القرآن، أو سب مَن أنزل القرآن... إلى غير ذلك مما يقع من بعض الناس بسبب سوء التربية،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧)، وأبو داود (٥٢٢٥)، وابن ماجه (٤١٨٨)، والترمذي (٢٠١١)، وابن حبان (٧٢٠٤)، والطبراني في الكبير (١٢٩٦٩)، وفي الأوسط (٢٣٧٤، ٥٢٥٦)، والصغير (٧٩٢)، والبيهقي (٢٠٠٦٠، ٢٠٥٩١)، وفي شعب الإيمان (٧٧٢٩، ٨٤٠٩).

وزيادة: «فقال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما... » عند أبي داود (٥٢٢٥)، والطبراني في الكبير (٥٣١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٦٦).

وفساد التأهيل والتعليم والتهذيب، الذي يجعل الإنسان منذ طفولته يتدرب كيف يحكم نفسه ويضبطها، ولا يستجيب لدواعي الغضب والاستفزازات التي تعرض له.

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**». فردد مرارًا، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»[1].

وهذه الوصية ليست لهذا الرجل وحده، بل هي وصية لي ولك ولنا جميعًا، فالإنسان عليه أن يتعلَّم كيف يحكم نفسه، وكيف يتجنب إثارة الآخرين إذا غضبوا، فالمرأة إذا كان زوجها غاضبًا وجب أن تتعلم كيف تعامله، وتحاول ألا تستثيره أو تزيد من غضبه، وهكذا الرجل إذا كانت زوجه غاضبة فيجب أن يتعلم كيف يراضيها ويهدئها، وليس هذا عيبًا ولا خدشًا في رجولته كما قد يتصوره بعض الجهلاء؛ بل العكس تمامًا؛ فهو من كمال الرجولة.

وقد بين النبي ﷺ أن الغضب من الشيطان الرجيم[2]، وكان يربِّي أصحابه على دفعه بالوسائل الآتية:

١- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

٢- الوضوء؛ لأن الوضوء يطرد الشيطان ويبرد الغضب.

٣- تغيير الهيئة، فإذا كان الإنسان قائمًا فليجلس، وإذا كان قاعدًا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٦)، وأحمد (٨٧٢٩، ٢٣٢١٩)، والبخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، وابن حبان (٥٦٨٩، ٥٦٩٠)، والبيهقي (٢٠٠٦٥، ٢٠٠٦٦)، والحاكم (٣/ ٧١٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠١٤)، وأبو داود (٤٧٨٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٦٧) (٤٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٢٩١، ٨٢٩٢).

فليضطجع؛ لأن تغيير الوضع في حال الغضب تساعد في زواله.

وقد قرأتُ كلمة جميلة رائعة لبعض الحكماء يصور حالة الغضبان فيقول: إذا غضبت فانظر إلى وجهك في المرآة فسترى شيئًا فظيعًا لا تطيق أن تنظر إليه، سترى شخصًا آخر.

أي: كأن شيطانًا تلبسك، ولست أنت فلان بن فلان الهادئ الوديع اللطيف الذي يعرفه الناس ويألفونه.

إذًا: يجب على الإنسان أن يحرص كل الحرص على ألا يكون معروفًا بالغضب مستجيبًا لنوازعه؛ بل يتجنب الأوضاع التي من شأنها أن تغضبه أو تثيره إذا كان يعرف من نفسه أنه قد يفقد أعصابه في بعض الحالات.

رابعًا: مراعاة الداعية لأحوال المدعوين:

في هذا الهدي النبوي تجد أن النبي ﷺ لم يذهب إلى الرجل ليقول له: يافلان، اتق الله ولا تغضب، وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وإنما خاطب أصحابه الذين من حوله والرجل لا يسمعه فقال: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ**». فذهب أحد الصحابة وهمس في أذن الرجل، وقال له: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فانفعل الرجل وزاد غضبه وقال: أتراني مجنونًا؟! اذهب عني.

إذًا: الرسول ﷺ لم يخاطب الرجل مباشرة، وإنما خاطب أصحابه؛ لأن النبي ﷺ علم أن هذا الرجل في حالة غضب، وأنه لو خاطبه لقال له قولًا شديدًا ولم يستجب، ومثل هذا قد يفقده دينه، وقد يقول له مثل ما قال للصحابي:

أتراني مجنونًا؟! اذهب عني. وكونه يقول هذا لصحابي أهون بكثير من أن يقوله لسيد ولد آدم ﷺ.

إذًا: نلاحظ هنا رحمة النبي ﷺ بأمته، وأسلوبه غير المباشر في التعليم.

ونستفيد من هذه الحادثة أن على الداعية أن يراعي ظروف المدعوين والمخاطبين، وليعلم أن الإنسان الذي أمامه ليس مجرد عظام ولحم ودم، بل هو كتل من المشاعر والأذواق، والارتباطات والمعاني، والتجارب والأخطاء التي ربما تلقاها في الطفولة ولا سبيل له إلى التخلص منها بسهولة، فالداعية حينما يتناول أحدًا من الناس لا يحكم عليه بفعل مجرد، أو خطأ، أو موقف عابر، أو كلمة عابرة، ومن ثَمَّ يعتبر هذا الموقف هو خلاصة هذا الإنسان! أو يحتقره في معصية ما ويعتقد أنه من أهل النار! فهذا الإنسان قد يكون فيه خير، وعنده إيمان، وقلبه قد يشتعل ندمًا على ما يقع منه، ولكنه ابتلي بمثل هذه الأشياء، والنبي ﷺ يقول: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْـرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[(١)]. ويقول: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[(٢)]، وفي حديث آخر: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢١٦)، وأحمد (١٣٠٧٢)، والدارمي (٢٧٢٧)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والترمذي (٢٤٩٩)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، والحاكم (٤/ ٢٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٣، ٧١٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٧١)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٠١)، وأحمد (٢٦٢٣، ٨٠٣٠، ٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩)، والترمذي (٢٥٢٦)، وابن حبان (٧٣٨٧)، والطبراني في الكبير (٣٩٩٢، ١٢٧٩٤)، وفي الأوسط (٢٣٧٦، ٥٠٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٨، ٧١٠٢).

الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[(١)].

فيجب علينا ألا نحكم على الناس بموقف محدد، أو خطأ أو ذنب؛ بل يجب أن ندرك أن هؤلاء الناس قد يعانون من ظروف نفسية، وأن الإنسان قد يتكلم في حالة الغضب أو الرضا، وقد يتكلم وهو مذهول أو محزون أو غير ذلك، فنحتاج إلى التلطف معهم في إيصال هذه الرسالة والدعوة.

وينبغي ألا ننقلهم من الوضع الذي هم فيه إلى ما هو شر منه من خلال الأسلوب الذي قد يكون فيه تجاهل لظروفهم وأوضاعهم، وليكن همنا وواجبنا ومهمتنا وكل حرصنا أن ننقلهم من الوضع الذي هم فيه إلى وضع أفضل وأحسن، وهذا يتطلب قدرًا كبيرًا من الرحمة والرفق واللين، والصبر والدعوة غير المباشرة.

فلا تخاطبه في وجهه، ولا تجابهه بالكلام، فقد كان النبي ﷺ في المناسبات والأحداث كثيرًا ما يقف على المنبر ويقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَيَفْعَلُونَ كَذَا؟**»[(٢)]. ثم يبين هذا الأمر والحدث.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٦٧٤)، والطبراني في الكبير (١١٨١٠، ١٢٤٥٧)، وفي الأوسط (٥٨٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٢٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٣٤، ٨٠٩).

(٢) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٦٣١٧، ٣٣١٣١)، ومصنف عبد الرزاق (٢٧٢٥، ٣١٣٥، ١٦١٦٤)، ومسند أحمد (٨٣٣٧، ١١٠٠١، ٢٠٨٤٢)، وصحيح البخاري (٤٥٦، ٧٥٠، ٧٣٠١)، وصحيح مسلم (١٤٠١، ١٥٠٤، ١٦٩٤، ٢٣٥٦)، وسنن أبي داود (٩١٣، ٤٧٨٨)، وسنن ابن ماجه (١٤٠، ٢٠١٧)، وجامع الترمذي (٢١٢٤)، وسنن النسائي (٩٤٧، ١١٩٣، ٣٢١٧، ٣٤٥١، ٤٦٥٥)، وصحيح ابن خزيمة (٤٧٥)، وصحيح ابن حبان (١٤، ٢٢٨٤، ٤٢٧٢، ٤٤٣٨، ٤٥١٥، ٥١٢٠)، والمستدرك (٤/ ٨٤، ٨٥، ٤٠٣)، وشعب الإيمان (٧٦٤٢، ٨٠٩٩).

❖ الدعوة والتشهير:

فليس من الضروري أن تتحول الدعوة إلى نوع من الفضيحة والتشهير بفلان أو علان، وليس من الضروري أيضًا أن تتحول الدعوة إلى مواجهة وقسوة، مع تجاهل للظروف والأحوال والبيئة والمناخ الذي تربى فيه المدعو، وبهذا نستطيع أن نكسب الكثير وأن نتألف كثيرًا من الناس، وإذا وجدنا أن إنسانًا لا يتقبل، أو على حالة لا يستطيع معها أن يقبل شيئًا، فنعطيه الفرصة وبعض الوقت، ونستخدم معه أسلوب الدعوة غير المباشرة، كأن تأمر غيره وأنت تقصده، كما في المثل: (إياك أعني واسمعي يا جارة). فيمكنك أن تثني وتمدح جوانب وتقصد أن ينتبه لها، أو تذم جوانب أخرى وتقصد أن يحذر منها، أو تذكر قصة، أو تستخدم أسلوبًا من الأساليب التي فيها تربية وتعليم، دون تجاهل لوضعه وظروفه الاجتماعية والنفسية والعقلية.

إذًا: لقد بُعث النبي ﷺ رحمة، وعلى أتباعه أن يكونوا رحمةً كذلك، وذلك من خلال تقدير ظروف الناس وأحوالهم، ودعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكما ورد عن بعض الشعراء أنه جاء إلى النبي ﷺ فسأله ﷺ عن بعض الشعر، فقال: يا رسولَ الله، من أجمل ما قلت:

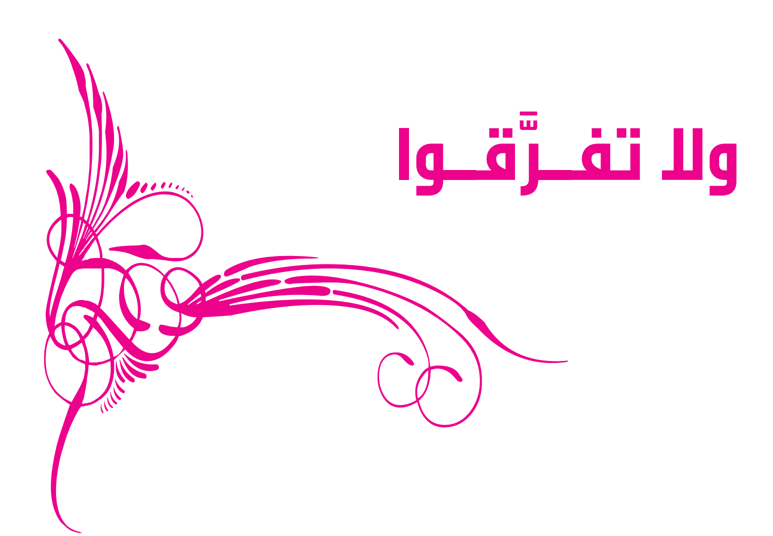
وحَيِّ ذَوِي الأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبَهُمْ
تَحِيَّتَكَ الْحُسْنَى فَقَـدْ يَـرْفَعُ النَّـغَلْ

فإنْ أَظْـهـرُوا خيـرًا فَـجــازِ بِمِثْلِهِ
وَإنْ خَنَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلا تَسَلْ
فإنَّ الذِي يُــؤْذِيـكَ مِنْه سَمـاعُــهُ
وَإنَّ الـذِي قَــالوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلْ [(١)]



(١) ينظر: أسد الغابة (١/ ٢٧٠)، (٢/ ٩١٧)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٤١)، والإصابة (٥/ ٤٦٦).

ولا تفــرَّقــوا



❖ التفرُّق من الشيطان:

ثبت في «سنن أبي داود» عن أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه قال: كان الناس إذا نزل رسول الله ﷺ منزلًا تفرقوا في الشِّعاب والأودية، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فلم ينزل بعد ذلك منزلًا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بُسط عليهم ثوب لعمهم[١].

إن هذه التربية وهذا التعليم النبوي يحمل معنى ضخمًا وكبيرًا جدًّا، ولكن هل نستطيع أن نفقه ونفهم هذا المعنى، أم لا زلنا دونه بكثير؟

لقد كان العرب في جاهليتهم من أكثر الأمم تفرقًا واختلافًا وتناحرًا، وكانت حروبهم ضارية جدًّا، حتى جاء الإسلام وكان من أعظم أسسه: الجماعة والوحدة والتقارب بين الناس، فوحد شملهم، وجمع كلمتهم، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٧١)، وأبو داود (٢٦٢٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٥٦)، وابن حبان (٢٦٩٠)، والحاكم (٢/ ١٢٦)، والبيهقي (١٨٢٣٨).

هدي النبي ﷺ ما يتعلق بموضوع الأخوة الإسلامية؛ كيف عقد هذه الأخوة وزكاها؛ بل كيف أجرى عقدًا حقيقيًّا في المدينة المنورة يسمى: المؤآخاة بين المهاجرين (أهل مكة) وبين الأنصار (أهل المدينة).

❖ أخوة الإسلام:

لقد جعل الله تعالى الأخوة في الدين رابطةً أرسخ من روابط الأرض والدنيا، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [التوبة:٧١]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]. فجعل صهيبًا وسلمان وبلالًا وعمارًا وأبا بكر، وقبلهم محمدًا ﷺ ورجال المسلمين ونساءهم، وبعيدهم وقريبهم، وعربهم وعجمهم، إخوة في الله، ودمجهم في أمة واحدة، وأزال ما بينهم من الفوارق فقال: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وإن هذه الأخوة العظيمة التي أسسها النبي ﷺ ثم عبرت التاريخ وصارت الأمة الإسلامية الفاتحة، أدرجت ضمنها أمم الأكراد -مثلًا- فحمل الأكراد المشعل والراية، وقامت لهم دول، وكان لهم حضور عظيم في التاريخ الإسلامي، ودفاع عن الحرمات والحوزات، ومنهم أبطال أفاضل معروفون، وأيضًا البربر دخلوا في الإسلام، وتعلموا لغته، ودانوا بدينه، وكان لهم حضور وتاريخ ومجد، وكذا الهند والسند والفرس والأمم كلها ذابت وانصهرت في هذا الدين..

ما بَيْنَنَـا عــرَبٌ ولَا عَـجَـمٌ ... مَهلًا يَدُ التَّقوَى هِيَ الْعُلْيا

خَلوا خُيوطَ الْعَنْكَبوتِ فَهمْ ... مِثلُ الذُّبابِ تَطايرُوا عُمْيـا

وَطَنِـــي كبيـرٌ لَا حُـدُودَ لَـهُ كالشَّمْسِ تَملأُ هذِه الدُّنْيَـا
فِي أندونيسيا فَـوْقَ إِيْرَانِـي فِي الْهِنْدِ فِي روسيا وتركيا
أَسْيا سَتَصْهِلُ فَـوْقَهَا خيْلِـي وأُحَطِمُ الْـقَـيْـدَ الحَدِيدِيَّـا

وهناك أصول كبيرة لهذه الأخوة ينبغي أن تتجدد كلما صلَّى الإنسان؛ لأنه يصلِّي إلى جوار أخيه المسلم، ويسجد ويركع ويقوم معه، وكلما يقرأ القرآن يتخيل أن ملايين المسلمين يقرءون معه الآن، وكلما صام الشهر الكريم أو أفطر وهو يدري أن صيام رمضان واجب وركن من أركان الإسلام تشترك فيه الأمة كلها، وكلما طاف بالبيت وعرف أن هذا البيت هو الذي تصلي إليه الأمة كلها في مشرق الأرض ومغربها.

❖ واقع بئيس:

لكن.. واحسرتاه! لما نجده اليوم من عودة بعض الشعارات الجاهلية، والمعاني والانتسابات والانتماءات العرقية والقبلية، والوطنية والإقليمية التي تفسد هذه الوحدة.

واليوم على وجه الخصوص نجد أن أمم الأرض كلها تدخل فيما يسمى بالعولمة، التي تحاول القوى المسيطرة أن تدمج فيها الأمم كلها؛ اقتصادًا وسياسة وإعلامًا وثقافة.. إلخ، وأصبحنا نجد ما يسمى بالشركات العابرة للقارات: شركات النفط، وشركات الكمبيوتر، وشركات السيارات، وشركات الإعلام، وشركات كثيرة قد يكون رأس مال الشركة مليارات الدولارات، ومع ذلك تنضم إلى شركات أخرى لتكون وحدة مندمجة قوية تستطيع أن تواجه

التحديات، وحتى يكون لها نفوذ يفوق أحيانًا نفوذ الدول والسياسات ذاتها، ونجد أممًا ودولًا تحاول أن توجد نوعًا من الوحدة، كما نجد على سبيل المثال الوحدة الأوروبية -وهي عبارة عن مجموعة من الإمبراطوريات- تحاول أن ينضم بعضها إلى بعض، فدولة كألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا -فضلًا عن دول أوروبا الأخرى- تحاول أن تندمج في هذه الوحدة الأوروبية بعملة واحدة، بنظام واحد للجمارك، بدستور واحد، وربما في المستقبل بجيش واحد، وباتفاقيات أمنية محكمة، أو وحدة أمنية... إلى غير ذلك من العوامل التي يرون أنها تضمن لهم الوجود والبقاء والاستقرار، وتضمن نصيبهم من الخيرات العالمية من المكاسب أو المواقف، وأن يكون لهم تأثير وقدرة على ممارسة الضغوط على الآخرين.

وإذا التفت إلى هذه الأمة التي وضع الله سبحانه وتعالى وحدتها، وأقام شريعتها، وأسسها النبي ﷺ بنفسه، فإنك تجد أمرًا عجبًا! يربي النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على أن التقارب في الأجساد مطلوب، فإذا كانوا في الوادي خاطبهم وقال لهم: «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فيجتمعون ويتقاربون فيما بينهم، وليس المعنى في الاجتماع هو أن يكونوا مجموعة واحدة فقط، وهذا هو الأصل في الأشياء المشتركة، لكن عندما يتفرقون للنوم أو للظل أو لغير ذلك لا يكون بعضهم بعيدًا من البعض الآخر، فيتربون على القرب والدنو من بعضهم البعض، وتجنب ما يمكن أن يحصل لبعضهم في الغفلة عن الآخرين، فضلًا عن دعوته ﷺ إلى وحدة قلبية وإيمانية وروحانية فيما بينهم، والشعور بحق هذا الإنسان، وإن من

حقه أن تنصره ظالمًا أو مظلومًا.

❖ نصرة المظلوم:

فمن هذه الوحدة: نصرة أخيك المسلم المظلوم، ونحن نرى العالم الإسلامي هو أكثر بلدان العالم تعرضًا للظلم والتعسف، وذلك بسبب التخلف والتمزق والشتات، وبسبب أننا لا نزال نعيش في سُبات، بينما الأمم الأخرى قطعت مراحل طويلة جدًّا، ولذلك أصبح العالم الإسلامي منهوب الثروات والخيرات، مسلوب الإرادة، وأصبحت القرارات العالمية -حتى المتعلقة بالعالم الإسلامي- لا تعبأ بالمسلمين، في حين نجد أن الدول الكبرى تدرك أن مصالحها في العالم الإسلامي وليس فيما يسمى بإسرائيل، ومع ذلك فهم يراعون مشاعر الشعب اليهودي المحتل لأرض فلسطين، ويصوتون له ويدعمونه سرًّا وجهارًا، ويتنافس الرؤساء المنتخبون لإظهار مزيد من الدعم والتأييد لهذا الكيان الغاصب.

بينما العالم الإسلامي الذي يزخر بالخيرات والثروات كالنفط وغيره من الإمكانيات المادية والأعداد البشرية الهائلة لا يجد مثل هذه الاهتمامات؛ بل ولا نظرة أو التفات، والسبب: هو تشقق العالم الإسلامي وانقساماته، وليس هذا الشتات والتفرق في مجموعة من الدول ليس بينها علاقات جيدة أو ترابط وثيق، لكنك تجد ما هو أبعد من قضية الدول، وهو التمزق داخل الدول نفسها، فتجد الأقاليم المختلفة منشقة بعضها على بعض، وداخل الإقليم الواحد تجد هذه المدينة تحمل نوعًا من الكراهية للمدينة الأخرى، أو نوعًا من العصبية أو

التنافس الذي لا يكون شريفًا، بل داخل القبيلة الواحدة أو الأسرة الواحدة تجد ألوانًا من الخلافات والانشقاقات، حتى إني أعرف أناسًا لا يصلُّون في المسجد الذي يصلِّي فيه مَن يخالفونهم أو في صلاة العيد الذي هو يوم فرحة للمسلمين، وفيه مظهر من مظاهر الاجتماع والوحدة.

كما يجري لبعض إخواننا المسلمين في العالم الغربي، سواء في أوروبا أو أمريكا يختلفون في أيام رمضان، فتجد الانشقاق الكبير جدًّا في البلد الواحد، بل في المسجد الواحد، فهذا صائم وهذا مفطر؛ لأن هذا يصوم تبعًا لدولته، وهذا يصوم تبعًا للبلد الذي هو فيه، أو هذا يصوم باعتبار إكمال الشهر، وهذا كذا، فإذا جاء العيد كان منهم مَن هو صائم ليكمل رمضان، والآخر مفطر!

فإلى متى سنظل نلوك مثل هذه الخلافات ولا نمل منها؛ بل نضريها ونشجعها، ونلتمس لها الأسباب والمسوغات، حتى صدق علينا قول القائل:

بَحَثْتُ عَنِ الأَدْيانِ فِي الأَرْضِ كُلِّها ... وَجُبْتُ بلادَ اللهِ غربًا ومشْرِقَا
فَلَمْ أرَ كالإسلامِ أَدْعى لأُلْفَةٍ ... وَلَا مِثلَ أَهْلِيهِ أشدَّ تفرُّقا

وحق علينا قول الآخر:

وتفرَّقُوا شيعًا فَكُلُّ قَبِيلَةٍ ... فِيها أَمِيرُ الْمُؤْمنينَ وَمِنْبَرُ

❖ عوامل الاختلاف:

إن عوامل الاختلاف موجودة، ولا سبيل إلى تجاهلها، ومنها التعصب القبلي: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْـجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ**

وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ»[1].

وكثير من المتدينين المحافظين ربما يكونون أخيارًا، ومع ذلك ينطلقون أحيانًا من منطلقات عصبية قبلية، فإذا كان في عمل أو مسؤولية ربما قرب مَن ليس عندهم كفاءة؛ لأنهم أقارب أو بنو عم أو بنو خال، وهكذا في أحاديثنا الخاصة ومجالسنا ربما نتحدث علانية أو على المنبر عن رفض العصبية القبلية؛ لكن إذا خلا بعضنا إلى بعض وكنا من نفس المجموعة أو الطائفة ربما تجرأنا على التحدث عن الآخرين بأنهم كذا ونحن كذا.

إذا كانت هذه المعاني ستظل تسيطر على تصرفاتنا ودوافعنا وأعمالنا، حتى في الأعمال الخيرية، والفئات التي تدعو إلى الله سبحانه وتعالى وتربي الشباب على الخير والإيمان والوحدة؛ فربما يكون هناك نوع من غرس الانشقاق من خلال تعميق الانتماء لهذه المجموعة أو تلك، أو هذا الشيخ أو ذاك، أو هذا المذهب أو ذاك، بينما نجد الأئمة والعلماء السابقين كانوا على قدر كبير من الوئام والانسجام، والوحدة والمحبة، وإن اختلفوا فيما بينهم في مسائل، فهذا الشافعي رحمه الله ناقش يونس الصدفي وجادله في مسألة من المسائل، فلما قاموا من المجلس، قال: لم أر أعقل من الإمام الشافعي، أخذ بيدي وضمها إليه وقال لي: يا يونس، ألا يصح أن نكون إخوة وإن لم نتفق في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢١٠٣)، وأحمد (٩٣٥٤، ٩٨٧٣، ٢٢٩٥٥، ٢٢٩٦٣)، ومسلم (٩٣٤)، والترمذي (١٠٠١)، وأبو يعلى (١٥٧٧)، وابن حبان (٣١٤٣)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٥، ٦١٠٠)، والحاكم (١/ ٥٣٩)، والبيهقي (٦٩٠٢)، وفي شعب الإيمان (٥١٤٢).

كل مسألة[١].

فمتى نفقه قول هذا الإمام العلم البحر الحكيم؟! متى نستطيع أن ننظر إلى جوانب الاتفاق والوحدة: وحدتنا بالقرآن، بالإسلام، بالإيمان، باتباع النبي ﷺ، بأركان الإسلام التي اجتمعنا عليها، بالأمور العملية، بالأصول العامة التي ندين الله تبارك وتعالى بها؟!

متى نضاعف التركيز على هذه المعاني ونقلل التركيز والنظر على جوانب التفرق والاختلاف ونأخذها بحجمها الطبيعي؟!

إن الإنسان إذا كبرت عنده بعض الأشياء حجبت عنه الرؤية، فلو أن إنسانًا وضع الكأس أمام عينيه فلا شك أنه سيحجب عنه رؤية العالم الفسيح، لكنه لو وضعه في مكانه فسيراه بحجمه الطبيعي.

إن الواجب علينا أن نتربى في محاضننا المنزلية والدعوية العامة والخاصة على تقدير معاني الترابط مع هذه الأمة والوحدة والانسجام، وأن نضع جوانب الاختلاف في حجمها الطبيعي، ولا نجعلها تتغلب على وحدتنا وأخوتنا.



(١) وقد أوصى الإمام الشافعي يونس الصدفي فقال له: «إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فعليك بما في صلاح نفسك ودع الناس». ينظر: أدب المفتي والمستفتي (٢/ ٤٥٩).

الروم أكثر الناس



❖ تشخيص عميق:

حدَّث المستورد بن شَدَّاد رضي الله عنه في مجلس كان فيه عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**». فقال له عمرو بن العاص رضي الله عنه: أبصر ما تقول -أي: تأكد هل سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟- قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**». فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أما لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[1].

كلما قرأتُ توصيف عمرو بن العاص رضي الله عنه لأخلاق الروم تملكتني دهشة وعجب كبير من رؤية عمرو بن العاص رضي الله عنه! وتخيلت مراكز الأبحاث والدراسات التي تقع اليوم غالبًا في العالم الغربي، وتُعنى بأحوال

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٥١)، ومسلم (٢٨٩٨)، والطبراني في الكبير (٧٣٦)، وفي الأوسط (٨٦٦٨).

كثيرة جدًّا؛ كدراسة نفسيات الشعوب، والانطلاق منها في التعامل معها؛ فوجدت أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قد أصاب كبد الحقيقة في هذه الأوصاف العامة للروم.

وامتداد الروم اليوم في العالم الغربي في أوروبا وأمريكا وغيرها.

❖ الكثرة تغلب الشجاعة:

لقد أخبر النبي ﷺ أن الساعة ستقوم والروم أكثر الناس، فهذا خبر نبوي، وتأكيد صحيح.

والكثرة المشار إليها في الحديث ليست فقط الكثرة العددية، بل إن الكثرة هنا مربوطة بوجود نفوذ وقوة لهم.

إن المسلمين يتميزون بالتضحية والبسالة والشجاعة، ولكن القوم الآخرين الذين ذكرهم النبي ﷺ -وهم الروم- يتميزون بالكثرة، ورَبْط النبي ﷺ لهذه الكثرة بقيام الساعة يومئ إلى أنه سيكون لهم قدر من السلطة، والنفوذ والاستقلال في مواقفهم وقراراتهم ودولهم ونظمهم، وهذا هو المشاهد اليوم.

❖ البقاء مرهون بحفظ الحقوق:

إن عمرو بن العاص رضي الله عنه في إضاءته الدقيقة ربط ظاهرة بقاء الروم وأنهم سيكونون أكثر الناس إلى قيام الساعة- بأسباب، وهذا يدل على أن هذه الأمور القدرية التي تقع اليوم ليست أمورًا اعتباطية، بل إن القضاء والقدر يمضي وفق نواميس وسنن ركبها الله سبحانه وتعالى في الكون،

فالعدل، والإنصاف، والصدق، والعلم... هذه أمور عظيمة مطلوبة، من تحلى بها ظفر، ومن تخلى عنها خسر، وقد يتحلى بها المسلم فيكون له حظ وتوفيق، وقد يبتعد عنها فيحرم من خير كثير، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (قاعدة في الحسبة): (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا يُروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[(١)]، ولهذا فإن المسلمين تحق عليهم السنة كما تحق على الأمم الأخرى.

ويمكن أن نستشف ترغيب الشارع في الأخذ بهذه السنن من قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**إن اللهَ عز وجل يَقُولُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَـيَّ شِبْـرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا**»[(٢)]، فإن هذا الحديث يشمل التقرب إلى الله تعالى بالطاعات والتوبة من الذنوب، فكل مَن تاب وأناب، فإن الله تعالى يكون إليه أسرع بقبول التوبة، وبإعانته على طريقه الجديد، وأنه سبحانه وتعالى يبدل سيئاته حسنات، ويوفقه بمن يساعده على هذا الطريق من أهل أو زوج أو صديق أو ما أشبه ذلك.

❖ التقرب بالمعرفة والقوة:

كما يشمل هذا الحديث التقرب إلى الله تعالى بمحاولة اكتساب عوامل القوة التي يفتقر إليها المسلمون، مثل: تحصيل التقنية والصناعة والعلم

(١) الحسبة في الإسلام، ضمن مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٠، ٩٦١٥، ١٠٧٩٢، ١٠٩٢٢، ١٣٨٩٩)، والبخاري (٧٤٠٥، ٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥)، والطبراني في الكبير (٦١٤١).

والوحدة، إلى غير ذلك من المقاصد والمصالح، فإن الله تعالى أسرع بالإعانة على تحصيل ذلك، ويوفق بمن يساعد ويساند، وهذا كله من عون الله تعالى للعبد.

فالمسلم الصادق إذا اجتهد في هذه السنن فإنه قد يجتمع له فيها في يوم ما لا يجتمع لغيره في شهر، بشرط وجود العزيمة والصدق، وأن يسلك الطريق الصحيح المؤدي إلى تحصيل هذه الأشياء، ولا يكتفي بمجرد التمنيات والأحلام والظنون، أو ينتظر إلى أن تأتيه هذه على طبق من ذهب دون جهد أو عمل.

فنحن نلاحظ عمرو بن العاص رضي الله عنه وكيف يفسر كلام النبي ﷺ بهذه الخصال الأربع وخامستها الحسنة الجميلة التي بها أصبحوا أكثر الناس، وبها استحقوا هذا التمكين الذي كان لهم، ونطق به النبي ﷺ، ونطقت به دلائل الواقع اليوم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وفيما يلي بيان مجمل لهذه الخصال التي استحقوا بها أن يكونوا أكثر الناس:

أولًا: أحلم الناس عند فتنة:

إن الفتن كثيرًا ما تطيش بعقول الناس، وتذهب بألبابهم، فإن الإنسان إذا كان في حالة غضب، أو انفعال، أو تعاطف مع موقف معين، فإنه يفقد قدرته على التوازن، وعلى وضع الأمور في نصابها، وعلى دراسة الأشياء دراسة صحيحة، ويصبح عنده شيء من الاضطراب والارتباك في قراراته، وتفكيره،

ومن ثَمَّ ينعكس هذا الارتباك على أدائه في ميدان العمل والحياة.

ومن هنا فقد وصف عمرو بن العاص الروم بأنهم أحلم الناس عند فتنة، فإذا جاءت الفتن فإنك تجد عندهم تجاهها صبرًا وحلمًا وأناةً وروية، ولا شك أن في هذا إشارة إلى أن هذا خلق مطلوب ينبغي أن يحرص المسلم على التحلي به؛ لأن هذا المقام مقام مدح لهم، وهذا يدل على أنها خصلة حميدة، والمسلم مطالب بأن يتحلى بأحسن الخصال وأطيبها، وأن يأخذها حتى من أعدائه.

ثانيًا: وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة:

سواء كانت مصيبة خاصة أو عامة، وأنا أرجح أن المقصود هنا: الإصابة العامة، وليست المصيبة هنا مصيبةً بموت زوج أو ولد وما أشبه ذلك، وإن كان هذا ربما يكون متضمنًا، لكن المقصود هو وصف الشعب بأكمله، فهو -إذًا- يتعلق بمصائب عامة.

وفعلًا نجد أن هؤلاء الروم يخرجون -مثلًا- من أتون حرب ضروس ضارية شرسة أكلت الأخضر واليابس، وأتت على كل شيء، ثم مع ذلك يكون لديهم قدرة على الإفاقة السريعة، فسرعان ما يستدركون.

وربما كانت أنظمتهم السياسية تساعد على مثل ذلك؛ فإن النظام عندما يكون مبنيًّا على مؤسسات، ويكون خاضعًا للدراسة؛ فإن الخطأ سرعان ما يُتدارك؛ ولذلك فإن الخطأ لا يطول عندهم، وهذا هو معنى قوله: إفاقة بعد مصيبة. أي: لا يطول الخطأ ويستمر كثيرًا، بل سرعان ما يتم استدراك هذا الخطأ وتصحيحه وتصويبه.

ولعل ما نلاحظه في انتخاباتهم وقراراتهم من استدراكهم للأخطاء التي



حصلت، يومئ إيماءً كبيرًا إلى هذا المعنى، أو يكون جزءًا منه.

ثالثًا: وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف:

وهذه هي الروح الإنسانية التي جاء بها الإسلام، وهي جزء من الرحمة التي بُعث بها محمد ﷺ، والنبي ﷺ كان يقول: «**إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: حَقَّ الْيَتِيمِ وحَقَّ الْمَرْأَةِ**»[1]. وكان النبي ﷺ بخلقه العملي وسلوكه مع الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل كان نموذجًا وقدوة، وجاءت شريعته ﷺ تؤكد على هذا المعنى، وقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعْجَبَ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟**». قال فتية منهم: يا رسول الله، بينما نحن جلوس مرت علينا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قُلَّة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا. فقال النبي ﷺ: «**صَدَقَتْ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ الله أُمَّةً لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟!**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٦٤)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في الكبرى (٩١٤٩، ٩١٥٠)، وابن حبان (٥٥٦٥)، والحاكم (١/ ١٣١)، (٤ / ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠)، وأبو يعلى (٢٠٠٣)، وابن حبان (٥٠٥٨، ٥٠٥٩)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٤٨) (٦٣٥)، وفي الأوسط (٧٢٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٢٣٢).

فقد بيَّن النبي ﷺ أن المجتمع الذي يملك الضعيف والفقير والمسكين فيه أن يطالب بحقه بلا تردد، ولا خوف، وأن يأخذ حقه بلا نقص، مجتمعات خليقة بالبقاء؛ لأنها تحافظ على المعنى الإنساني الذي جعله الله تعالى ميزة لبني آدم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

فتحافظ على هذا المعنى الإنساني، وبالتالي يكون الإنسان فيها مطمئنًّا، يشعر بالانتماء، وأنه مستفيد من هذه المجتمعات، وبالتالي يكون جزءًا من المحافظة عليها، ويتربى في جو مطمئن آمن بعيد عن الخوف، وعن القلق.

رابعًا: وأوشكهم كرة بعد فرة:

ومعنى ذلك: أنهم إذا انهزموا سرعان ما يستردون قوتهم، ويكرون على عدوهم مرة أخرى.

خامسًا: وخامسة حسنة جميلة: أمنعهم من ظلم الملوك:

أي: أن عندهم امتناعًا من ظلم الملوك، وقد لا يكون امتناعهم امتناعًا شخصيًّا، وإلا فقد يقال: إن العرب كانوا كذلك، فمثلًا: ذلك العربي -وهو قحيط العجلي- الذي أراد ملك أن يأخذ فرسه، فقال له[1]:

أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكاب عِلْقٌ ... نَفِيسٌ لا تعارُ ولا تباعُ
مُفَدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنا ... تجاعُ لها العِيالُ ولا تجاعُ
سَلِيلَةُ سابقَيْنِ تَناجَلاها ... إذا نسبا يَضمُّهما الكراعُ
فلا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فِيها ... ومَنْعُكَها لَشَيْءٌ يُسْتَطاعُ

(١) ينظر: ديوان الحماسة (١/ ٦٧).

ولكن المقصود بامتناعهم من ظلم الملوك أن الامتناع يتحقق من خلال جماعتهم، فلديهم من الأعمال والمؤسسات والبرامج ما يجعل جهودهم متضافرة، فيمتنعون بذلك من الظلم، وبالتالي يقوم عندهم من النظم والإدارات ما يحقق مصالحهم، ويحفظهم من الظلم ومن العدوان.

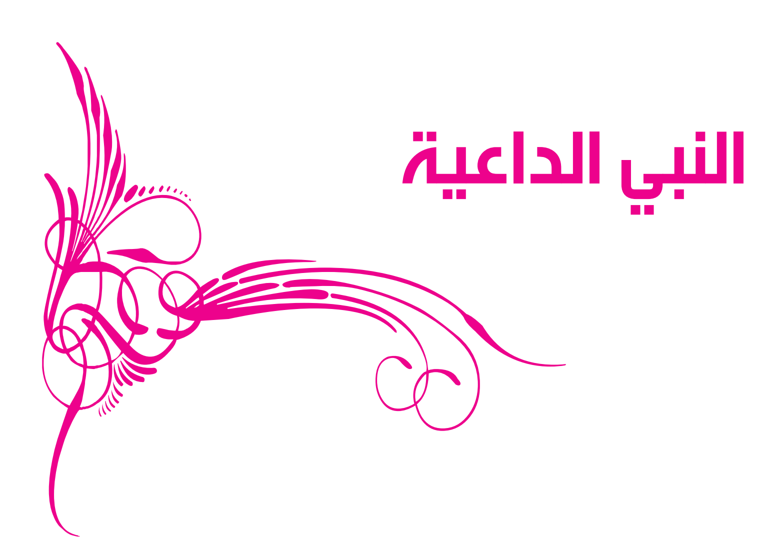
لقد وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه الروم بهذه الصفات التي تحدثنا عنها، مدركًا بذكائه وعبقريته السر في هذا المعنى الذي جعله الله تبارك وتعالى قضاءً وقدرًا، وأخبر وباح به النبي ﷺ بقوله: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**».

وأخيرًا: ينبغي للمسلم أن يلتقط من هذه المعاني والإيحاءات النبوية، ومن لمحات الداهية الكبير عمرو بن العاص رضي الله عنه معاني كثيرة يتمثلها ويجعلها واقعًا حيًّا يعيشه ويسير عليه بين الناس.

وينبغي علينا جميعًا أن نسعى إلى تحقيقها وإقامتها في مجتمعاتنا الإسلامية.



النبي الداعية



❖ انشغالات دعوية:

كان النبي ﷺ منهمكًا بدعوة الملأ من قريش: عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة والنضر بن الحارث وأمثالهم، وكان جل همه ﷺ أن تشع قلوبهم بنور الهداية، وأن يستجيبوا لنداء السماء، فيأتيه الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو لا يعلم أنه ﷺ منهمك في الدعوة فيقول: يا رسول الله، علِّمني مما علَّمك الله[(١)]. فيجد النبي ﷺ في قلبه الكراهية لذلك؛ لأنه مشغول بما يعتقد أنه أنفع وأهم وأولى بالعناية.

لقد كان النبي ﷺ يواجه حربًا شرسة بمكة، فالمتربصون كثر والأعداء أكثر، والحملات الإعلامية على أشدها، والأتباع قليلون، فيأوي النبي ﷺ إلى بيته حزين الفؤاد، فيأتيه جبريل الذي يتنزل من السماء بالروح والفرج والسلوان، يتنزل على هذا النبي المكلوم الذي يعاني ما يعاني من قومه، ينزل فيقول للنبي ﷺ ما حمله إياه ربه في ذلك المقام: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٥١)، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ١٥٥، ١٥٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٧١).



﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴾ [عبس:١-٤].

❖ عتاب إلهي:

عتاب وتوجيه وتأديب للنبي ﷺ على أمر يمكن أن يقال فيه: إن النبي ﷺ فعل فيه ما هو خلاف الأولى، حيث كان يفعل باجتهاده ما يرى فيه مصلحة الدعوة، ومع ذلك فقد ثبت في علم الله تعالى أن هؤلاء القوم الذين انشغل بهم لا يؤمنون، وأن الجهد مع هؤلاء الناس غير ذي جدوى، كما قال تعالى لنوح -عليه السلام-: ﴿ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦]. وكذلك حال النبي ﷺ مع هؤلاء القوم الذين انشغل بهم، فقد كتب أنهم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى فيما بعد: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس:٢٣]، وفي هذه الآية إشارة من الله تعالى إلى أن هؤلاء القوم الأكابر العلية المتغطرسين.. المأخوذين بقوتهم لن يقضوا ما أمرهم الله تعالى به من الإيمان، وسوف يموتون على ما هم عليه من الكفر.

وفي هذه الآيات يعاتب الله تعالى نبيه ﷺ في صدر الدعوة في شأن رجل ضعيف، وتظهر حرارة العتاب وقوته في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [عبس:١].

❖ خطاب غائب:

فالخطاب هنا خطاب لغائب؛ فهو لم يقل له: عبست وتوليت. وإنما قال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾. وهذا الخطاب فيه نوع إعراض يتناسب مع إعراض النبي ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم؛ حيث كان مشغولاً بالدعوة، ثم علل ربنا سبحانه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ بقوله: ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾، وفي هذه الكلمة: ﴿ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ إشارة

إلى عذر الرجل، فالرجل كان معذورًا؛ لأنه لم يكن يرى بعينيه ما النبي ﷺ منهمك فيه من الدعوة والانشغال بما هو أهم، فكان عذره واضحًا، وفي ذلك إشارة قوية وصريحة إلى أن هذا الدين لا يفرق بين الناس بمقتضى إمكانياتهم المادية أو قدراتهم، أو مصالحهم أو مكانتهم، أو شرفهم أو شهرتهم، وإنما الميزان في هذا الدين هو التقوى والتزكية، ولهذا قال عز وجل: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾. أي: هذا الرجل الذي أعرضت عنه لعله يزكى: ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾، فهو بين أمرين: إما أن يتزكى، يعني: يستمع منك إلى ما يرشده من خير وهدى وإيمان وعبادة وطاعة، فيعمل بها، فتزكو نفسه، أو يذكر فيخشى ويرتدع، ويترك معصيةً أو ذنبًا دعته إليه نفسه، فهو بين خيرين يأخذهما منك.

هذا ما يتعلق بشأن عبد الله بن أم مكتوم، أما ما يتعلق بالملإ الذين كان مشغولًا بهم فقد حكاه الله بقوله: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٥-٧]. فهذا الذي كان النبي ﷺ حريصًا على دعوته كان يشعر بالغنى وعدم الاحتياج للدعوة.

إذًا: ما الذي يدعوك إلى أن تبذل معه أكثر مما هو واجب ومطلوب، بل تنشغل به عن الشخص الذي أقبل عليك وأرادك، وجاء يسألك الهداية والتوجيه والإرشاد؟!

❖ انحياز للفقراء والضعفاء:

في هذا عتاب مباشر يؤكد انحياز الإسلام إلى صف الضعفاء والمساكين والفقراء، وبيان أن الميزان والمعيار ليس في الماديات وإنما كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ليست العبرة بالنسب ولا بالحسب، ولا حتى بقرب الإنسان من النبي نفسهﷺ: «**إِنَّ آلَ أَبِي -يعني فلانًا- لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهَ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**»[١].

❖ المقصد الأعظم:

ليس المقصود من الدعوة أن تتحول إلى بضاعة للمعارك الكلامية والخصومات والجدل والتعاظم، وإنما المقصد الأسمى من رسالات السماء هو تحقيق التزكية للإنسان في طيب الأخلاق وكرم الخصال، والمحافظة على القيم، وبناء المجتمعات الرشيدة النظيفة، وإقامة الحضارات السامقة؛ التي لا تستهدف استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، والإطاحة بإنسانيته واستقلاليته، وإنما تهدف إلى أن يكون الناس كلهم سواسية أمام ميزان العدل والحق، وهكذا خاطب الله تعالى الناس من أول وهلة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]. فالعبرة هي بالتزكي والتطهر، والتقوى والقرب من الله، وقد جاء عن عمر رضي الله عنه كما في «صحيح مسلم» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[٢]. فمَن أخذ بهذا الكتاب وهذا الدين أعزه الله تعالى كائنًا

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٣٧)، والبخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢)، والدارمي (٣٣٦٥)، ومسلم (٨١٧)، وابن ماجه (٢١٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والبيهقي (٤٩٠٤)، وفي شعب الإيمان (٢٦٨٢).

مَن كان، ومَن تخلَّى عنه أو نكل نزلت مرتبته حتى لو كان عظيم النسب شريف المقام، فالأرض لا تقدِّس أحدًا، والنسب لا يقدس أحدًا، كما أن التاريخ لا يقدس أحدًا، إنما يقدس الإنسان عملُه.

❖ عتاب معلَن خالد:

شيء عجيب.. ينزل هذا العتاب على النبي ﷺ.. ومع ذلك هل كتمه.. هل أخفاه.. هل همس به همسًا؟ كلا، إنما جمع الفئة المؤمنة وهم قليل مستضعفون بالأرض، وتلا عليهم قول الله عز وجل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [عبس:١]، وكان يرحب بعبد الله بن أم مكتوم ويقول: «**مَرْحَبًا بِرَجُلٍ عاتَبَنِي فِيه رَبِّي**»(١).

قرأ هذا الوحي وتلاه ليسمعه البر والفاجر، والمؤمن والكافر!!

في هذه الآيات تظهر مصداقية الرسالة؛ فإن النبي ﷺ لم يكن ليعاتب نفسه، وإنما عاتبه ربه من فوق سبع سماوات، ولم يكن ﷺ ليكتم مثل هذا المعنى، وإنما كان يقوله لأصحابه علانية ويلقنهم إياه، ويقرؤه عليهم في الصلاة، ويسمعه أعداؤه الذين سيستغلون مثل هذا الموقف ليعتبوا عليه ﷺ.

إن هذه عظمة ما بعدها عظمة، وتفوق لا يتسنى إلا لنبي اختاره الله تعالى واصطفاه، ولو أن والدك أو مسؤولًا أو شخصًا تعظمه همس في أذنك بعتاب.. فهل تجرؤ أن تصرح بهذا العتاب للآخرين؟ فكيف عندما يكون عتابًا قويًّا شديدًا؟! فكيف بإنسان يواجه حربًا إعلامية شعواء، ومع ذلك يعلن هذا

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ٤٤٦)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢١٣)، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ١٥٥)، والآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤٤١)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٩٠)، وروح المعاني (٣٠/ ٣٩).



العتاب وكأنه يقدم مادة سوف يستغلها الخصوم؟!

إن مقاييس الأرض تختلف عن مقاييس السماء والوحي، فقد كان النبي ﷺ يتلو هذا القرآن ويقرؤه للناس، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب:٣٧] تخيل لو قيل لك هذا الكلام مباشرةً: إنك تخفي في نفسك ما الله مبديه!!

إذًا: لاعتبرت هذا تعييرًا وذمًّا ونقدًا، وربما انتفضت وغضبت، لكنه ﷺ يتلقاه من ربه، ويلقيه لأصحابه، ويقرأ به في الصلاة: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب:٣٧]. مع أن ما بعدها أشد منها: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨]. كانﷺ يقرأ هذه الآيات ويلقنها الصحابة كما يقرأ ويلقنهم قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧].

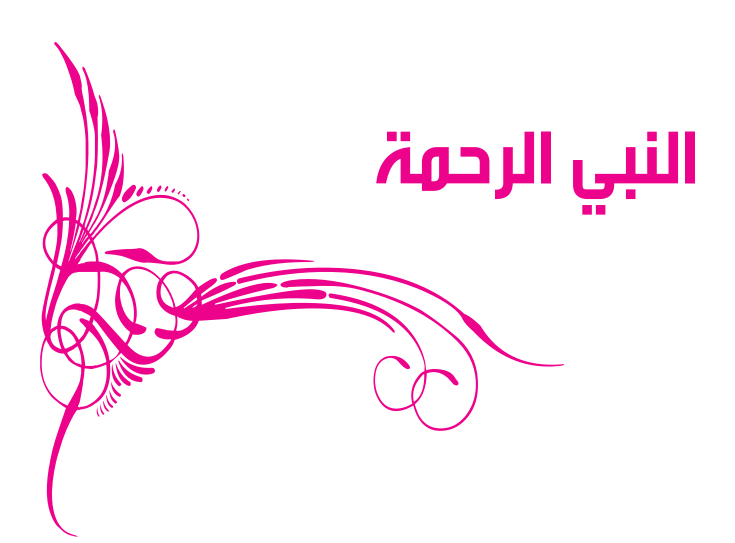
❖ من دلائل النبوة:

إن هذه الآيات الواضحة صريحة الدلالة على نبوة النبي ﷺ، وأنه لا ينطِق عن الهوى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٤]. فالإنسان لم يكن ليوبخ نفسه

أو يعاتبها فضلًا عن أن يقول ذلك على رؤوس الملأ.. فضلًا على أن معايير الدنيا كلها ومعايير العقل البشري إذا انفصلت عن الوحي لا تسعف مثل هذا ولا تزكيه ولا تؤيده، لكنها تؤكد على حقيقة معنى الخبر السماوي، وأنه وحي من عند الله عز وجل، وتؤكد على معنى عظيم آخر وهو أن المسلم المقتدي برسول الله ﷺ عليه أن يتدرب على قبول النقد والتوجيه حتى ولو كان علانيةً ما دام مؤيدًا بالدليل والحجة والبرهان، كما أنها تزرع التواضع لله عز وجل والانكسار لعظمته، ومعرفة أن الذين ينتقدونك أو يواجهونك سرًّا أو علانيةً -ما دامت دوافعهم نظيفة وشريفة- يُسهمون في تعميق شخصيتك وبنائها بناءً صحيحًا، وعزل جميع المؤثرات السلبية عنها، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].



النبي الرحمة



❖ حركة النفاق:

يَا طِيبَ عَهْدٍ كُنْتَ فيه مَنارَنَا فَبَعَثْتَ نُورَ الْحقِّ مِنْ فارانِ
وَأَسَرْتَ فِيهِ الْعاشِقِينَ بِلَمْحَةٍ وَسَقَيْتَهُمْ كأسًا بغَيْرِ دِنَانِ
أَحْرَقْتَ فِيهِ قُلُوبَهُمْ بِتَوَقُّدِ الْـ إيمانِ لا بِتَلَهُّبِ النِّيرانِ
لَمْ نَبْقَ نَحْنُ ولا الْقُلُوبُ كأنَّها لَمْ تَحْظَ مِنْ نارِ الْهوَى بِدُخانِ

كان الناس أمام الدعوة في مكة فريقين: مؤمن وكافر، ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فنشأ فريق ثالث يظهر الإيمان تقيةً وخوفًا ورياءً، ويبطن الكفر والمكر والكيد للإسلام وأهله، وكان كبير هذا الفريق وزعيم هذه الطائفة الجديدة هو عبد الله بن أُبي ابن سلول.

مر النبي ﷺ يومًا بهم، فنزل وسلَّم عليهم، ودعاهم إلى الله تعالى، فقال له: (أيها المرء! إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا...).

انظر إلى هذا الغمز والتشكيك! وإن كان كلامك حقًّا فهو حسن، وما أكثر عباراته الجارحة ومواقفه المخزية: (فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى



رحلك فمَن جاءك فاقصص عليه)[1]. لقد عرف هذا الرجل الإسلام وصدقه لكنه كرهه؛ لأن حرمه من سلطةٍ وسيادة كان يطمح إليها، فقد كان الناس يعدون العدة لتتويجه ملكًا عليهم في المدينة.

❖ خذلان عسكري:

وعندما خرج المسلمون للغزو في أحد رجع بثلث الجيش وهو يقول: (لا نرى أن يكون قتال)[2]. بل قال الأدهى من ذلك في رجوعه من غزوة بني المصطلق: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. كما أنه خاطب قومه وهمس في آذانهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون:٧][3]. بمعنى أنهم مرتزقة قد جاءوا من أجل الدرهم والدينار والمال، فلو قطعتم عنهم العطاء لانفضوا عنه وتركوه. هكذا كان يتخيل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٠٢)، والبيهقي (١٧٥١٧).
وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٣٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٧٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٢)، (٤/ ٣٠٣)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ٤٠٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦)، والبداية والنهاية (٦/ ١٠).

(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق (١/ ٣٠١-٣٠٤)، ومصنف عبدالرزاق (٩٧٣٥)، وتاريخ الطبري (٥/ ٦٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٣) ينظر: مسند أحمد (١٩٣٠٤، ١٩٣١٤، ١٩٣٥٢، ١٩٣٥٣)، وصحيح البخاري (٤٦١٧)، وصحيح مسلم (٢٧٧٢)، وجامع الترمذي (٣٣١٢، ٣٣١٣، ٣٣١٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١٠)، ومعجم الطبراني الكبير (٥٠٠٣)، والمستدرك (٢/ ٥٣١).

❖ إحسان الصحبة:

أما حال ولده عبد الله المؤمن الصادق، فقد جاء إلى النبي ﷺ يومًا في مهمةٍ خاصة، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبي، فإن كنت فاعلًا فأمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمر به رجلًا مسلمًا فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله يمشي في الأرض حيًّا حتى أقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار. فقال النبي ﷺ: «**بَلْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ونتَرَفَّقُ بِهِ مَا صَحِبَنا**»[1].

❖ على فراش الموت:

وعندما حانت ساعة الصفر وجاء أباه الموتُ ذهب هذا الفتى المؤمن إلى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه [2]. فأعطاه النبي ﷺ قميصه ليكفنه فيه، وعندما جيء به ليصلِّى عليه تقدم النبي ﷺ ليصلِّي عليه، فجاء عمر رضي الله عنه، هو الرجل القوي الشديد، فأخذ بمجامع ثياب النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أتصلِّي على ابن أُبيٍّ، وقد قال يوم كذا كذا وكذا؟! يعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**أَخِّرْ عَنِّي يا عُمَرُ**». فلما

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٠٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ١٢١)، وكشف المشكل (٢/ ٥٣٢)، وأسد الغابة (٢/ ١٣٣)، والبداية والنهاية (٤/ ١٥٨)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٨٠)، والبخاري (١٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٠، ٢٧٧٤)، وأبو داود (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٥٢٤)، والنسائي (١٩٠٠)، والترمذي (٣٠٩٨).

أكثر عليه قال: «**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَـرْتُ، لو أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**». فصلَّى عليه النبي ﷺ.

هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟! كلا، خرج النبي ﷺ في جنازته، ونزل في قبره، ووضع جنازته على رجليه الطاهرتين، ونفث فيه من ريقه، ثم ألبسه قميصه، ثم أنزله في قبره[1].

❖ إنها النبوة:

يا للعجب! يا للعظمة! يا للنبوة! يفعل هذا بمَن؟! انظر تاريخ هذا الرجل.. اقرأ سجله وسيرته الذاتية.. إنها مواقف سوداء كالليل المظلم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٧].. ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].. (إليك عني، والله لقد آذني نتن حمارك)[2].

بل أشد من ذلك كله أن يصل الأمر إلى العرض حينما يشيع هو ومجموعة من الناس معه قالة السوء والإفك عن عائشة رضي الله عنها ربيبة بيت النبوة، فينتشر ذلك في المجتمع المدني، ويظل بيت النبوة شهرًا يعاني الآلام المريرة الطويلة، حتى نزل الوحي في صدر سورة النور، وقد كان عبد الله بن أُبي سيد هذه المقالة وزعيم هذه الفرية.. مع ذلك كله كان للقلب النبوي الكبير

---

(١) أخرجه أحمد (٩٥)، والبخاري (١٣٠٠)، والترمذي (٣٠٩٧)، والنسائي (١٩٦٦)، وفي الكبرى (٢٠٩٣، ١١٢٢٥)، والبيهقي (١٦٦٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩)، وأبو يعلى (٤٠٨٣)، والطبراني في الأوسط (٤٦٧٢)، والبيهقي (١٦٤٨١)، وينظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٢٨)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٥٠).

من التسامح الهائل الذي أقطع قطعًا أنه لا يمكن أن يفعله بشر من الملوك أو العلماء، بل كل أصناف الناس تقف مقاماتهم ومصالحهم دون أن يصلوا إلى هذا المستوى النبوي الكريم بعفويته وصدقه وعظمته التي لا تضاهى ولا تجارى.

نبي ينسى ذلك كله، ثم يفعل مع الرجل ما فعل.. ويصلِّي عليه ويستغفر له، ويلبسه قميصه، ويدخله في قبره ﷺ.

بمثل هذه القوة الهائلة التي يعجز عنها أشداء الرجال استطاع النبي ﷺ أن يقيم هذه الملة، ويوحد هذه الأمة، وأن يكون له الذكر الحسن في العالمين.

هذا أُنموذج واحد فحسب للقيادات التي حاربت النبي ﷺ ومكرت به، وكانت تتعامل معه في الخفاء.. بالدس.. والفرية والإفك، وتطعن في الظهر، وتستخدم أخس وأحط الوسائل.

لم يكن هذا الرجل مسلمًا أبدًا، وحتى في مرض موته لم تبدُ منه أي علامة على الإسلام، لقد جاءه النبي ﷺ وهو في مرض موته وكان طامعًا في هدايته ولم ييئس منه أبدًا، فقال له النبي ﷺ: «**كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ**». فاليهود هم الذين صنعوا حركة النفاق في المدينة وغذوها، وكانت هي الذراع الخفية التي يحاولون من خلالها أن يضربوا الإسلام ويمزقوا وحدته، ويخترقوا الصف الإسلامي.

أتاه النبي ﷺ وهو في مرض موته فقال له: «**كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ**». فيقول له: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فمه[1].

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٠٦)، وأبو داود (٣٠٩٤)، والطبراني في الكبير (٣٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩١).

لم يكن الرجل يطمع في صلاة النبي ﷺ عليه بالزلفى والقربى والرحمة؛ لأنه لم يكن مؤمنًا قط، ولم يكن في قلبه ذرة إيمان كما حكى عنه القرآن، ولذلك عاتب الله عز وجل نبيه ﷺ فيما بعد بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٨٤].

كتب الله عليه أنه كفر بالله ورسوله، ومات وهو كافر.

يهمنا من هذا.. الموقف النبوي العظيم، الذي يقف عنده الخيال ويعجز العقل وتتعطل الملكات والقوى أمام هذا التسامح العظيم، وهذه الرحمة النبوية لقوم حاربوا الإسلام وكادوه أعظم الكيد.

❖ القلب الكبير:

تجد في عالم المسلمين اليوم الكثيرين ممن تتحرك الغيرة في قلوبهم والنخوة والاعتزاز بهذا الدين، فيترتب على ذلك جانب النكاية والقوة وجانب الغلبة، وذلك لن يفتح للناس باب الخير والدعوة، فمقام الدعوة يناسبه جانب الهداية والرحمة، والحلم والصبر والتسامح، والنبي ﷺ كان سيد المتسامحين في مكة والمدينة، وفي أول أمره وآخره، ولعل هذا النموذج الذي نقف أمامه الآن من أقوى النماذج وأشدها.

وهناك أنموذج آخر في قصة النبي ﷺ في مكة لما قال لأهل مكة: «**مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟**». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ**»[(١)].

(١) أخرجه البيهقي (١٨٠٥٥)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٧٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١)، وزاد المعاد (٣/ ٤٠٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٠١).

لعمر الله إن هذا لقلب عظيم.. يتناسى عشرين سنة من الأذى والحرب، والتعذيب والمطاردة، وسفك الدماء، فبدلًا من أن يقيم محاكم ومقاصم تجده يتسامح ﷺ ويتركها لوجه الله بقوله: «**أَقُولُ كَمَا قالَ أَخِي يُوسُفُ**: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[1].

ومن ذلك قصته ﷺ مع ثُمامة بن أُثال حينما أمسك به المسلمون وربطوه في المسجد، فيمر عليه النبي ﷺ مرة بعد أخرى، ثم يقول في الآخِر: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»[2]. فأَطْلَقُوه، فيذهب فيغتسل ويعود إلى المسجد ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

لقد تأملتُ هذا الموقف الذي وقفه ﷺ مع عبد الله بن أُبي ابن سَلول، فرأيت شيئًا مدهشًا تحار فيه العقول، ويا ليت كل مؤمن بمحمد ﷺ يقف أمام هذه العبرة.

نعم، لقد نهاه ربه أن يصلِّي بعد اليوم على أحد منهم، فهذا القدر مما نهاه ربه عنه بعد ذلك، لكن في القدر الذي لم يتأت فيه نهي من عفوه ﷺ وتسامحه وصبره وأن يعطيه قميصه، وما أعطاه قميصه إلا بناءً على طلب الابن ولعله أن يخفف عنه العذاب.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٩٨)، والبيهقي (١٨٠٥٤)، وينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٤٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٥٨)، والإصابة (٣/ ٢١٣)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢، ٢٤٢٢، ٢٤٥٠)، ومسلم (١٧٦٤)، وأبو داود (٢٦٧٩)، وابن خزيمة (٢٥٢)، وابن حبان (١٢٣٩)، والبيهقي (٧٧٧، ١٢٦١٤، ١٧٨٠٩)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٥١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٧٨)، والبداية والنهاية (٥/ ٤٩)، والسيرة الحلبية (٣/ ١٧).

لقد كان النبي ﷺ يحمل في قلبه هم البشرية كلها.. أن يدعوهم إلى الله عز وجل، وأن ينقذهم وينجيهم من عذاب الله تعالى، ولهذا كان يقول ﷺ:

«**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ**»[1].

أيها الداعية، الزم غرزه ﷺ، فإنه على الحق، وربِّ نفسك على معاني التسامح والقيم، ولا تغلب جانب النكاية على جانب الهداية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].



(١) أخرجه أحمد (٨٣٨٣، ٨٧١١، ١٠٧٣٦)، والبخاري بلفظ: «**اشتروا أنفسكم**» (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦)، والترمذي (٣١٨٥)، والنسائي (٣٦٤٤)، وابن حبان (٦٤٦).

النبي الواثــق



❖ النصر القريب:

جاء في «صحيح البخاري» عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا! ألا تدعو لنا. فقال: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْـحَدِيدِ مَا دُونَ لَـحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**[(١)].

كثيرًا ما أقف عند هذا الحديث متعجبًا، ويطول عجبي من هذين الأمرين اللذين يبدوان أنهما متناقضان، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم جاءوا بقلوب مكلومة مريرة، مجروحة متألمة يشتكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: ألا

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٩٥، ٢٧٢٦٠)، والبخاري (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأبو يعلى (٧٢١٣)، والنسائي (٥٣٢٠)، وابن حبان (٢٨٩٧، ٦٦٩٨)، والطبراني في الكبير (٣٦٣٨، ٣٦٣٩، ٣٦٤٦).

تستنصر لنا، ألا تدعو لنا. بينما الحديث نفسه يروي أن النبي ﷺ كان متوسدًا بردةً له في ظل الكعبة.

يا سبحان الله.. من أقوى من رسول الله ﷺ غيرةً وإخلاصًا وحماسةً ورغبةً في نصرة الدين حتى إن ربه سبحانه يسليه ويعزيه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾ [الكهف:٦].. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧].

ومع ذلك كان النبي ﷺ كثيرًا ما يظهر عليه الهدوء في مواجهة الأزمات والمواقف الصعبة والحرجة.

❖ الهدوء في الأزمات:

هنا قضية عظيمة ينبغي أن نتعلمها من قدوتنا ﷺ، وهي أن الغضب والانفعال والمشاعر السلبية والانفعالات المتوترة في مواجهة الأزمات لا تصنع شيئًا، سواء كان الأمر يتعلق بأزمة شخصية تمر بالإنسان كأزمة اقتصادية.. أو اجتماعية.. أو نفسية.. أو صحية، أو كان الأمر يتعلق بأزمة تتعلق بالأمة كلها.

من هنا ندرك أن التعامل بروحانية وهدوء ورضا مهم جدًّا، وهذا الرضا لا يعني التسليم بالواقع الفاسد، ولا الاستسلام له، لكنه يعني محافظة الإنسان على اتزانه وهدوئه وعقله في مواجهة هذه الأزمات؛ لأن الإنسان إذا فقد اتزانه واكتمال عقله لن يستطيع أن يفكر بالشكل الصحيح، ولذلك يقول العلماء: إن الغضب للعقل مثل الكسوف للشمس.

أرأيت هذه الشمس التي تغمر الكون بجمالها ونورها وإضاءتها وحرارتها المتزنة، إنها بمثابة العقل الذي يكشف للإنسان خفايا الأشياء، ويساعده على تصورها بشكل دقيق، فإذا عرض لها الكسوف أفقدها نورها أو جزءًا من نورها، وهكذا الغضب في مواجهة الأزمات يفقد الإنسان عقله واتزانه ونظره، فيتصرف بشكل غير صحيح، وتصدر منه أعمال أو أقوال ربما يندم عليها بعد لحظة فقط من زوال الغضب عنه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»[1]. لأن القضاء حكم بين طرفين يتطلب حضور الذهن وصفاءه، والاستماع لهذا الطرف وذاك، فإذا كان الإنسان مغضبًا لم يستطع أن يحيط بالحجة بشكل دقيق.

إن الهدوء في مواجهة الأزمات أيًّا كانت أمر ضروري، ولا يعني الهدوء الرضا بالخطأ، ولكنه يعني أن ينظر الإنسان إلى هذه المشكلات والأزمات نظرًا متأنيًا.

❖ كسوف العقل:

إن الواقع المشاهد والمليء بالمعاناة والآلام، وفي خضم العدد الهائل من المشكلات والأزمات الخاصة والعامة يؤكد أن الكثيرين لا يملكون أنفسهم عند هذه الأزمات، فيظهر عندهم كسوف العقل وبروز الغضب والانفعال، ولذلك ربما يتكلم الإنسان بحرارة وحدة تجعل الذي يستمع إليه يتألم فعلًا؛ لأنه يدرك أن كلام هذا الإنسان لم يصدر من فراغ، بل هو صادر عن معاناة

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣٩٥، ٢٠٥٤١)، والبخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٩)، وابن ماجه (٢٣١٦)، والترمذي (١٣٣٤)، والنسائي (٥٤٠٦).

قلب مجروح، وعن ألم نفسي وداخلي، وعن مصائب حادة مؤلمة، لكن الإنسان يتألم أكثر لفقد هؤلاء الناس لاتزانهم، وبالتالي سوف تكون الأزمة مضاعفة، ولو أن الإنسان كان هادئًا تجاه الأزمة فإنه سوف يتعامل معها بشكل صحيح ولو فيما يخصه هو، لكنه إذا فقد اتزانه فقد يفقد هذا التعامل الصحيح مع الأزمة ويصبح هو جزءًا منها.

❖ صلح الحديبية:

تستطيع أن تقول: إنه ﷺ ما فقد هذه الروح وتجاوزها، بل هناك عشرات الأمثلة على ذلك، ومنها قصة الحديبية، لما جاء عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يقول: ألست نبي الله حقًّا؟! قال: «**بَلَى**». قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟! قال: «**بَلَى**». قال: فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟![1].

كان هناك نوع من التذمر عند الصحابة رضي الله عنهم، وقد كان عمر أبلغ الصحابة وأجرأهم على البوح في هذا الموضوع، فيأتي إلى أبي بكر ثم يأتي النبيَّ ﷺ ويتكلم بهذه اللغة: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟! ثم يعبر بهذا التعبير العجيب: فعلام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟!

لقد اعتبر رضي الله عنه هذا الصلح نوعًا من الدَّنِيَّة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قابل ذلك بالهدوء ليس في العبارات فقط، بل في النفسية والشخصية،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٠)، وابن أبي شيبة (٣٦٨٤٧، ٣٦٨٥٥، ٣٧٩١٤)، وأحمد (١٦٠١٨)، والبخاري (٢٧٣٤، ٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥)، وابن عساكر (٢/ ٣٧١، ٣٧٢)، وينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٣٠٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ١٠٦، ١٤٨)، والبداية والنهاية (٤/ ١٧٥- ١٧٦).

قال: «**أَنَا عَبْدُ اللهِ ورَسُولُه، وَلَنْ أُخالِفَ أَمْرَه، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي**». كلمات معدودات لكنها بليغة، نتكلم عنها بعد ألف وأربعمائة سنة، ونستخرج منها هذا المعنى الراقي في شخصية الرسول ﷺ وكل أحد من الناس.. **الزوج**.. **الموظف**.. **الرئيس**.. كل هؤلاء يحتاجون إلى إبراز هذا المعنى وتعهده في نفوسهم، بحيث يحافظ الإنسان على هدوئه واتزانه في المواقف، ويفصل تمامًا بين قضية الرضا بالفعل وبين قضية الرضا بالقدر، بمعنى أن الإنسان يرضى بما كتب الله عز وجل، ويدرك أنه كما قال الله سبحانه وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥].

يعني: غضبت أو رضيت ماذا تستطيع أن تعمل؟ هل تعتقد أن مجرد الغضب والانفعال يمكن أن يغير من الواقع شيئًا؟

❖ الرضا بالواقع والرضا بالقدر:

كثيرون جدًّا الذين غادروا هذه الحياة وفي قلوبهم حسرات وآلام، ومعاناة وأمنيات، وأشياء مكبوتة، وربما لا نعرف عنها شيئًا؛ لأنها ماتت بموتهم، بينما نعرف أولئك الذين تعاملوا مع واقع الحياة باتزان، وصبروا وصابروا، وواصلوا ووصلوا، وكل مَن سلك الطريق فإن الله تعالى يأخذ بيده ويوصله إلى ما يصبو إليه بإذنه عز وجل.

إذًا: فرق بين التسليم بالفعل الذي قد يكون فعلًا خاطئًا لا يجوز لنا أن نقبل به وقد يكون هذا الفعل كفرًا بالله وقد يكون عدوانًا على عباد الله، هذا

من جانب.

ومن جانب آخر: ننظر إلى مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر الذي كثيرًا ما يظلم عند الناس ويفهم على غير وجهه، فيفهم بمعنى الاستسلام والتسليم للواقع.

لا، القضاء والقدر يعني مواجهة القدر بالقدر، كما كان عمر رضي الله عنه يقول: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»[1]. أي: نواجه قدر المعصية بالطاعة.. نواجه قدر الظلم بالعدل والدعوة إليه.. نواجه قدر الاستعمار والاحتلال بقدر المدافعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، فلا يصاب الإنسان بالجزع والهلع والانفعال المفرط، وبين قضية أن علينا جميعًا أن نسعى في مدافعته وإزالته.

❖ الهدوء يصنع الكثير:

ومن هنا نلاحظ معنًى جميلًا وعظيمًا نتلقاه من سيد الدعاة وإمام الهدى محمد بن عبد الله عليه صلوات الله، وهو أن الهدوء يصنع الكثير، وأن مجرد الضجيج والجلبة والانفعال لا يكفي، بل ينبغي أن نحول مشاعرنا إلى برنامج عملي، وبالتجربة فإن أولئك الذين يملكون برامج عملية للإصلاح، المنهمكين في عمل إيجابي في الحياة البشرية هم أكثر الناس هدوءًا؛ لأن العمل الذي يقومون به يورثهم الهدوء، ويشعرهم بأنهم يعملون، وأنهم منتجون، وأن

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠١٥٩)، والبخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩)، وأبو يعلى (٨٣٧)، وابن حبان (٢٩٥٣)، والبيهقي (١٤٠٢٠).

هذه الأشياء الفاسدة التي تقع يقابلها أشياء كثيرة صحيحة تقع أيضًا، وبالتالي يكون في قلوبهم اطمئنان وسكينة، ولذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٤]، فالإيمان فعل يقابله السكينة؛ لأن الإنسان قام بعمل، وبالتالي حصل له الارتياح، بينما إذا كان الإنسان في موقف المتفرج فإن المشكلة تتفاقم، والمعاناة تزداد، وكأن لسان حاله يقول: لماذا الكل يعملون ويُفْسدون.. فيما هو ينظر ولا يعمل شيئًا.

إن هذا الإنسان قد يؤول به الأمر إلى اليأس والقنوط والقعود، بل قد ينساق مع هذه الأعمال التي يعتبرها سيئة؛ لأنه يئس منها، وأصبح ينظر إلى معاييره وأفكاره على أنها أخطاء، وربما يقوم بعمل يعتقد أنه سوف يعوضه عن القعود والتأخير الطويل، فيكون عملًا غير مثمر؛ لأنه يسعى إلى حرق المراحل وتجاوز المسافات.

إذًا، الهدوء في مواجهة الأزمات سواءً كانت أزمات فردية أو أزمات جماعية ضروري لضبط العقل والتفكير والنظر السليم للأمور، وهو لا يعني بحال من الأحوال التسليم للخطأ، بل هو أول خطوة لمواجهة هذا الخطأ والسعي في إصلاحه.



النبي الصابـــــر



❖ ألا تدعو لنا..؟

كان النبي ﷺ متوسدًا بردة في ظل الكعبة، فيأتيه أصحابه رضوان الله عليهم يشتكون ويتألمون.... ولكن ليس باللغة التي نسمعها اليوم: بلغ السيل الزُّبَى.. لم يعد للصبر مكان.. ليس في قوس الصبر منزع.. ليس بهذه اللغة؛ فالحياة إذا خلت من الصبر فلا معنى لها، والإيمان لا وجود له إلا بالصبر، فالصبر درس ينبغي أن يتلقاه الكل.

والصحابة رضوان الله عليهم عندما شكوا إلى النبي ﷺ لم يفقدوا صبرهم كما يفقده كثير من الناس اليوم، وما قالوا: يا رسول الله، لم يعد لدينا قدرة على التحمل.

كل ما قالوه: يا رسول! ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا[١]. وكلمة (ألا تدعو) من العرض اللطيف، فهم لم يقولوا: يا رسول الله، ادعُ لنا.. استنصر لنا. لأن (ادعُ) و(استنصر) فعلا أمر، بينما عرض الصحابة رضي الله عنهم كان ألطف

---

(١) تقدم (ص٢٤٩).

من ذلك بكثير، وهذا المعنى يعبر عما كان عليه أصحاب محمد ﷺ من الأدب:

أولًا: في جنب الله سبحانه وتعالى، فهم لم يسخطوا قضاء الله وقدره، ولم يستعجلوا قدرهم، وإنما صبروا وتأنوا، واقتدوا بمن قبلهم من أتباع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثانيًا: أدبهم مع النبي ﷺ، حيث جاءوه يشتكون إليه، فقد كانت الآلام شديدة، ولم يكن الأمر هينًا بل وصل إلى حد القتل، فقد قتل من أصحاب النبي ﷺ من قتل تحت التعذيب، ووصل الأمر إلى حد إكراههم على الكفر والردة كما وقع لجماعة منهم، ونزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ﴾ [النحل:١٠٦].

كان الصحابة رضي الله عنهم يواجهون هذه الآلام القاسية الصعبة، وقصارى ما يفعلونه أنهم يأتون إلى النبي ﷺ، فيتلطفون معه، في غاية الأدب والهدوء: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا.

استخدموا هذا الأسلوب؛ لأنهم يعلمون أن النصر بقدر، وأن كل شيء خلقه الله بقدر وما يؤخره إلا لأجل معلوم، فإن ما يقدم أو يؤخر هو لحكمة الله عز وجل، ولكل شيء أجل، ولكل أمة أجل، فاكتفوا أن يعبروا عن شعورهم البشري بهذه اللغة: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا.

أما النبي ﷺ فقد جلس إظهارًا للاهتمام بهذا الموضوع، ثم قال لهم: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْـمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْـحَدِيدِ مَا**

دُونَ لَـحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[١].

❖ من صور التراجع:

لقد ضرب لهم النبي ﷺ المثل والقدوة بمَن قبلهم من المؤمنين، وأن هذا لم يصرفهم عن دينهم، وكأنه ﷺ يقول لهم: احذروا أن يصدكم ما ترون عن دينكم، فإن هذا الأمر قد يصد الإنسان عن دينه بالردة.

إن بعض الناس قد يتخلَّى عن دينه أمام الضغوط المادية أو الجسدية أو النفسية، وهناك من قد لا يترك دين الإسلام لينتقل إلى دين آخر، ولكن يتخلى عن بعض شرائع دينه، وما ذلك إلا لأن الإنسان إذا فقد صبره فقد الكثير من دينه.

وكثير من الناس حينما يقع عليهم الأذى يندفع للانتقام وللانتصار، وهذا الانتصار ليس من الدين، بل هو انتصار للنفس البشرية، والشرع عندما أباح للإنسان أن ينتصر لنفسه ضبط ذلك الانتصار، فحرم عليه أن يظلم من ظلمه، والنبي ﷺ يقول: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[٢].

مَن كذب عليك لا يجوز لك أن تكذب عليه، ومَن اعتدى على عرضك

---

(١) تقدم (ص٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٩٤٩)، وأحمد (١٥٤٦٢)، والدارمي (٢٥٩٧)، وأبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والدارقطني (٣/ ٣٥)، والحاكم (٢/ ٥٣)، والبيهقي (٢١٠٩١، ٢١٠٩٢).

بغير حق لا يجوز لك أن تعتدي على عرضه، ومَن أشاع عنك قالة السوء لا يجوز لك أن تشيع عنه قالة السوء، ومَن ظلمك لا يجوز لك أن تظلمه، ومَن خانك لا يجوز لك أن تخونه، وهذا من أعظم قيم الإسلام وأخلاقياته الكريمة.

وحينما يقع الإنسان في بعض هذا الانتقام والانتصار للنفس بغير ما شرع الله يكون قد تخلى عن بعض قيم وشرائع الدين أيضًا.

ومن صور التراجع عن الدين أمام ضغوط الواقع الذي قد يعيشه الإنسان: أن الإنسان ربما يترك المجاهدة والإصلاح بسبب الضغوط التي يواجهها أو ضعف الاستجابة، مما يجعله يستسلم.

إن الصادق لا يمكن أن يُلقي بالراية، فما زالت عليه التبعة والمسؤولية، وهذا هو معنى وراثة الأنبياء والمرسلين، أن يسعى الإنسان في الإصلاح قدر المستطاع، فإن هذا الأمر جزء من الدين وليس أمرًا مكملًا أو ثانويًّا، فإن من أمر بالصلاة هو الذي أمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

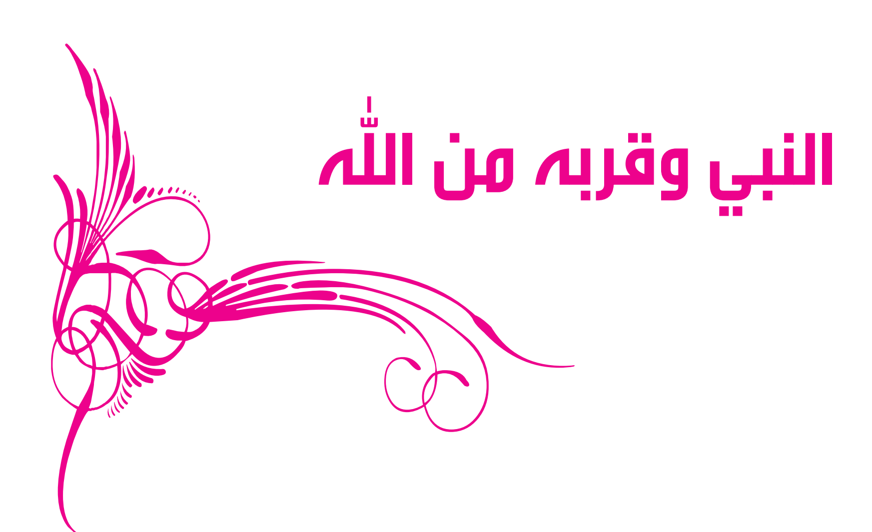
وبالتالي ينبغي على الإنسان أن يحرص على أن يتمسك بدينه في مواجهة هذه الظروف، فلا يترك التدين بهذا الدين بسبب الضغوط التي يواجهها مهما كان الواقع، فليس الإنسان معذورًا في أن يتخلَّى عن دينه من أجل الحصول على مصلحة دنيوية، وإذا كان هناك بعض المنظمات والجمعيات التي تبتز الناس، وتستغل ظروفهم المادية.. ظروف الفقر والمرض، ظروف الجوع والبطالة، وتحاول أن تؤثر في قناعاتهم وفي عقلياتهم ونفسياتهم، فإن المؤمن يجب أن يكون عصيًّا على مثل هذا.

ثم يقول النبي ﷺ لأصحابه: «**وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

لقد وصفهم بالاستعجال بمجرد أنهم قالوا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا. أحس النبي ﷺ أن وراء هذا الطلب روح استطالت الأمر، وكأنها تستعجل خطوات النصر، لا تستعجل فلله تعالى أقدار، لكن ادعُ الله تعالى بقلب صادق وأنت مؤمن بأن ما يؤجله الله تعالى فهو خير، وما يعجله فهو خير، وما يكتبه الله تعالى في النهاية فهو خير، والله تعالى أغير منا على دينه، بل وأغير منا على أنفسنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].



النبي وقربه من اللّٰه



❖ ما ودعك ربك وما قلى:

روى الصحابي الجليل جُندب بن سفيان رضي الله عنه فقال: اشتكى رسولُ الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءته امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك؛ لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ١-٥][1].

كان النبي ﷺ يستعين بقيام الليل على لأواء الحياة وتعبها، وأي شيء أعظم من مناجاة الله عز وجل! وهي تذهب ما في القلب من الألم، فإن القلوب الموصولة بالله سبحانه وتعالى قلوب لا تعرف اليأس ولا الكلل ولا الملل.

إن الحياة بكل صعوباتها ومراراتها تطيب وتجمل حينما يكون القلب

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨١٨، ١٨٨٢٣، ١٨٨٢٦)، والبخاري (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١، ٤٩٨٣)، ومسلم (١٧٩٧)، والترمذي (٣٣٤٥)، وابن حبان (٦٥٦٦)، والحاكم (٢/ ٥٧٣)، والطبراني في الكبير (١٧١١)، والبيهقي (٤٤٩٦، ٤٤٩٧)، وينظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٩)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٩٧)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٢-٩٣).



موصولًا بالله سبحانه وتعالى، وأنا لا أتحدث بالضرورة عن قيام الليل، لكنني أتحدث عن ارتباط القلب بالله سبحانه وتعالى، حتى ولو كان في صلاة الفريضة، فإذا سجد الإنسان بجسده سجد معه قلبه ليناجي ربه، وما أن ينتهي من صلاته إلا وقد غسل قلبه وجدد عزمه، واستعان بالله سبحانه وتعالى على هذا الطريق الطويل الذي يسلكه؛ حتى يستمتع بالحياة ويتجاوز الصعاب.

لا غرابة أن يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ في أول البعثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١-٢]. أو يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ ثم يقول: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر:١-٧].

وليس معنى ذلك أننا نتحدث عن صورة خيالية، إنما نتحدث عن إعجاز تشريعي في الإسلام، فإن ثم مقامات ترقٍ تتفوق على مقامات الملائكة وهي للسابقين والصديقين، ونحن نتحدث عن مقامات سهلة ويسيرة للمؤمن: أن يكون قلبه موصولًا بالله سبحانه وتعالى عند كل أزمة، كقصة الرجل الذي قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به. فقال له النبي ﷺ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ**»[(١)].

ذكر الله لا يكلف الإنسان الشيء الكثير، فهو لا يحتاج إلى قيام، ولا طهارة أو وضوء، فما أيسرها على الإنسان أن يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٤٥٣، ٣٥٠٥٣)، وأحمد (١٧٧١٦، ١٧٧٣٤)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٤)، والطبراني في الأوسط (١٤٤١، ٢٢٦٨)، والحاكم (١/ ٦٧٢)، والبيهقي (٦٣١٨)، وفي شعب الإيمان (٥١٥).

إلا الله، والله أكبر.

جاءت هذه المرأة إلى النبي ﷺ عندما فقدت صوته وعبادته، فقالت له: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك. لأنها كانت تردد ما يروجه المشركون من أن ما يأتيه ﷺ وحي من الشياطين، فسلاه الله تعالى بهذه السورة العظيمة، والمستفتحة بالقسم، والذي يقسم هو الله سبحانه وتعالى، من فوق سبع سماوات، ويأتي القسم معبرًا بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢].

❖ قَسَم عظيم:

وهذا الجمع في القسم بين الضحى والليل إذا سجى فيه قسم بالكون، وقسم بالحياة، وقسم بالليل والنهار بشكل عام التي هي مستودع الخير والشر، وهذا يشابه قسم الله سبحانه وتعالى بالعصر التي هي مستودع أعمال الإنسان، ولكن هنا معنى لطيف: وهو أن الله تعالى أقسم بالليل إذا سجى إذ كان النبي ﷺ يجد سلوته في دعاء الله تعالى وعبادته والتضرع إليه في قيام الليل، أما الضحى فقد كان النبي ﷺ يصلِّي فيه صلاة الضحى كما هو معروف، وهناك معنى آخر لطيف أيضًا: وهو أن الإنسان إذا فاته قيام الليل يمكن أن يعوض عن ذلك بصلاة الضحى، ولهذا جاء في «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ كان إذا غلبه نوم من الليل أو مَرِض صلَّى من النهار ثنتي عشرة ركعة[1]. وقد كان

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٧١٤، ٤٧٥١)، وأحمد (٢٤٣١٤، ٢٤٨١٩)، والدارمي (١٤٧٥)، ومسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والترمذي (٤٤٥)، والنسائي (١٦٠١، ١٧٨٩)، وابن خزيمة (١١٦٩، ١١٧٠، ١٢١١)، وابن حبان (٢٤٢٠، ٢٥٥٢، ٢٦٤٢، ٢٦٤٥، ٢٦٤٦)، والبيهقي (٤٣٣٨، ٤٤١٣، ٤٥٨٨).

يصلِّي مثنى مثنى ويسلم من كل ركعتين، وكان ﷺ إذا فاته الوتر يقضيه من النهار، فقد جاء عند أبي داود وغيره أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ نَامَ عَنْ وِتْرِهِ أَوْ نَسِيَهُ فَلْيُصَلِّهِ إِذَا ذَكَرَهُ**»[1].

المقصود أن القسم الرباني بوقت الضحى ووقت الليل إذا سجى، ومعنى سجى -أي: غطى الكون بظلامه- يبين أهمية هذه الأوقات وفضلها، ثم قال تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]. فالمرأة تقول: إن شيطانك يا محمد قد تركك. بينما الوحي يقول: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]. يعني: ما تركك وما هجرك وما قلاك.

وقوله: ﴿ قَلَىٰ ﴾. إشارة إلى عظمة هذا المعنى، فهو أبلغ وأعم مما لو قال: وما قلاك. ومعنى ﴿ قَلَىٰ ﴾: أنه ما قلى النبي ﷺ، وما قلى أصحابه، وما قلى دعوته ودينه، وما قلى عمله.

❖ أعطاه الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]. أي: أعطاك الله تعالى في الأولى، وبطبيعة الحال فإن بشارة الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ أنه ما ودعه ولا تركه معناها بالمفهوم الواضح أن ربه سبحانه سوف يحبه، والحب من الله سبحانه وتعالى مفتاح كل خير لعبده، فإنه إذا أحب عبدًا فلا خوف عليه ولا بوار ولا خسار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن ثمرة محبة الله تعالى للعبد أن يعيش في صفاء، ونقاء، وأنس، وسعادة، ومهما تضق عليه الأمور، فالسعادة

---

(١) أخرجه أحمد (١١٢٨٢)، وأبو داود (١٤٣١)، وابن ماجه (١١٨٨)، والترمذي (٤٦٦)، وأبو يعلى (١١١٤)، والدارقطني (٢/ ٢٢)، والحاكم (١/ ٤٤٣)، والبيهقي (٤٣١٠).

لا تؤخذ من طيب الطعام والشراب، والملبس والمنام، وإن كانت هذه الأشياء أدوات معينة على السعادة، لكن السعادة محلها القلب، فإذا تفجرت ينابيع السعادة في القلب استطاع الإنسان أن يستفيد من كل هذه الأشياء، لتضيف سعادة إلى سعادته، وحتى لو فقدها أو حرم منها فهو سوف يستشعر السعادة حتى مع الأشياء البسيطة المتوافرة عنده، والله سبحانه وتعالى يؤكد هذا المعنى ويقويه بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]. يعني: إذا كان الله تعالى أعطاك في الأولى ما تعلمه أنت من ألوان السرور، وقرة العين، والسعادة التي نستطيع أن نقول فيها بكل يقين: إنه لم يمر على وجه الأرض منذ خلقت الأرض أحد أكثر سعادة وأنسًا ورضًا وسرورًا من سيدنا محمد ﷺ، وذلك بما أعطاه الله تعالى في قلبه، ومع ذلك فإن الله تعالى يقول له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]. يعني: ما أعد الله تعالى لك في الآخرة هو أوسع وأكثر، فالأولى جاءك فيها خير، لكن الآخرة خير من هذا الخير، وأفضل من هذا الفضل، وأعظم من هذا العطاء، حتى قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥]. يعني: في الآخرة.

لاحظ هنا قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: ترضى عن ربك سبحانه في إعطائه لك وهو راض ﷺ، حتى حينما أوذي من أهل الطائف كان ﷺ يقول في دعائه المشهور الذي ذكره أهل السير: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي**»(١). ومع ذلك انظر كيف

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٨)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٥٤)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٨٥)، والبداية والنهاية (٣/ ١٣٦).



يخاطبه سبحانه ويقول له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ يعطيك عطاءً بعد عطاء، ومن أعظم العطاء الذي يعطيك في الدنيا والآخرة هو كمال الرضا عن ربك جل وعلا.

❖ وعد لاحق وسرد سابق:

هنا يذكِّر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بألوان من عطائه السابق فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]. فقد كان ﷺ يتيم الأبوين، آواه عمه أبو طالب وجده عبد المطلب، ومع أن هؤلاء قد حفظوه ﷺ ورعوه، لكن الإيواء الحق هو من عند ربه سبحانه؛ الذي سخر له الخلق، والذي حفظه في ذلك المقام.

ثم ذكّره بنعم الهداية فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]. يعني: لم تكن تعرف الطريق، وكان ﷺ يبحث عن الدين ويستقصي، ومع ذلك هداه الله عز وجل إلى الدين الحق، كما قال سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

ثم قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]. فقد كان ﷺ فقيرًا، ومات أيضًا وليس عنده شيء، ولم يخلف ﷺ دينارًا ولا درهمًا، ولا عقارًا ولا أملاكًا، وإنما خلف العلم الذي هو بضاعة متاحة للناس كلهم، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]. الغنى غنى القلب والنفس، وهناك معنى آخر وهو: إغناء الأمة كلها، كما قال النبي ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي**». يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها[1].

لو نظرنا اليوم بعد نزول هذه الآية بمئات السنين، بل بأكثر من ذلك؛ لوجدنا أن معظم خزائن الأرض وثروات الأرض موجودة في العالم الإسلامي، وهذا جزء من الغنى والفضل، وجزء من الوعد الرباني، وجزء من أسباب حفظ الله تعالى لهذه الأمة، بحيث إن هذه الإمكانيات الهائلة في العالم الإسلامي هي التي صنعت لهذا العالم نوعًا من الحضور والفعالية والتأثير على الرغم من التخلف التقني والاقتصادي والسياسي الذي يضرب بجرانه في العالم الإسلامي كله، ومع ذلك أذن الله سبحانه وتعالى أن تبقى هذه الأهمية لهذه الأمة.

❖ بالشكر تدوم النعم:

إن الله تعالى يذكر نبيه محمدًا ﷺ بهذا العطاء السابق على صعيده الشخصي وعلى صعيد الأمة كلها؛ ليبين له ﷺ أن الله تعالى سوف يحفظه فيما بقي، ويعطيه في الآخرة أضعاف ما أعطاه في هذه الدنيا، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:٩-١١].

يعني: في مقابل هذا العطاء عليك أن تؤدي الشكر برعاية الفقراء والأيتام والمساكين فلا تقهرهم؛ لأنهم ضعفاء، بل احرص على أن يكون حرصك وأداؤك واهتمامك بأولئك الذين لا يجدون مَن يحميهم، وأن تكون شفاعتك

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٦٤٤)، وأحمد (٩٨٦٧)، والبخاري (٢٩٧٧، ٦٩٩٨، ٧٠١٣، ٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣)، والنسائي (٣٠٨٧، ٣٠٨٩)، وابن حبان (٦٣٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٩).

لأولئك الفقراء والضعفاء.

قال الله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]. يعني: الذي يحتاج ويسأل لا تنهره ولا تزجره، ولا ترفع عليه صوتك، بل إن وجدت شيئًا فأعطه إن كان محتاجًا، وإن لم تجد فلا أقل من الكلام الطيب.

فَليُسعِدِ النُّطْقُ إِن لَمْ تُسعِدِ الحالُ



النبي وأدب الحوار



❖ دعه حتى يُكمل:

حكى محمد بن كعب القرظي رحمه الله رواية عن النبي ﷺ فيما ذكره ابن إسحاق والبيهقي وغيرهما، أن قريشًا اجتمعوا في مكة، وتحدَّثوا بما دخل عليهم من أمر النبي ﷺ، الذي سفَّه أحلامهم، وعاب دينهم، وأتاهم بما لم يعرفوه من قبل، فقال رجل منهم وهو عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلِّمه. فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ**». قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا



دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه...

وظل عتبة بن ربيعة يتكلم مع النبي ﷺ بهذا الكلام المتهافت، ثم يقول له بلغة المتعالم الذي يعلم غيره: وإن كان الذي بك مس من الجن غلب عليك وسيطر على حواسك وأفكارك وعقلك؛ فإننا نعالجك.

❖ أدب مع قليلي الأدب:

هب أن هذا العرض عرض عليك أنت، كم كنت تمقت وتزدري هذا الإنسان الذي يتحدث فيتهمك في نيتك، وأنك تقصد المال أو الشهرة، أو الزوجة أو الرئاسة، ولم تلجأ إلى وسائلها الطبيعية وأسبابها المعروفة التي يستخدمها الناس، وإنما حاولت أن تتذرع إليها بمعنى ديني من خلال الدعوة إلى الله، من خلال الدعوة إلى مكارم الأخلاق، من خلال هذه القيم التي تشهرها وتنشرها، وإن أحدنا لو عرض عليه مثل هذا المعنى لغضب، ومن حقه أن يغضب، بل لم يكن يسمح لهذا الرجل أن يكمل حديثه، بينما نلحظ أن سيدنا محمدًا ﷺ كان منصتًا طيلة هذا الحديث يستمع بغاية الاهتمام لما يقوله له عتبة، ثم رفع النبي ﷺ رأسه إلى الرجل وقال له: «**أَوَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**». قال: نعم.

وهنا نلاحظ الأدب النبوي العظيم، فلم يدخل النبي ﷺ على الحديث بمجرد أن الرجل قد سكت، وإنما وجه إليه سؤالًا حتى يطمئن إلى أن كل ما

عنده قد تحدث به.

ثم انظر كيف خاطبه النبي ﷺ بهذا الخطاب الجميل، وكناه «**يَا أَبَا الْوَلِيدِ**»، ولا شك أن مناداة الإنسان بكنيته معنى جميل، لما فيه من التحبب والتقرب، والإشعار بالرضا وعدم الغضب والانفعال، ثم قال له النبي ﷺ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ...﴾». فقرأ عليه صدرًا من سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فصلت:١٣-١٤]... إلى آخر الآيات. هنا قام عتبة إلى النبي ﷺ، ووضع يده على فمه وهو يقول: يا محمد، ناشدتك الله والرحم أن تسكت.

❖ تغيير عميق:

لقد أصابه الهلع بمجرد سماعه لهذه الآيات المجلجلة والقوية، فانصرف عتبة وكأن صوت الصواعق في أذنيه، وذهب إلى قومه، فلما أقبل عليهم قالوا: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

لقد قرؤوا التغير في ملامحه وقسمات وجهه، فقد جاء متثاقل الخطى متأثرًا بما سمع، فلما جاءهم قال لهم: سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه؛ فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأٌ عظيمٌ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن

يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به[1].

عاد يدعوهم إلى الحياد، اتركوا محمدًا وشأنه ودعوته، فإن قبله العرب وآمنوا به فدعوته عز لقريش، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤]. وإن ظهر العرب عليه وانتصروا فقد كفيتم حربه بغيركم، ولن تحتاجوا إلى إقامة معركة داخل قريش بينكم وبين محمد ﷺ.

❖ آداب الحوار:

هذا الموقف العظيم يحمل في طياته العديد من الدروس والعبر، ومن أهم الدروس التي نستلهمها من قصة حوار النبي ﷺ مع عتبة: كيف نتعلم أدب الحوار؟ فإن النبي ﷺ استمع إلى عتبة حتى انتهى من كلامه، وفي هذا معنى مهم؛ ألا نقاطع المتحدث مهما كان كلامه في نظرنا رديئًا، فالانتصار ليس بالصراخ، ولا بالجلبة، ولو كان الانتصار بمثل هذا الأسلوب لكان الجهلة أولى بالنصر والفوز في الخصومات، بينما الواقع والتاريخ يشهد بأن الانتصار في الخصومة يكون بالحجة والمنطق والعقل، ولذا ترك النبي ﷺ الرجل حتى تحدث ولم يرد عليه، بل لم يقل له: إن ما جئت به سفه، ولو قال لصدق ﷺ، ولكنه استمع إليه ثم اكتفى بأن يقرأ عليه شيئًا من القرآن، ولم يضف إليها ﷺ من عند نفسه شيئًا.

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٤/ ١٨٧-١٨٨)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٣٠-١٣١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٤-٢٠٥)، وتاريخ دمشق (٣٨/ ٢٤٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٩٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٦٣-٦٤)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٦).

❖ منهج التنزل في الخطاب:

هنا نجد أننا أمام منهج قرآني عظيم، فالله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٤-٢٥].

ما أجرمنا لا تسألون عنه، فكل يؤخذ بذنبه: ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فسمى الأمر الصادر منهم عملًا ولم يسمه جريمة، وهذا ما يسميه العلماء أسلوب التنزل للخصم، فمثل هذا الأسلوب في الحوار والأخذ والعطاء والرد هو الأسلوب الرباني والأسلوب النبوي الذي يعتمد على آلية جيدة في الخطاب، مع مراعاة الأدب مع من تتحدث معه، وعدم المعاجلة والمقاطعة.

من الضروري جدًّا أن يكون هذا الأسلوب شائعًا في ثقافتنا ومجالسنا وإعلامنا.

❖ الحوارات الإعلامية:

إننا نشهد اليوم ثورة إعلامية، ونشاهد العديد من البرامج المتحدثة عن الحوار والجدل، والآراء المتعارضة والأطراف المختلفة، بل نشهد ألوانًا من العراك السياسي والفكري والثقافي، وكل اتجاه له ما يمثله.

هؤلاء يحاولون أن يقدموا أنفسهم للناس، لكن نجد آلية كثير من هؤلاء في حواراتهم الهجوم على الأطراف الأخرى وآلية التشفي ورفع الصوت والجلبة في الكلام، وبدون شك فإن الناس يشاهدون هذه المعارك، وكأنما يتفرجون على صراعات، وقد يرون أن هذا انتصر وهذا انهزم. لكن.. ما هي المقاييس

الحقيقية للنصر؟ وأي لون من الحوار ينبغي للإنسان أن يدخل فيه؟

إنني أعتقد أن من الحكمة أن يكون دخول الإنسان في الحوار مبنيًّا على نوع هذا الحوار وموضوعه، بحيث يكون موضوعه علميًّا صحيحًا، وأن يكون المجال الذي يتم فيه هذا الحوار هادئًا، لا يعتمد على الصخب والضجيج، بقدر ما يعتمد على الحجة والبرهان، وأن يكون الهدف هو إظهار الحق.



الإسلام
وحقوق الإنسان



❖ الرسول يحتسب على أبي جهل:

ذكر ابن إسحاق رحمه الله في السيرة قصة طريفة جدًّا:

ذكر عن عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي قال: قدم رجل من إراشة بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش فقال: يا معشر قريش، مَن رجل يوديني على أبي الحكم بن هشام فإني غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي.

كان النبي ﷺ في ذلك الوقت جالسًا في مكان آخر، ومن باب السخرية والاستهزاء به قالوا له: ترى ذلك الرجل؟ فقال: نعم. فقالوا: اذهب إليه فهو يوديك عليه.

وكانوا يعرفون ما يكنه أبو جهل للنبي ﷺ من العداوة والبغضاء، فجاء الرجل إلى الرسول ﷺ وأخبره الخبر، فقام معه النبي ﷺ.

وهكذا كان النبي ﷺ، مع أن بينه وبين أبي جهل عداوة إلا أنه لم يقل: هذا رجل ليس بيني وبينه أي علاقة أو اتصال. وإنما قام معه، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن كان معهم: اتبعه انظر ماذا يصنع.



وذهب ﷺ إلى أبي جهل، وطرق عليه الباب، فخرج أبو جهل، فلما رأى النبي ﷺ بهت، فقال له النبي ﷺ بلهجة الآمر: «**أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّه**». قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له. قال: فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشي: «**الْحَقْ بِشَأْنِكَ**». قال: فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرًا فقد والله أخذ لي الذي لي.

وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ قال: رأيت عجبًا من العجب، والله إن هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه، فقال: «**أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّه**». قال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه. قال: فدخل ثم خرج إليه بحقه فأعطاه إياه. قال: فلم يلبثوا أن جاءهم أبو جهل فقالوا له: ويلك ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت!! فقال: ويحكم والله إن هو إلا أن ضرب الباب وسمعت صوته فملئت منه رعبًا فخرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني -وفي رواية - فقالوا لأبي جهل: فَرَقْتَ من محمد كل هذا؟ قال: والذي نفسي بيده لقد رأيتُ معه رجالًا معهم حراب تلألأ - قال أبو قزعة في حديثه: حرابًا تلمع- ولو لم أعطه لخفت أن يبعج بها بطني[1].

كان النبي ﷺ مع دعوته إلى الله يوضح أن من أهم أصول هذه الدعوة ومبادئها: الدعوة إلى العدل، ورد الحقوق إلى أصحابها، وإنصاف المظلومين،

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٤/ ١٧٦)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٤-٢٣٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٩٣-١٩٤)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٩٦-١٩٧)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٥).

والأخذ على أيدي المعتدين، ولهذا قام النبي ﷺ مع هذا الرجل وأخذ له حقه.

❖ حلف الفضول:

جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن حلف الفضول: «**لَوْ دُعيتُ به اليومَ لأَجَبْتُ**»[1].

كان النبي ﷺ يتحدث عما يمكن أن نسميه بلغة العصر الحاضر (منظمة حقوقية) متمثلة في حلف واجتماع حاشد في دار عبد الله بن جُدعان أحد زعماء قريش الكبار، والذي كان مشهورًا بالعدل والإحسان، والكرم والرجولة، ومعاني المشيخة الملائمة لمثله في تلك القبيلة وتلك البلدة التي هي أحد عواصم الحضارة في الجزيرة العربية.

كان النبي ﷺ قد شهد ذلك الحلف قبل البعثة، وقد كان قائمًا على أساس نصرة المظلوم والحفاظ على حق الضعيف ورد المظالم، والأخذ على أيدي العابثين والظالمين، وإيصال الحقوق لأصحابها.

الشيء العجيب أن يقع مثل هذا في الجاهلية؛ كأنهم يعرفون أن قوام الحياة بحفظ الحقوق، وأن بقاء الأمم والدول هو بذلك أيضًا، فالدولة التي يحفظ الله تعالى بها حقوق الناس تعمر، حتى لو كانت دولة كافرة، والدولة التي تظلم الناس وتبخسهم حقوقهم قد لا يطول بها المقام حتى لو كانت دولة مسلمة، كما قال ابن تيمية في السياسة الشرعية: إن الله تعالى ينصر الدولة

---

(١) أخرجه البزار (١٠٢٤)، والبيهقي (٦/ ٣٦٧)، وينظر: طبقات ابن سعد (١/ ١٢٩)، وأخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٥٧)، وأخبار مكة للفاكهي (٣/ ٣٢٠)، وشرح مشكل الآثار (٥٩٧١)، والروض الأنف (١/ ٢٤٨)، والسيرة الحلبية (١/ ٢١٣).



العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة.

إن النبي ﷺ تكلم عن هذا الحلف وقال: «**لَوْ دُعيتُ به اليومَ لأَجَبْتُ**».

إن هذا الخبر النبوي يؤكِّد لنا أن الأمة الإسلامية يفترض أن لها القيادة والمبادرة في حفظ حقوق الإنسان، لكن إذا لم يكن ذلك فيفترض أن يكون عندها الاستجابة إلى ما قد يدعو إليه الآخرون مما هو من باب الحقوق.

إن المنظمات الحقوقية في الغرب تتكلم كثيرًا عن حفظ حقوق الإنسان، بينما لا تكاد تجد في العالم الإسلامي مَن يتكلم عن هذه الحقوق إلا أن يكون صدى لما يطرح في الغرب، أو ردًّا عليهم، ونحن نؤكد أن الحقوق مسألة أساسية في دين الإسلام، وأنه يفترض أن يكون المسلم هو الداعي ابتداءً والمستجيب لحفظ الحقوق التي تتفق عليها الشرائع والعقول.

❖ مواثيق الحقوق الدولية:

نعم، نحن ندرك أن فيما يسمى بحقوق الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة فقرات تحتاج إلى تصحيح، وقد يكون فيها ما يعارض الدين ونتحفظ عليها، لكن لا يعني ذلك الإطاحة بالمبدأ كله، وإنما يعني تكريس هذه الحقوق والحفاظ عليها، بل أكثر من ذلك أن يعرف الإنسان بحقوقه.

❖ حقوق شرعية للمواطن:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسل إلى الأمصار، يقول: «إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمَن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ،

فوالذي نفسي بيده إذن لأقصنه منه»[١].

فأكد رضي الله عنه على هذا المعنى، وهو معنى تعريف الإنسان بالحق الذي له، وأنه ينبغي أن يتعلمه ويطالب به.

❖ الحقوق والواجبات:

والمطالبة بالحق لا تتحول إلى صراع داخل المجتمعات الإسلامية؛ لأن الإنسان يطالب بحقه بعد أن يؤدي الواجب الذي عليه، فإن هناك انسجامًا بين أداء الحق الذي عليك والمطالبة بالحق الذي لك، وعلى الإنسان أن يكون عادلًا، فيطالب بحقوقه، ولا يبخس الناس حقوقهم.

قد يكون عند البعض شركة فيها ألف موظف، كل واحد من هؤلاء الموظفين يعاني أشد المعاناة من سوء المعاملة من الإدارة أو تأخر الرواتب أو التقصير في العلاج إلى غير ذلك، وهذا الإنسان الذي عنده ألف مظلوم يشتكي هو أيضًا من ظلم الإدارة الحكومية التي يرتبط بها، فإذا كان المجتمع الإسلامي عبارة عن مجموعة من تسلسل المظالم من أعلى المستويات إلى أدناها -وهذا مع الأسف ما نعانيه- فمعنى ذلك أننا أمة ليست جديرة بالمجد والبقاء، لكن عندما يبدأ الناس باستشعار مسؤولياتهم، ومحاولة إقامة العدل وحفظ الحقوق في داخل الأسرة: بين الزوجين، مع الأولاد، داخل الفصل الدراسي، داخل المنشأة أو الإدارة أو الشركة أو المؤسسة، ويمتد هذا الأمر لحفظ الحقوق داخل المجتمع وداخل الدولة؛ فعند ذلك تكون هذه الأمة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٩٢١)، وأحمد (٢٨٦١/ ٤١)، وأبو داود (٤٥٣٧)، وابن الجارود (٨٤٤)، والحاكم (٤/ ٤٨٥) (٨٣٥٦)، والبيهقي (١٥٧٩٦، ١٧٦٢٦).



جديرة بالتمكين والبقاء.

❖ الحقوق في العالم المتقدم:

إن العالم الغربي يتحدث بملء فيه عن الحقوق، ويطبق جزءًا كبيرًا منها، ويجب ألا يمنعنا ما بيننا وبينه من الفواصل العقدية والدينية، من العدل والإنصاف، فالعدل من قيم الإسلام في هذا الجانب، فهم على الأقل عندهم حفظ لحقوق شعوبهم ورعاياهم.

نعم، هم خارج هذه الدول قد يمارسون نوعًا من العنصرية والعدوان، كما ترى في حالات الاستعمار في أوروبا وغيرها.

لكن نحن نريد قيم الإسلام، نريد تطبيق الحقوق داخل العالم الإسلامي، ونريد أبعد من ذلك: أن نكون كما أمرنا ربنا سبحانه حيث يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]. ويقول في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢]. فأمر سبحانه وأكد علينا بالعدل حتى مع أعدائنا.

والسؤال: متى نجد العالم الإسلامي وقد عادت إليه هذه الروح الربانية الإسلامية من العدل وحفظ الحقوق؟! ومتى يتحالف المسلمون أفرادًا وجماعات ومؤسسات على إقامة المؤسسات المدنية التي تحفظ للناس حقوقهم وتعين الفرد المسحوق أو المظلوم على استرداد حقه، وتأخذ على يد الظالم؟! إذا تحقق هذا حفظ الله البلاد والعباد.



وهو أبٌ لهم!



❖ أولى بالمؤمنين من أنفسهم:

يقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

في هذه الآية ينفي الله تعالى أن يكون الرسول أبًا حقيقيًّا لأحد من الناس، أو أن يعلن ذلك بالتبني، فهو رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، أما الأبوة التي تطلق عادة على سبيل المجاز بمعنى أنه في مقام الأب ومنزلته ومكانته ومحبته، فهو ﷺ كان يقول لكثير من المسلمين: «**يَا بُنَيَّ**». كما قالها لابن عباس ولأنس بن مالك رضي الله عنهما، وقد يعبرون هم بلفظ الأبوة كما في قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٦].

قال كثير: هو أب لهم[١]، فالرسول ﷺ أب للمؤمنين جميعًا، لكن هذه الأبوة ليست أبوة النسب ولا أبوة التبني، وإنما هو في مقام الأب في حفظه لهم ﷺ ومحبته وحرصه على مصالحهم ودعائه لهم، كما هو معروف من هديه وسنته ﷺ وخلقه العظيم، ويكفي في ذلك وصف الله عز وجل له في آخر

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٧)، والدر المنثور (٨/ ١٠٩)، (١١/ ٧٢٤).

سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة:١٢٨].

أي: إن الأمر الذي يعنتكم ويحرجكم يعز على النبي ﷺ ويعنته أيضًا: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

إذًا: نفى الله تعالى أن يكون النبي ﷺ أبًا لأحد من الرجال، ولهذا لم يعش أحد من أبناء النبي ﷺ، بل كانوا يموتون دون أن يصلوا إلى سن الرجولة كما هو معروف من موت ولده إبراهيم ﷺ ابنه من مارية القبطية، وموت القاسم، والطيب، والطاهر.

❖ إبطال التَّبَنِّي:

أبطل الله تعالى التَّبَنِّي الذي كان شائعًا في الجاهلية، وهو أن الإنسان إذا ادعى ولدًا أو تبناه أصبح ابنًا له يرثه، فأبطل الله عز وجل ذلك بقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب:٥]. فصار زيد يدعى باسم زيد بن حارثة بعد أن كان يدعى زيد بن محمد، وكان شديد الصلة بالنبي ﷺ، وزوَّجه النبي ﷺ أم أيمن حاضنته، وقد ولدت له أسامة بن زيد، وكان أسامة هو حِب رسول الله ﷺ وابن حِبه، وكان النبي ﷺ يجلسه على فخذه اليسرى، ويجلس الحسن والحسين على فخذه اليمنى، ويضمهم إليه ﷺ، ويعلن محبته له، حتى إن قريشًا لما أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، قالوا: مَن يكلِّم فيها رسول الله ﷺ ؟ قالوا: ومَن

يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ[1].

❖ الحب العظيم.. للخُلُق العظيم:

وهاهنا سؤال يطرح نفسه: زيد بن حارثة لِمَ أحب النبي ﷺ هذا الحب وقدمه على والديه وعلى أهله وعشيرته وجماعته؟ ما الذي حمله على هذا المعنى حتى قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ لقد حمله على ذلك الخلق العظيم الذي كان يتمثل به النبي ﷺ، ولهذا لا غرابة أن يخاطبه ربه فيقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]. ولا غرابة أبدًا أن يلخص النبي ﷺ مقاصد البعثة النبوية بقوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»[2].

إن الفطرة السليمة التي فطر عليها النبي ﷺ في الخلق الطيب هي التي حببت إليه الناس كلهم جميعًا، وجعلت أعداءه يتحولون إلى أصدقاء، ويحبونه ﷺ، بل ويفدونه بآبائهم وأمهاتهم.

لقد جاء عروة بن مسعود في صلح الحديبية، ورأى النبي ﷺ ثم رجع إلى قومه وهو يقول: «والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قَيْصَر وكِسْرَى والنجاشي، والله إن رأيتُ ملكًا قط يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمدًا»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥، ٣٧٣٣، ٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨)، وأبو داود (٤٣٧٣)، وابن ماجه (٢٥٤٧)، والترمذي (١٤٣٠)، والنسائي (٤٨٩٩، ٤٩٠١)، وابن حبان (٤٤٠٢)، والطبراني في الأوسط (٧٤٧٩)، والبيهقي (١٦٩٣٢، ١٧٠٠٤، ١٧٣٩٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٥٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٠)، والبخاري (٢٧٣٤)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٩) (١٣)، والبيهقي (١٨٥٨٧)، وفي الشعب (١٥٢٥).

لما كانت معركة بدر وتقدَّم بعض المسلمين للمبارزة كان منهم: عُبيدة بن الحارث رضي الله عنه الذي قاتل بين يدي النبي ﷺ، وحُمل إلى النبي ﷺ وهو يتشحط في دمه ويقول: «والله يا رسول الله، لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله:

ونُسْلِمُهُ حتَّى نُصَرَّعَ دُونَهُ ونَذْهَلَ عَنْ أبنائِنَا والحَلائِلِ»(١)

لقد كانت دماؤهم تسفك بين يديه ﷺ، وهم يرضون بذلك، ولا يرضون أن تصيب النبي ﷺ شوكة في قدمه.

❖ تعلم أصول الأخلاق:

هذا المعنى العظيم المعبر عن الخلق الفاضل من أهم أسرار شخصيته ﷺ، لقد تقلبت به الأحوال كلها من الغنى والفقر، والقوة والضعف، والصحة والمرض، والغربة والاستقرار، وكل الأحوال التي تجري على الناس كلهم، فكان النبي ﷺ في كل هذه الأحوال مثلًا للخلق الفاضل.

وحالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ

كان النبي ﷺ داعيًا إلى الله عز وجل، ولكن دعوته كانت بالخلق الفاضل، فكان من أهم أسباب قبول دعوته، وإصرار الصحابة رضي الله عنهم في الدفاع عنه والفداء دونه، وقد قال له ربه عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق (٣٨/ ٢٥٩)، وأسد الغابة (٣/ ٥٤٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٣٤)، والبيت في ديوان أبي طالب (ص٦٦).

إن الكثيرين قد يجيدون فن الكلام، والحديث عن الأحكام، والحلال والحرام، والحق والباطل، والخطأ والصواب، والصحيح والفاسد، وهي أمور يحتاج الناس فيها إلى التعليم، لكن الأمر الذي يكون الناس في أشد الحاجة إليه في التعليم هو أن يعلموا أصول الأخلاق التي أجمع عليها الأنبياء ﷺ، وجاءت بها الشرائع السماوية كلها، وامتلأت بها الكتب المقدسة، وآخرها وأكملها القرآن الكريم، الذي حفظ أصول الأخلاق.

إن تعليم الأخلاق ليس من خلال كتب أو تعاريف، فإننا قد نضع لطلابنا مقرَّرًا في الأخلاق يتكلم عن معانيها ودلالاتها وأقسامها، لكن هذا ليس هو المقصود؛ فليست الأخلاق معلومات فقط تصل إلى ذهن الإنسان أو محفوظات يستطيع الإنسان أن يرددها.

الأخلاق سلوك وممارسة وتطبيق، فالمحك العملي لها هو المعيار، وإن من أهم الأشياء التي نحتاج إليها اليوم في مجتمعنا أن نوجد المثل والقدوة؛ لأن الكثيرين حينما يستمعون إلى محاضرة عن الأخلاق كالبر، أو الوفاء، أو الإحسان إلى غير ذلك، تجدهم في النهاية يقولون: هذا كلام طيب جميل لكن العبرة بالتطبيق.

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون مؤثرًا حتى يكون ممتثلًا مطبقًا، وقد قال خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].



أرأيت الذي ينهى..!



❖ وعيد البشر.. ووعيد الله:

جاء في «الصحيح»: قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو يَنْكِص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عُضْوًا عَضْوًا**». قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾: يعني أبا جهل، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾: يعني: قومه، ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ [العلق:٦-١٩]،

وأمره بما أمره به[1].

في هذا الحديث نرى مدى الطغيان والاستبداد الظاهر من أبي جهل للنبيﷺ، فماذا الذي يعنيه من أمر محمد ﷺ أن عفر وجهه أم لم يعفر؟! إنها الروح الطاغية الآثمة المستبدة التي لا ترضى أبدًا بمعاني الصفاء والنقاء، فيهدد النبي ﷺ إن رآه أن يطأ على عنقه برجله النجسة، وحاشا لله أن يقع هذا، فإن النبي ﷺ محفوظ بحفظ الله تعالى، فيبتليه الله تعالى بهذا الأمر، فيهرب، وينفضح أمام قومه، ويضطر -وقد رأوا المشهد بأعينهم وسجلوه- أن يعترف بأنه رأى بينه وبين النبي ﷺ خندقًا من نار وهولًا وأجنحة، وأنه لو دنا منه لوقع فيه واحترق، والعجب كل العجب من تسجيل القرآن لهذه القصة بهذا السياق العجيب الرهيب: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ [العلق:٩]. حيث لم يسم الله تعالى من هو هذا الذي ينهى، إنه أبو جهل فرعون هذه الأمة، ومع ذلك طوى اسمه؛ لأنه ليس المقصود الحديث عن شخص بعينه، وإنما المقصود الحديث عن ظاهرة.

❖ العبودية صلاة:

يقول سبحانه: ﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:١٠]. وصف الله تعالى رسوله بلفظ العبودية في إشارة إلى أنها من أرقى المعاني والصفات، فإن أجمل ما يوصف به الإنسان أن يكون عبدًا لربه سبحانه الذي خلقه فسواه فعدله، ولهذا كان

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨١٧)، ومسلم (٢٧٩٧)، وأبو يعلى (٦٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٣)، وابن حبان (٦٥٧١)، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٩)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٥٦، ١٩٢)، وتاريخ الإسلام (١/ ١٥٢)، ومختصر السيرة لابن عبد الوهاب (ص:٨٣)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ١٤٥).

الفضيل بن عياض رحمه الله يقول:

ومِـمَّـا زَادَنِـــي شَرَفًـــا وتِيـهًا	وَكِدْتُ بِأخْمُصي أطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبادِي	وَأنْ صَيَّـرْتَ أَحْمَـدَ لِي نَبِيًّا

فهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾. يعني: كيف ينهى عبدًا أن يصلِّي لله سبحانه وتعالى ؟! مع أن المقام يستدعي أن يعطى الإنسان حقه وحريته في أن يعبد ربه عز وجل، فهو لم يخطئ، وإنما عبد ربه سبحانه وتعالى، ولهذا يقول الله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [العلق:١١]. وهذا أيضًا أسلوب بليغ ورفيع وعظيم في الحوار والحجة، ما قال سبحانه مثلًا: إنه كان على الهدى، ولكن قال: ﴿ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ يعني: افترض أنه كان على الهدى.

فإذا وضع هذا الاحتمال عندك؛ هل يليق أن تقوم بمثل هذا العمل؟ أو أن تواجهه بمثل هذه الطريقة؟ أو أن تحرمه حقه؟ ثم قال بعد ذلك: ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ [العلق:١٢]. إن كان ما يأمر به ﷺ من التقوى وطاعة الله سبحانه وتعالى.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:١٣]. يعني: ذلك الرجل الآخر أصر وعاند.

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤] ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠]. لقد علم ربنا سبحانه وتعالى أن أبا جهل يموت على الكفر والضلال، ويقتل شر قتلة في معركة بدر، فقد خرج محادًّا لله ورسوله، رياءً وفخرًا، وسمعة وعجبًا، فأذن الله عز وجل أن يعقر في مكانه وأن يقتل، بل ورد أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه وهو يحز رأسه: «لقد ارتقيت يا رُوَيْعي الغنم

مرتقًى صعبًا»[1].

علم الله عز وجل أن هذا الرجل يموت على هذا الحال، ومع ذلك تجد لغة القرآن، اللغة المربية الراقية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠].

فلم يسمه الله عز وجل إشارة إلى أن الإسلام ليس دينًا لصناعة المعارك مع الأشخاص، وإنما الإسلام دين للرقي بالإنسان ولصناعة الأخلاق والقيم وصناعة الروابط الاجتماعية بين الناس.

❖ الدين ليس لجر النواصي:

هذا المعنى العظيم والراقي يجب أن نقرأه في هذا السياق، كما نقرأ آلاف الحالات التي نجد فيها أن النبي ﷺ حين قام في قومه ودعاهم إلى الله والتوحيد، واجه الكثير ممن كفر وحارب الدعوة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ كان في غاية الصبر عليهم، وفي غاية الحلم وحسن الاستقبال لمَن آمن منهم، فلم ينقل أن النبي ﷺ حينما كان يدخل الرجل منهم في الإسلام يعقد له محضرًا، أو جلسة، ويحاسبه على ما سبق منه، بل إن من العجب أن النبي ﷺ وأصحابه لما هاجروا من مكة إلى المدينة تركوا بيوتهم وأموالهم وديونهم عند الناس، وخرجوا مهاجرين إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، واستولى عليها المشركون،

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٣٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٨٦)، والمنتظم (٣/ ١١٦)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٤)، والروض الأنف (٣/ ٨٠)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٨٨، ٢٩٦)، والسيرة الحلبية (٢/ ٤١٩).

فاعتبر النبي ﷺ أنهم تركوها لله وخرجوا منها في سبيل الله، فلما رجعوا إلى مكة وفتح الله تعالى هذا البلد الطيب على رسوله ﷺ لم يأخذ من المشركين شيئًا من الأموال التي كانت عندهم، ولم يحاسبهم على ما مضى بعدما دخلوا في دين الله عز وجل.

يقولون في المثل الأجنبي: «ابنِ للعدو الهارب جسرًا». يعني: إذا ولَّى عدوك هاربًا منك فلا تحاول أن تمنعه من الهرب أو تحيط به، بل ابنِ له جسرًا ودعه يهرب، فالحياة ليست تصفيات بشكل دائم؛ الحياة فيها قدر كبير من التسامح وغض الطرف، وفيها قدر كبير من الحلم والصفح، بهذه المعاني يستطيع الناس أن يتعايشوا فيما بينهم، فالتعايش له قوانين هذه من أعظمها وأهمها، فليس التدين والدخول في الإسلام يعني جر النواصي، ومصادرة إنسانية الناس وكرامتهم، بل يجب أن يفهم الناس أن دخولهم في الدين يعني لهم المزيد من الكرامة والحرية، والعدل والإنصاف.

❖ الحفاظ على كرامتهم ومكاسبهم:

لما فتحت مكة أمر النبي ﷺ مَن ينادي: **«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُو آمِنٌ»**[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣٩)، وابن أبي شيبة (٣٦٩٠٠، ٣٦٩٢٣)، وأحمد (٧٩٠٩، ١٠٩٦١)، ومسلم (١٧٨٠)، وأبو داود (٣٠٢١، ٣٠٢٢)، والنسائي (١١٢٩٨)، والبزار (١٢٩٢)، وابن حبان (٤٧٦٠)، والطبراني في الكبير(٦٤١٩، ٧٢٦٧)، والدارقطني (٣/ ٦٠)، والبيهقي (١٠٩٦١، ١٨٠٥٣، ١٨٠٥٦، ١٨٠٥٧).

كانت دار أبي سفيان أصغر من أن تتسع للناس، وقليل هم الذين سيدخلونها، وقد فتح لهم الرسول ﷺ المجال أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوا عليهم أبوابها، أو يأتوا إلى المسجد الحرام، لكن كان ذكر أبي سفيان حينئذ من تأليف قلبه على الإسلام، والحرص على ألا يشعر أن دخوله في الدين يعني الإطاحة بمجده، أو بمكانته، أو زعامته القبلية، وهذا معنى مهم جدًّا يجب أن يفهمه الناس، أن دين الله عز وجل ليس نقيضًا للنجاح الذي حصلوا عليه، وأن الدخول فيه والتزام السنة لا يعني تقويض النجاحات التي حصلوا عليها.

أحيانًا تسمع مَن يقول: إن هذا الإنسان الذي كان على خطأ ثم رجع عنه يجب أن يعلن على الملأ توبته أنه كان على خطأ ثم رجع عنه.

وهنا سؤال: لماذا يعلن على الملأ أنه كان على خطأ ثم رجع عنه؟ إذا كان هذا الإنسان قد هداه الله تعالى إلى حق كان غائبًا عنه، وأصبح يؤمن به ويدعو إليه، ويدين ويعتقد بمضمونه، فهذا الأمر فيه كفاية، وليس من الرشد أن نفرض المزيد من الحواجز بين الناس وبين الدخول في الإسلام، أو بين الناس وبين الدخول في السنة؛ لأن النبي ﷺ لما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله**

افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ»[(١)].

❖ الدعوة تدرج:

نلاحظ هنا التدرج من النبي ﷺ وهو يلقِّن داعيه معاذًا رضي الله عنه مراتب الدعوة في اليمن، فيحدِّثه أن القوم أهل كتاب، سواءً كانوا من اليهود أو من النصارى، فعندهم كتاب سابق، فليدعهم أولًا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا آمنوا بها أخبروا بالصلاة، فإذا آمنوا بها أخبروا بالزكاة، أما أن يقدم له مجموعة متكاملة من الحقائق الدينية والمعلومات والشرائع والأخلاق دفعة واحدة، فهذا قد لا يكون مساعدًا للإنسان على تقبلها.

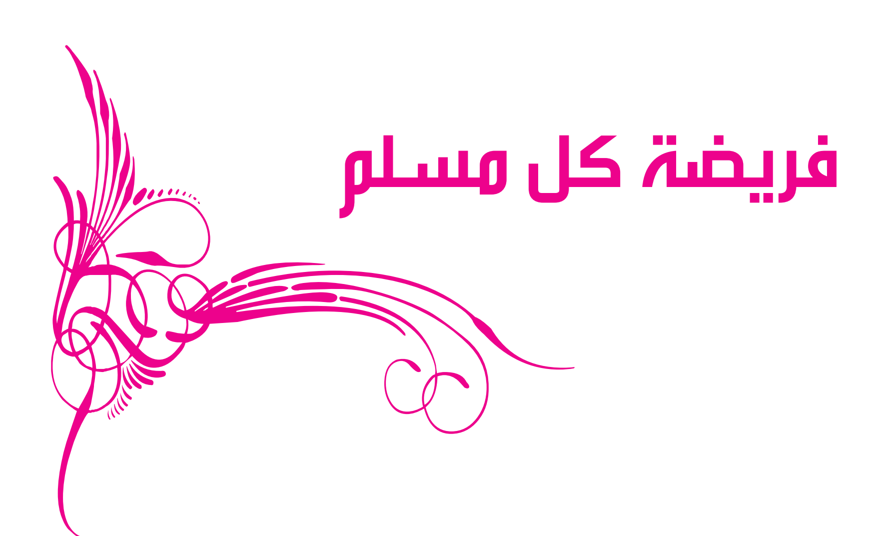
إن انتقال الإنسان من حال إلى حال دفعة واحدة أمر صعب على النفوس، بينما إذا كانت النقلة متدرجة، فإن هذا الأمر أسهل وأدعى للقبول.

إذًا: ينبغي أن نسعى إلى أن تكون أبواب الإسلام مشرعة في وجوه الناس جميعًا، وأن نكون ممن يدعو الناس إليها ويسهل إليهم الدخول فيها، لا أن نضع العقبات والعراقيل أمامهم بعلم أو بغير علم.



(١) أخرجه أحمد (٢٠٧١)، والبخاري (١٣٩٥، ١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩)، وأبو داود (١٥٨٤)، وابن ماجه (١٧٨٣)، والترمذي (٦٢٥)، والنسائي (٢٤٣٥، ٢٥٢٢)، وابن خزيمة (٢٢٧٥، ٢٣٤٦)، وابن حبان (١٥٦، ٢٤١٩، ٥٠٨١)، والطبراني في الكبير (١٢٢٠٧)، وفي الأوسط (٢٧٨٩)، والبيهقي (٧٠٦٨، ١٢٩٠٧، ١٢٩١٥)، وفي شعب الإيمان (٨٨، ٣٢٩٢).

فريضة كل مسلم



❖ قبل البعثة:

لحظة تاريخية كبيرة تكتب في تاريخ الإنسانية كلها بخط أبيض لماح، كالشعاع في إشراقه وضوئه، إنها لحظة النبوة.

ذِكْرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلْقَتْ فِي فم الْغارِ   وَحْيًا وَجاءَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ
ذِكْرَى النُّبوَّةِ طَافَتْ فِي الدُّنَا سِحْرًا   وَأَعْلَنْتُ فِي الرُّبَى مِيلادَ أَنْــوَارِ [(١)]

كان النبي ﷺ قبل البعثة يخرج كل عام إلى غار حراء فيتحنث ويتعبد الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى منزله فيتزود بمثلها.

هذا النبي الكريم المختار في زمن الجاهلية اختاره ربه وحماه وحفظه، فلم يأت شيئًا مما كان يأتيه أهل الجاهلية، ولم يصح عنه ﷺ أنه تمسح بصنم، ولا طاف به، ولا ذبح له، ولا حضر أماكن اللهو التي كان شباب مكة يرتادونها، ولم يشاركهم سهراتهم التي كانوا يحيونها.

لقد كان ﷺ أطهر من الطهر، وأصفى من الصفاء، وأنقى من النقاء، كانت فطرته ﷺ تأبى كل ما لا يتفق مع هذا المعنى الجميل الكريم.

---

(١) للشاعر: عبدالله البردوني.

لقد حفظه ربه وأعده، فها هو ﷺ يستشعر معنى الألوهية، ويخرج ويبتعد عن الناس فيما يشبه الاعتكاف، فيجلس في غار حراء الليالي ذوات العدد، يعبد ربه على دين الحنيفية، يصلي ويسبح، ويستغفر ويذكر ربه عز وجل، وفق ما كان يستطيع آنذاك.

كان محمد ﷺ يذهب حثيثًا إلى هذا الغار، ويمكث فيه بعيدًا عن الناس، يناجي ربه، ويجدد صفاء قلبه، ويبتعد عن ضوضاء الحياة، فلم يكن يروق له ما في مكة من عبادة الأوثان التي كانت تحيط بالكعبة، ومن الوثنية والأخلاق المنحطة، ومن الظلم والعدوان، فكان يفر من هذا أيامًا معدودات، ويظل يتعبد ويتحنث في غار حراء بعيدًا عن الناس.

❖ مفاجأة على غير انتظار:

بينما هو ﷺ على هذه الحال في الغار إذا به يتفاجأ ﷺ بمَن يقتحم عليه عزلته، وفي منظر رهيب، إنه ليس بشرًا من البشر، إنه ملك كريم، جبريل ﷺ، فيراه النبي ﷺ ولأول وهلة وهو لا يعرفه، ففزع منه النبي ﷺ، فقال له: «**اقْرَأْ**». فرد عليه النبي ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». أي: أنا لا أقرأ.

لقد كان النبي ﷺ أميًّا، لا يجيد القراءة ولا الكتابة، وهذا من حفظ الله وتأييده لرسوله ﷺ، فقد علم الله أن المشركين وأعداء هذا الدين سوف يثيرون الزوابع، فحفظ نبيه بالأمية.

إن أمية الرسول قضاها الله عن حكمة لها بينات
كل أمية سواها يسيح الجهل فيها وتسبح الظلمات

يقول الله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت:٤٨].

لقد قال ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». أي: إنني لا أقرأ ولا أحسن القراءة، فأخذ جبريل النبي ﷺ وغطه وضغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أطلقه وأرسله، وقال له مرة أخرى: «**اقْرَأْ**». فقال النبي ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». ففعل به الثالثة مثل ذلك، ثم قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]. فقرأها النبي ﷺ ثم رجع بها إلى خديجة رضي الله عنها ترجف بوادره.

عاد ﷺ خائفًا مذعورًا، وهو يقول: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**». فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**». فتزمله وتدثره وتحنو عليه، وتقول له بلهجة المبشر المطمئن: «والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(١).

❖ الأمر الأول: اقرأ:

وهنا يأتي سؤال كبير: ما معنى أن تبدأ الرسالة بهذا الأمر: (اقرأ)؟ إن أول أمر ينزل من السماء إلى محمد ﷺ يخاطبه بالقراءة، فمن هذا المنطلق قال

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧١٩)، وأحمد (٢٦٠٠١)، والبخاري (٤، ٤٩٥٤، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠)، والحاكم (٣/ ٢٠٢)، وابن حبان (٣٣)، والبيهقي (١٧٤٩٩)، وينظر: تاريخ الطبري (١/ ٥٣١)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٦)، والبداية والنهاية (٣/ ٢)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ٨٤).

العلماء: إن أول واجب على المكلفين هو العلم: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩].

إن الحياة كلها لا تصلح إلا بالعلم، فنحن أمةٌ العلمُ أساس حركتها ونهضتها، والعلم أساس العبادة، والعلم أساس العمل والتجارة، والعلم أساس الجهاد والسياسة، والعلم أساس العلاقة الاجتماعية، بل هو المنطلق في جميع المجالات.

إنني أعجب أشد العجب وأقف كثيرًا عند هذا المعنى السهل والعظيم في الوقت ذاته، أن أمة (اقْرَأْ) أصبحت اليوم في ذيل القافلة، وفي آخر الأمم في تحصيلها العلمي وعنايتها بالمعلومات، ففي عصر انفجار المعلومات والتقدم التقني والعلمي المذهل الذي يأتينا في كل ثانية بالمزيد من المعلومات والحقائق والنظريات الهائلة، والتي بموجبها أصبحت أمم الغرب تتقدم العالم وتسيطر على كثير من مقدراته وإمكاناته، وأمة (اقْرَأْ) لا زالت في آخر القائمة.

كم هو محزن أن تجد المواطن في أوروبا أو في اليابان ينتظر الحافلة وهو يقرأ، وإذا ركب من مكان إلى آخر يحتضن كتابًا قد يكون بضع مئات من الصفحات ويدفن رأسه فيه، كم هو محزن ذلك وأنت ترى أمة: (اقْرَأْ) لا تلقي للقراءة بالًا، ولا تعيرها اهتمامًا.

كثيرًا ما أسأل نفسي وأسأل غيري: كيف تفوقت أمم ليس عندها كلام مقدس يأمرها بالقراءة ويجعل القراءة حتمًا عليها؟! في حين يقول ربنا سبحانه في أول آية نزلت في كتابه: (اقْرَأْ). وهذا أول الأوامر التي وجهت إلى الأمة؛ فما معنى أن نتخلى نحن عن هذه القيمة الربانية المقدسة، والأمر

الموجه إلينا؟!.

❖ طلب العلم فريضة:

حين يقول ﷺ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، نلاحظ أنه ﷺ لم يقل: على كل مسلم ومسلمة. لأن كلمة مسلم تشمل الذكر والأنثى، فالذكر والأنثى على حد سواء في أصل التكليف والمساءلة، والمطالبة بالتحصيل والمعرفة والعلم.

إن الغرب ليس عندهم كتاب مقدس أول نصوصه (اقْرَأْ)، لكنهم أدركوا بفطرتهم وبتجاربهم أن القراءة ضرورية للحياة، فقرؤوا وتفوقوا، بينما أمة الإسلام التي عندها الكتاب المقدس الذي يأخذ بيدها ويدلها لا تزال تسبح في بحار الجهالات والظلمات والبعد عن المعرفة.

❖ علوم الطب:

يطول العجب حينما تسمع قول النبي ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ عز وجل دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[2]. وفي بعض الألفاظ: «**إِذَا**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٧)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١٥). وينظر: جزء فيه طرق حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» للسيوطي.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٧٨، ٣٩٢٢، ١٨٤٧٩)، والنسائي (٤/ ١٩٤)، وابن حبان (٦٠٦٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٣١)، وفي الأوسط (٢٥٣٤، ٧٠٣٦)، والحاكم (٤/ ٢١٨، ٤٤١، ٤٤٥)، والبيهقي (١٩٣٤٤).

وأصل الحديث في: صحيح البخاري (٥٦٧٨)، وسنن ابن ماجه (٣٤٣٨، ٣٤٣٩) بلفظ: «**ما أنزل الله من داء إلَّا أنزل له شفاء**».

أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عز وجل»[1].

هذا الحديث يوحي للإنسان أن أي مرض له دواء، وليس هناك شيء يستعصى علاجه، حتى الأمراض التي ما زال العلم حائرًا دون الوصول إلى علاجات حاسمة لها، فإن الحديث يدل بشكل قاطع على أن لها علاجات، لكن متى يستطيع الناس اكتشافها؟

أعتقد أن هذه الإشارة النبوية العظيمة توجيه للمسلمين ليبحثوا في الطب والعلاجات والأمراض، وأشياء كثيرة جدًّا من مقتضيات الحياة الإنسانية على ظهر هذه الأرض.

إن الكلام ليس في الطب فقط، بل جميع ألوان العلوم الدنيوية في الكون وقوانين الطبيعة التي وضعها الله تعالى في الكون وسلطنا عليها، ومنحنا العقول القادرة على الاكتشاف والتوظيف، أين المسلمون منها؟ لماذا تكون هذه العلوم حكرًا بأيدي أمم الغرب، والمسلمون بعيدون عنها؟! هل يجوز أن نقول: إن الغرب يحرمنا من العلم أو من التقنية؟

إن هذا الكلام غير مقبول أبدًا، فإن الغرب حتى لو حرمنا منها فإننا نستطيع أن نصل إليها، فهذه اليابان التي خرجت من حرب عالمية مكسورة مهزومة، استطاعت أن تتجاوز كثيرًا من الصعاب، وتصل إلى مستوى من العلم والتقدم عظيم، بل وتنافس أقوى أمم الأرض اليوم رغم أن الغرب لو استطاع لحجب عنها هذه التقنية.

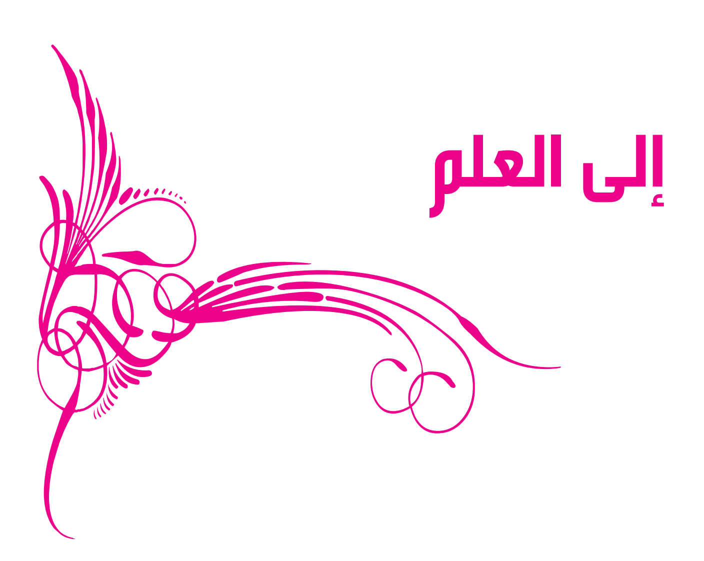
---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، ومسلم (٢٢٠٤)، وأبو يعلى (٢٠٣٦)، والنسائي في الكبرى (٧٥٥٦)، وابن حبان (٦٠٦٣)، والحاكم (٤/ ٤٤٥)، والبيهقي (١٩٣٤٢).

إن الأمر كما قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].
وحينما تتوفر الإرادة الصادقة لدينا في تحصيل العلوم، ونستشعر معنى أن يكون أول أمر رباني لنبينا ولنا نحن من ورائه: (اقْرَأْ) سوف نستطيع أن نصل إلى هذه العلوم ونمتلك ناصيتها.



إلى العلم



❖ العلم المؤمن:

يقول الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١]. كان هذا هو النداء العلوي الأول في أذن الرسول ﷺ، وهنا نلاحظ أن الله تعالى حينما أمر بالقراءة ربطها باسمه العظيم فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾.

إذًا: هذا العلم الذي يدعو إليه ربنا سبحانه ليس علمًا ماديًّا منفلت الضوابط، ليس علمًا يبرز عند الإنسان التمرد على الله سبحانه وتعالى وعلى آياته ورسله، ليس علمًا يدعو إلى تدمير الحياة البشرية، أو التلاعب بها مما يأتي بمردود عكسي على الإنسان ذاته، ليس علمًا يدعو إلى اختراع المزيد من الأسلحة الذكية والمدمرة التي تقضي على الإنسان، وربما تحافظ على المباني والمنشآت، بينما تقوم بتدمير الإنسان الذي هو سيد هذه المخلوقات، مع أن المفترض أن يكون السعي لحمايته، وأن يكون الانطلاق لرفاهيته لا لتدميره والقضاء عليه.

إن العلم المنطلق من الشريعة والدين هو علم لمصلحة الإنسان ولرفاهيته

ولتقريبه من ربه عز وجل، ولقد رأينا الإنسان الذي حصل على العلم بعيدًا عن هداية السماء كيف استطاع أن يصل إلى الفضاء، وأن يضع قدمه على القمر دون أن يستطيع أن يعرف طريقه في الأرض، وكيف أن هذا الإنسان أصبح يفر من ذاته، وأصبحت أعلى نسبة للانتحار والدمار، والكآبة والبؤس توجد في أكثر بلاد العالم تقدمًا ورفاهيةً، ورقيًّا في المستوى الاقتصادي والمادي ودخل الفرد.

حينما يرتبط العلم بالله سبحانه وتعالى يكون علمًا نافعًا للإنسان، سواء في أموره الدنيوية ومصالحه العاجلة أو في ربط قلبه بربه عز وجل، حيث إن هذا العلم ليس تمردًا على الله كما تعتقد الأساطير اليونانية، التي تعتبر أن الإله -كما يزعمون- قد خزن العلم وحرم الناس منه، وأن الناس استطاعوا أن يكسروا هذه الخزائن ويحصلوا على العلم، فكأن حصولهم على العلم تمرد على إرادة الرب، بينما في شريعة الإسلام نجد النقيض تمامًا، فربنا سبحانه هو الذي يأمر الإنسان بالعلم، ويسلطه على هذا الكون، ويحثه على استخراج آياته وعبره، ونواميسه وقوانينه، والانتفاع بها وتوظيفها لخدمته.

❖ توظيف العقل:

لقد خلق الله الإنسان وهو لا يعلم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨].

فالإنسان يولد لا يعلم شيئًا، لكنه مزود بآلة اكتشاف العلم؛ مزود بالعقل وبالحواس التي تستقبل هذا العلم الرباني المتمثل في الوحي، والذي يعتبر

من أهم مصادر المعرفة.

إن العقل قد يهدي الإنسان إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، لكنه لا يهديه إلى معرفة تفاصيل الألوهية، وصفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه، وحقه على عباده، فضلًا عن عبادة الله من صلاة وصيام، وزكاة وحج وعبادات وغيرها.

فيتلقى العقل عن طريق الوحي من الأدلة والحقائق ما يثبت للإنسان العاقل صدق ما جاء به الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

كما أن العقل يستقبل من خلال الحواس الأمور المتعلقة بالكون، ويستفيد منها ويوظفها بطريقة صحيحة، فضلًا عن التفكير والنظر، والتحليل والتجارب والخبرات التي يحصل عليها، فالله تعالى خلق الإنسان لا يعلم شيئًا، ثم جعل له السمع والبصر والفؤاد ليتحقق له الإدراك والعلم، ولهذا قال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾ [العلق:١-٢].

❖ تكرار القراءة:

يقول تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق:٣-٥]. إن الله كرر الأمر بالقراءة مرة أخرى وفي السياق ذاته وفي اللحظة ذاتها لأهداف ومقاصد سامية:

أولًا: لئلا يظن أحد أن القراءة مرحلة وتنتهي، فنحن نجد بعض المتعلمين يرون أنهم وصلوا إلى مستوى معين من العلم والقراءة ثم يتوقفون بعد ذلك، بينما العلم يتجدد باستمرار، والمرء محتاج إلى تحديث معلوماته وإضافة الجديد إليها يومًا بعد يوم، فكل يوم تخرج معلومات جديدة، وتؤلف كتب

جديدة، وتكون هناك نظريات وأفكار تحتاج إلى أن يطلع الناس عليها، وأن يدرسوها ويخبروها، ويعرفوا حقها من باطلها، وغثها من سمينها.

إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، وهنا نتذكر قول الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. والعلم عبادة، بل هو من أعظم العبادات، حتى قال الإمام مالك رحمه الله: «طلب العلم أفضل من نوافل العبادة لمَن صحت نيته».

كان الإمام أحمد رحمه الله يتنقل بين الدروس وهو كبير السن ومعه القلم والورق يكتب العلم، فقيل له: هذا على حين ساعتك؟! أي: من كبر السن، فقال رحمه الله: «مع المحبرة إلى المقبرة»[(١)].

لم يكونوا يعتبرون الانشغال بالعلم مرحلة وقتية، أو فترة خاصة، وإنما هو قضية العمر كله، كما قال الإمام أحمد: «مع المحبرة إلى المقبرة». أما فكرة أن يكون الإنسان قد تخرج من الجامعة أو حتى أخذ شهادة الدكتوراه، ثم يعتبر أن عمره في العلم انتهى بعد ذلك، فهذا خطأ كبير، ولذلك كرّر الله تعالى الأمر بالقراءة فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١]. ثم قال: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ [العلق:٣-٤].

ثانيًا: الأمر بتكرار القراءة إشارة إلى أهمية الضبط والاستذكار؛ لأن الإنسان إذا قرأ مرة واحدة قد لا يستوعب المعلومة، فيحتاج إلى أن يكررها مرة أخرى، ولهذا كان بعض الحكماء يقول: «لأن أقرأ كتابًا واحدًا ثلاث مرات أحب إلي من أن أقرأ ثلاثة كتب مرة واحدة».

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس (ص:٤٠٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٥٨).

وبعض العلوم تحتاج إلى تكرار، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴾ [الملك:٣]. ثم قال: ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ [الملك:٤]. فأحيانًا تكرار الملاحظة والقراءة يثبت ويرسخ المعلومات.

ثالثًا: الأمر بالتكرار من معانيه أن القراءة الأولى لك، والقراءة الثانية للناس. يعني: تقرأ المرة الأولى لتتعلم ولتعرف ما هو الواجب عليك، وربما لتستمتع مجرد المتعة بالعلوم، أما القراءة الثانية فأنت تقرأ للناس؛ تقرأ لتعلم ولتوجه.

ليس المسلم أنانيًا، همه أن يحصل لنفسه، بل هذه المعلومات التي حصل عليها يحب أن ينشرها وأن يشيعها في الآخرين، ولهذا نجد الأمر بالدعوة إلى الله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل:١٢٥]. إشارة إلى أن هذا العلم الذي حصل عليه الإنسان ينبغي أن يحول إلى وسيلة لنفع الآخرين، وإشاعة روح الإيمان والعلم عندهم، ولهذا كان أصحاب محمدﷺ كالمصابيح في الدنيا كلها، لم يتقوقعوا في مدينتهم أو جزيرتهم، بل انظر إلى قبورهم تجدها في تركيا.. في العراق.. في الشام.. في مصر.. في فلسطين.. في أنحاء العالم كله، تجد هذه القبور قد توزعت هنا وهناك.

إذًا: الأمر بتكرار القراءة إشارة إلى أن الإنسان يقرأ لنفسه أولًا ثم يقرأ لغيره ثانيًا.

❖ العلم والإيمان:

إن هذا المعنى العظيم المتمثل في هذه السورة التي هي أول ما نزل من القرآن الكريم يجب على المسلم ألا يتجاوزه دون أن يحاسب نفسه عليه:

إلى متى سنظل نعتبر مثل هذه المعاني مجرد متعة؟ متى تتحول هذه المعاني العظيمة إلى برامج لحياتنا فنشعر بقداسة القراءة وقداسة العلم؟

إن حقًّا على كل واحدٍ منا أن يتعلم، وأن يربِّي طفله الصغير على القراءة منذ نعومة أظفاره، فالطفل الذي يرى أمه تلاعبه والكتاب في حجرها، أو يرى أباه إلى جواره وهو يقرأ، هذا الطفل سوف يصنع المستقبل، أما إذا ظللنا في جفوة مع الكتاب فسنظل نتحدث كثيرًا عن العلم لكن دون أن نحصل منه على شيء.

فيا أيها المسلم، يا أيتها المسلمة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥]. قربك من ربك بالقراءة، ولا تنس أبدًا أن هذه السورة ختمت بقوله سبحانه: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩]. فالعلم مرتبط بالإيمان، العلم طريق إلى العبادة، وإلى رضوان الله، العلم طريق إلى الجنة، وبغير العلم لن نصنع دنيا ولن نصلح دينًا، فأول ما يجب علينا هو أن نتعلم لنقيم دنيانا ونصلح ديننا.



أمسك عليك لسانك



❖ صور الحصار والاضطهاد:

في مكة المكان الطيب الطاهر المبارك كان سيدنا محمد ﷺ يرسم البدايات الأولى لهذه الدعوة العظيمة، هذا الإشراق النوراني الإيماني من هذا البلد العظيم كانت قاعدته أخلاقية، ولو قدر لك أن ترى وتتجاوز حدود الزمان، وترجع ألفًا وأربعمائة سنة إلى الوراء لتشاهد ما كان يدور في الفناء المحيط بالكعبة، لرأيت النبي ﷺ ساجدًا، فيتآمر المشركون عليه، ويأتي أحدهم فيضع سلا الجزور على ظهره ﷺ، فيظل ساجدًا لا يجرؤ أحد على أن يزيل هذا القذر عن ظهره الطاهر ﷺ، حتى تأتي فاطمة بحكم بنوتها له وصغر سنها فتجرؤ وتزيل عنه الأذى، وبعد أن ينتهي النبي ﷺ من صلاته يرفع يديه إلى السماء قائلًا: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْش؛ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وعمارة بن الوليد**». قال عبد الله بن مسعود وهو شاهد القصة وراويها:

فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القَلِيب قَلِيب بدر[1]. قتلوا واحدًا واحدًا، وجروا إلى قليب بدر، فألقوا فيه ميتين على الكفر، والإصرار على الظلم والعدوان، ومحاربة الله ورسوله.

النبي ﷺ يلاقي مثل هذا الأمر، فلا ينتقم بل يصبر ويصابر، ويرسم المثل الأخلاقية.

كانت مرحلة وانتهت وتجاوزها الناس، وأصبحت تاريخًا يطوى أو يروى، ولكن هؤلاء القوم الذين حاربوا الدعوة وأرادوا أن يطفئوا نور الله عز وجل ماتوا على الكفر والشرك.

هؤلاء أرادوا أن يقتلوا النبي ﷺ، وتآمروا عليه، بل قتلوا مَن قتلوا من أصحابه، كما قتلوا سُميَّة وياسرًا، وعذبوا عمارًا وبلالًا، وآذوا المؤمنين، وطردوهم من مكة، ولاحقوهم في الحبشة، وخططوا لاغتيالات جماعية تشمل شخص النبي ﷺ بأبي هو وأمي، وحاولوا أن يحوطوا الدعوة بسور حديدي، فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل في المناسبات والأسواق والحج، وكان خلفه أبو لهب عم النبي ﷺ، وأقرب الناس إليه يلاحقه ويقول

(١) أخرجه أحمد (٣٧٢٢، ٣٩٦٢)، والبخاري (٢٤٠، ٣١٨٥، ٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤)، وأبو داود (٢٦٨١)، وأبو يعلى (٥٣١٢)، والنسائي (٣٠٧)، وابن خزيمة (٧٨٥)، وابن حبان (٦٥٧٠)، والبيهقي (١٧٥٠٧)، وينظر: سيرة ابن إسحاق (٤/ ١٩٢)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٢٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٧٩-٢٨٠)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٤٦)، وتاريخ الإسلام (١/ ٢١٧)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٤)، (٦/ ١٧٠، ٢٦٢-٢٦٣)، وصحيح السيرة النبوية (ص:١٤٦).

للقبائل: لا تصدقوه، لا تقبلوه، نحن قومه وأعرف به[1]. والنبي ﷺ كالجبل الأشم في صلابته، وإصراره، وهدوئه، ومعالجته للموقف بأقوى ما يكون من الصبر والأناة.

❖ لا تسبوا الأموات:

إن الأمر الذي كثيرًا ما أقف عنده مستغربًا ومستعظمًا أن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه ويوصيهم كما في «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[2]، وفي لفظ: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ**»[3]. هذه هي النبوة، هذا هو الصدق، هذه هي القيم الحقيقية التي تتمثل في بشر من لحم ودم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتعاملون مع الناس، لكن بهدي السماء، إن هؤلاء الأموات ماتوا على غير الإسلام، وتاريخهم ينطق بالعداء لله وللرسول، ومن هؤلاء الأموات من آذوا شخص الرسول ﷺ، بل من هؤلاء الأموات مَن ماتوا بسيف الإسلام، ومع ذلك فإن وصية النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ**».

إن لهؤلاء الأموات أولادًا وإخوة، وزوجات وبنات وأقارب، هداهم الله تعالى وأسلموا وآمنوا، لكن الحديث عن آبائهم وأجدادهم يؤذيهم، ولا شك

---

(١) ينظر كتاب: «هذا رسول الله ﷺ» (٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٥٠٩)، والبخاري (١٣٩٣، ٦٥١٦)، والنسائي (١٩٣٦)، والحاكم (١/ ٥٤١)، والبيهقي (٦٩٧٩)، وفي شعب الإيمان (٦٦٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٢٣٤، ١٨٢٣٥)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، والطبراني في الكبير (٧٢٧٨)، (٢٠/ ٤٢٠) (١٠١٣).



أن استبقاء الأحياء أهم وأعظم.

في ذم الأموات ضرر كبير على الأحياء من المسلمين وإيلام لهم؛ حتى لو كان إيلامًا لأمر فيه حق لكنه ليس من متطلبات الشرع، وليس إيلامًا بإقامة حد من حدود الله لا بد منه، وإنما هو إيلام بأمر يمكن السكوت عنه.

❖ التعبد بالسب:

إذًا: لو أن شخصًا مات وهو لم يذكر فرعون أو هامان أو قارون بسوء إلا أن يقرأ كتاب الله تعالى لم يضره، ولو أن شخصًا قضى قدرًا كبيرًا من عمره في سب فرعون ولعنه، فإنه لا يكتب له بذلك أجر، فالسب واللعن ليس مما يؤجر عليه العبد، وإن كان المؤمن يعلم من نصوص القرآن والسنة أن هؤلاء على ضلال وكفر وشرك، لكن ليس المقصود الاشتغال بأعراض الناس.

إن هذا المعنى مهم وعظيم، فقد ابتُلي الكثير من الناس اليوم بالوقيعة في الآخرين، ووجدوا مادة دسمة في النيل من الأعراض، وبعضهم قد يخرج ذلك إخراجًا شرعيًّا دينيًّا، فيظهر بأنه في سبيل محاربة البدعة، أو محاربة الانحراف، أو تحليل التاريخ.

إن هذا الكلام والقيل والقال يزيد المسلمين تفرقًا وشتاتًا واختلافًا، ويوغر الصدور، ويجعل الكثير من الناس يشتغل بعيب الآخرين بدلًا من أن يشتغل بتكميل نفسه وبنائها.

لقد كان الذين يتكلمون في الجرح والتعديل في السنة النبوية رجالًا بمواصفات خاصة، يتكلم أبو حاتم.. أبو زرعة.. البخاري.. أحمد بن حنبل..

يحيى بن معين.. علي بن المديني.. وأمثالهم من الأعلام العظام، أما آحاد الناس إذا تكلموا فإنه لا يسمع لهم ولا يلتفت إليهم، فهم بحاجة إلى من يزكيهم، فلا يؤخذ منهم تزكية ولا تعديل ولا تجريح، وإنما هذا يضرهم؛ بضياع أعمالهم، وأعمارهم، وقسوة قلوبهم، وظلمة ضمائرهم من كثرة القيل والقال.

جاء في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع -يعني: ما عنده شيء- فقال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[(١)].

إذًا: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ**». وهذا فيه إشارة إلى أنه حتى الأموات الذين هم كفار لا حاجة لسبهم، ولذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣].

وجاء ذمه والإشارة إلى عذابه وسوء خاتمته في القرآن الكريم، فإن النبي ﷺ نهى الصحابة أن يسترسلوا في الحديث عنه وأن يقتصروا على قراءة

(١) أخرجه أحمد (٨٠١٦، ٨٣٩٥، ٨٨٢٩)، ومسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأبو يعلى (٦٤٩٩)، وابن حبان (٤٤١١، ٧٣٥٩)، والبيهقي (١١٢٨٤)، وفي شعب الإيمان (٣٣).



القرآن، وقال: «**لَا يُؤْذَيَنَّ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»[1]؛ لأن بعض بنيه قد أسلموا، فكان يؤلمهم أن يتم حديث مفصل عما قاله وما فعل مما لا حاجة إلى استدعائه، فيكفي أن يقرأ الإنسان كلام الله سبحانه وتعالى ويتعبد بتلاوته ويؤجر على ذلك، ثم يقف عند هذا القدر.

❖ لا تتدخل في الآخرة:

المعنى الثاني: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**» يعني: قدموا إلى الله تعالى الذي عنده تبلى السرائر، وعنده الجزاء والحساب، وبيده الجنة والنار، وهو الذي يعاقب ويحاسب ويجازي، ويعطي كل عامل عمله، فلا تجعل نفسك في مقام الألوهية أحيانًا فتحكم على الناس؛ بأن هذا في الجنة وهذا في النار، وقد رأيت بعيني في بعض المواقع الإلكترونية على سبيل المثال من قوم قد يظنون أنفسهم صالحين، بل قد يحسبون أنفسهم من المؤمنين والدعاة، عندما يموت بعض المسلمين المخالفين يكتبون عنه: (فلان مات، فإلى جهنم وبئس المصير). سبحان الله! أما يخشى العبد أن هذه الكلمة توبق دنياه وآخرته، وتحبط عمله عند الله، وأن يقول الله عز وجل: «**قَدْ غَفَرْتُ له وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم (١١١، ١١٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٩٨٨)، وابن عساكر (٤١/ ٦١)، (٦٧/ ١٧٢)، وينظر: شرح مشكل الآثار (١٤/ ٤٦٩)، ومعجم الطبراني الكبير (٢٠/ ٢٠٦)، والدر المنثور (٨/ ٦٦٨)، وروح المعاني (٣٠/ ٢٧٣).

(٢) كما في صحيح مسلم (٢٦٢١).

❖ الموضوع وليس الشخص:

ما الذي يجعل الإنسان يتعاظم ويتكبر ويستعلي، ويظن نفسه التقي النقي، وأن الآخرين هم الفاجرون المنحرفون الضالون، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٣]. لست بحافظ عليهم ولست مكلفًا ومسؤولًا عنهم، فدعهم لربهم سبحانه وتعالى.

وهناك أمر آخر مهم جدًّا؛ أنه قد يتناول الإنسان بعض الموتى؛ لأن هناك ضرورة معينة؛ لأن بعض الموتى وإن كانوا في أجداثهم إلا أنهم أحياء في أعمالهم وآثارهم، سواءً كانت سيئة أو جيدة، فهنا الحديث عن فعل لا يزال باقيًا مؤثرًا في الناس من سلوك أو عمل، أو موقف سياسي، أو موقف علمي يتم تناوله بذاته، وليس في ذلك من بأس، إنما المنهي عنه تناول الأموات بأشخاصهم وأعيانهم وأحوالهم الخاصة، أما أن نتناول بعض الأمور من منطلق تأثيرها في واقعنا وفي حياتنا فهذا باب آخر؛ لأنه ليس المقصود أن نغلق الحديث عن التجارب التي تعيشها الأمة، أو تعيشها الدول أو الأفراد أو الجماعات في سياستها.. في اقتصادها.. في علمها.. في تعليمها.. في مواقفها الخاصة والعامة، والتي هي من صناعة أفراد، فتناولهم من هذا المنطلق ليس به بأس، لكن بعيدًا عن اللغة التي تعتمد على الاستهداف الشخصي، فإن الإنسان كلما ترقى في الإيمان ترقى في القيم والأخلاق التي تحكم أقواله وأعماله.





حرمة المسلمين



❖ كأنه يرانا !.

من معجزات النبوة وأسرارها العظيمة أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع لبعض أصحابه: «**اسْتَنْصِتِ النَّاسَ**». أي: اطلب من الناس أن يسكتوا؛ لأن ثمة كلامًا مهمًّا سوف يقال، فقام النبي ﷺ عليهم ثم صرخ بأعلى صوته: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[(١)].

إن في هذا إشارة إلى أن من المسلمين من سوف يستحل دم أخيه المسلم بأدنى الحيل، ويتأول في ذلك، مع أن الإنسان حينما يجمع النصوص النبوية يجد أنها قد أغلقت كل الاحتمالات: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧١٧٤، ٣٧١٧٦، ٣٧٢٦٦)، وأحمد (٢٠٣٦، ١٩٢٣٧)، والبخاري (١٢١، ٧٠٧٨، ٧٠٨٠)، ومسلم (٦٥، ٦٦)، وأبو داود (٤٦٨٦)، وابن ماجه (٣٩٤٢، ٣٩٤٣)، والترمذي (٢١٩٣)، والنسائي (٤١٢٥-٤١٢٧، ٤١٢٩، ٤١٣١)، وابن حبان (١٨٧، ٥٩٤٠).



لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[1]، «**لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِه**»[2].

بل يكفي أن النبي ﷺ أوصل قتل المسلم إلى أن يكون نوعًا من الكفر، وليس المقصود أن من قتل مسلمًا كفر، لكنه شابه الكافرين، فقد كان العرب قبل الإسلام يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، وهناك ألوان من العداوات والثارات معروفة في التاريخ، وما حرب داحس والغبراء أو حرب البسوس إلا نموذج لذلك، ولهذا فإن الناس الذين فقهوا هذا المعنى النبوي كان عندهم حساسية مفرطة من العدوان على أعراض المسلمين أو دمائهم، أو المشاركة في ذلك ولو بكلمة أو إشارة، والذين وعوا هذا المعنى النبوي كانوا في غاية اليقظة لذلك، يقول قائلهم:

وَلَسْتُ بِقَاتِلٍ رجـلًا يُصَلِّي ... عَلَى سُلْطَانِ آخرَ مِنْ قُرَيْشِ
لَهُ سُلْطَـانُـهُ وعَلَـيَّ إثْمـي ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ جَهْـلٍ وَطَيْـشِ
أَأَقْتُلُ مُسْلِمًا فِي غَيْـرِ جُرْمٍ ... فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا عِشْتُ عَيْشِي[3]

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٨١)، والبخاري (٦٨٦٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٤) (٢١)، والأوسط (١٤٠١)، والحاكم (٤/ ٣٩٠، ٣٩١)، والبيهقي (١٥٥٣٦، ١٥٦٣٦)، وفي شعب الإيمان (٥٣٣٨).

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٩٧)، وابن أبي شيبة (١٥٩٨٤، ١٩٧١٥)، وأحمد (١٦٤٣٢)، والدارمي (٢٣٦١)، والبخاري (٦٠٤٧، ٦١٠٥، ٦٦٥٣)، ومسلم (١١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٥٣، ٦٦٦٥)، وفي الكبرى (١٥٦٥٤، ١٩٦١٩).

(٣) ينظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٩)، والسنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني (١٠٤)، ومعجم الطبراني الكبير (٨٥١)، والمستدرك (٢/ ١٥٨)، وسنن البيهقي (٨/ ١٩٣)، وتاريخ دمشق (١٠/ ٤٣).

ولما قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، اتق الله. فقال أحد الصحابة: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**»(١). فالصلاة تعصم دم المسلم، وليس لك مجال للتأويل.

قال لي يومًا بعض الشباب: هؤلاء الناس منافقون. قلت: هب أنهم منافقون، هل قتل النبي ﷺ المنافقين؟ كلا، بل حقن دماءهم ونهى عن قتلهم وقال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(٢).

ومن يقرأ التاريخ الإسلامي يدري أنه إلى جوار أولئك الذين فقهوا عن النبي ﷺ ما قال، واعتبروا أن دماء المسلمين وأعراضهم حفرة من حفر النار كما صحت بمعنى ذلك النصوص، فإن هناك حالات غير قليلة من العدوان والاستهانة والاستخفاف بأعراض المسلمين بتأويلات كثيرة جدًّا، فأحيانًا يتم العدوان على دم المسلم أو عرضه من منطلق دنيوي مصلحي، فالخلافات التي شحن بها تاريخ المسلمين من القتال المذهبي، أو القتل بين الطوائف، أو القتال بين الدول، أو بين القبائل أو غير ذلك، وذهبت فيه أعداد هائلة جدًّا من الضحايا كان قتالاً في غير الحق.

ألم يقل ذاك الرجل بكل بجاحة وبذاءة وقلة أدب للنبي ﷺ: اعدل يا محمد.

(١) أخرجه أحمد (١١٠٢١)، والبخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، وأبو يعلى (١١٦٣)، وابن حبان (٢٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٨٠٤١)، وأحمد (١٤٨٦٢، ١٥٢٦٠)، والبخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤)، والترمذي (٣٣١٥)، وأبو يعلى (١٩٥٧)، والنسائي في الكبرى (٨٨٦٣، ١١٥٩٩)، وابن حبان (٥٩٩٠، ٦٥٨٢)، والطبراني في الأوسط (٧٢٩٥، ٨١٠٠)، والبيهقي (١٧٦٤٤).

أو يأتي آخر والنبي ﷺ يقسم فيقول: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فيقول النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ موسى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَرَ**»[(١)].

أو يقول للآخر: «**أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**». قال فقام رجل فقال: يا رسول الله، اتق الله. قال: «**وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ؟**». فيقول خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**». فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**»[(٢)].

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول بعد ذلك: «إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمَن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومَن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة»[(٣)].

❖ حرمة الدماء والأعراض:

لقد قامت الحجة على الناس، ووضح الأمر، وأصبح مرفوضًا أن يخلي

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٨، ٣٩٠٢، ٤١٤٨، ٤٢٠٤)، والبخاري (٣١٥٠، ٣٤٠٥، ٤٣٣٦)، ومسلم (١٠٦٢)، وأبو يعلى (٥٢٠٦)، وابن حبان (٤٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٢١)، والبخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، وأبو يعلى (١١٦٣)، وابن حبان (٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٣)، والبيهقي (١٦٦٢٧).

الإنسان بين نفسه وبين شهوة العدوان على الآخرين والتسلط عليهم بلسانه، حيث يفري في أعراض المسلمين بكرة وعشية، أو بيده بالضرب، أو القتل، أو العدوان من أي منطلق كان، سواء من منطلق كونه سلطانًا حاكمًا، أو من منطلق التسلط باسم الشريعة على عباد الله، إن ذلك كله مرفوض، وقد جاء الدين بإغلاقه تمامًا، والذين يمارسونه عليهم أن يعلموا أنهم يطأون حرمات الله وينتهكونها عيانًا بيانًا بلا تأويل، فالنبي ﷺ أقام الحجة تمام الإقامة.

إن أعراض المسلمين ودماءهم خط أحمر يجب أن نقف عنده.

احذر أخي المسلم أن تلقى الله تعالى وأنت مسؤول عن محجمة دم أريقت بسببك، ولو لم تكن مباشرًا لذلك، فضلًا عن أن يدخل المسلم في صراعات بين المسلمين ليس هو منها بسبيل، وليس عنده بينة، والله الذي لا إله غيره لو أن كل مسلم جعل من شأنه ألا يدخل في قضية إلا وعنده فيها من الله تعالى برهان وبيان واضح لأحجم الكثير من الناس عن مواقعة الأخطاء والفتن والانجرار إليها، ولكن شهوة التسلط، وغلبة الأنانية، والنفس الأمارة بالسوء قد تعمي الإنسان وتزين له الشر:

يُقْضَى عَلَى المرْءِ فِي أيَّامِ مِحْنَتِهِ   حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْـحَسَنِ



الكعبة الحرام



❖ خلاف حول الحجر الأسود:

من القصص المحفوظة في السيرة النبوية أن قريشًا لما بنت الكعبة البيت الحرام وبقي وضع الحجر الأسود في موضعه، فتلاحوا واختلفوا، حتى هموا أن يقتتلوا، وغمس بعضهم يده بالدم، حتى سموها غمسة أو لعقة الدم، إشارة إلى استعدادهم للقتال على هذه القضية، حيث يعتبرون هذا شرفًا، وكل طرف منهم يريد أن يستأثر به دون الآخر.

❖ حكمة نبوية لاحتواء الموقف:

وهنا أشير إلى اختلاف عقول الناس في معالجة مثل هذه المشكلات، كل قبيلة تريد أن تستأثر به، ولو أنهم فكروا في حل جماعي يجعل لكل قبيلة قدرًا من الحق في ذلك، بمعنى أن يتم الحفاظ على مكانة كل قبيلة وأن تأخذ كل قبيلة قدرها من ذلك لكان هذا هو الحل العقلي المنطقي السليم، لكن روح الاستفراد والاستئثار التي تربى عليها الناس خصوصًا في البيئات المتخلفة تجعل القضية صراعًا على هذا المقعد أو الكرسي، أو الموقع الذي لا يتسع في نظرهم إلا لشخص واحد.



ولهذا كانت الحكمة في القدرة على تحويل هذا الصراع إلى حل مشترك فيما بينهم، مما يسهم في اجتماعهم بدلًا من أن يكون سببًا في فرقتهم وتباعدهم.

لقد اختلفوا على ذلك، حتى هموا أن يقتتلوا، فعصمهم الله بمحمد ﷺ، فاتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل باب المسجد الحرام، وكان من الرحمة الربانية السابقة للبعثة، وقبل أن ينزل الوحي على النبي ﷺ أن يكون أول داخل هو محمد بن عبد الله، ذلكم الرجل الكريم المقبول عندهم جميعًا، فسروا وفرحوا، وقالوا: لقد جاء الأمين.

فحكَّموا النبي ﷺ بينهم، فأتى برداء ووضع الحجر فيه، ثم طلب من كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطراف الرداء، ثم قام هو ﷺ فوضع الحجر في مكانه، وبذلك حل الإشكال فيما بينهم، ورضوا جميعًا، وأسهم كل طرف منهم في القيام بهذه المهمة، وتم حقن الدماء بطريقة سلمية سليمة، وهذا مما قدمه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ الذي كان له أعظم المكانة، وأفضل المقام في قريش قبل الإسلام(١).

❖ قدسية الكعبة:

ويأتي الإسلام، فيزيد هذه الكعبة قدسية ومكانة ومهابة، حتى يأمر الله تعالى المسلمين بأن ينصرفوا في صلاتهم إليها بعد ما طال انتظار النبي ﷺ،

(١) ينظر: مسند الطيالسي (١١٣)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩)، وسنن البيهقي (٨٩٩٠)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٠٤)، والتمهيد (١٠/ ٤٥)، وتاريخ الإسلام (١/ ٦٧)، والبداية والنهاية (٢/ ٣٠٠-٣٠٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٨٢)، وعمدة القاري (٩/ ٢١٧)، والسيرة الحلبية (١/ ٢٣٦)، ومختصر السيرة لابن عبد الوهاب (ص: ٦٧)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ٤٤).

ورأى ربه جل وعز تقلب وجهه في السماء فولّاه القبلة التي يرضاها وهي الكعبة، وجعل الطواف بها من العبادات المقربة إليه، بل جعله ركنًا في الحج والعمرة، لا يصح الحج والعمرة إلا بذلك، ولا يستلم في الدنيا بيت ولا يطاف به إلا الكعبة البيت الحرام.

جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لعائشة الصديقة: «**تَعَالَيْ أُرِيكِ**». فخرج بها، وأوقفها عند الكعبة، وبيَّن لها أن الحِجْر وهو البناء الذي يقع إلى شمال الكعبة وليس ملصقًا بها أنه من الكعبة، وأن قريشًا لما هموا ببنائها قصرت بهم النفقة، ولم يجدوا ما يكفي في بناء الكعبة كلها، فبنوا جزءًا منها، وتركوا الحِجْر خارج الكعبة وهو نحو ستة أو سبعة أذرع، وكان من ضمن بناء الكعبة، فقال لها النبي ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ قَوْمَك حديثُ عهْدٍ بجاهِلِيةٍ** -زاد في رواية[١]: **فأخافُ أَنْ تُنْكِر قُلُوبُهُمْ**- **لأمرْتُ بالْبَيْتِ فهُدِم فأدْخلْتُ فِيهِ ما أُخْرِج مِنْهُ وأَلْزقْتُه بالْأَرْض وجعلْتُ لهُ بابيْنِ بابًا شرْقِيًّا وبابًا غرْبِيًّا**»[٢]. وفي لفظ: «**وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وبابًا يخْرُجُون مِنْهُ**»[٣]. وفي لفظ: «**فبلغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْراهِيمَ**»[٤].

---

(١) أخرجه الدارمي (١٨٦٩)، والبخاري (١٥٨٤، ٧٢٤٣)، ومسلم (١٣٣٣)، والبيهقي (٩٠٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٤٧٧، ٢٥٥٠٢، ٢٦٠٧١)، والبخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣)، والترمذي (٨٧٥)، والنسائي (٢٩٠٣)، وابن خزيمة (٣٠٢٠)، وابن حبان (٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨)، والطبراني في الأوسط (٧٣٧٩)، والحاكم (١/ ٦٥٢) (١٧٦٤)، والبيهقي (٩١٠٠، ٩١٠١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤١٠٩)، وأحمد (٢٥٠٩٢)، ومسلم (١٣٣٣)، والنسائي (٢٩١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٤٧٧، ٢٥٥٠٢، ٢٦٠٧١)، والبخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣)، والترمذي (٨٧٥)، والنسائي (٢٩٠٣).

وفي رواية: «**وَهَلْ تدْرينَ لِمَ كَانَ قوْمُكِ رَفَعُوا بَابَهَا؟**». قالتْ: قُلْتُ: لا. قال: «**تَعَزُّزًا ألا يدْخُلَها إلَّا مَنْ أرَادُوا؛ فكان الرجُلُ إذا هُو أرَادَ أنْ يدْخُلَها يَدَعُونهُ يرْتقِي، حتَّى إذا كادَ أنْ يدْخُلَ دفعُوهُ فَسَقَطَ**»[1]. وفي لفظ: «**فَعَلَ ذاك قوْمُكِ لِيُدْخِلُوا منْ شاءُوا ويمْنعُوا منْ شاءُوا**»[2].

فأعطى النبي ﷺ هذا البيان لعائشة وفيه عبر ودروس:

أولًا: ترك النبي ﷺ بناء الكعبة بعد الإسلام كما هي، وعلل ذلك بقوله: «**فأخافُ أنْ تُنْكِر قُلُوبُهُمْ**».

لقد كان ﷺ حريصًا على إيمان الناس وعلى قلوب الناس وسكينتهم، وهذا مما خص به ﷺ في حسن سياسة الأمور والتأتي بالناس وعظيم الرفق بهم، فقد خاف أن تنكر قلوب الناس، أو يظنوا أن النبي ﷺ فعل هذا من باب الفخر والجاه، وهو أبعد ما يكون عن ذلك ﷺ، ولذلك ترك الكعبة كما هي، ولم يحدث فيها شيئًا.

وهذا دليل عظيم على حسن الاختيار؛ أي أن الإنسان قد يكون أمامه أكثر من خيار، وكلها شرعية، فبناء الكعبة على قواعد إبراهيم هو خيار شرعي، ولهذا علّمه النبي ﷺ لعائشة، وتَرْكُ الكعبة كما هي دون تعديل خيار شرعي آخر، والنبي ﷺ اختار الثاني من حيث الفعل، واختار الأول من حيث البيان؛ لتقوم بذلك معرفة الناس بهذه القاعدة، بمعنى أن الإنسان قد يترك الشيء

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩١٥٠)، ومسلم (١٣٣٣)، وابن خزيمة (٢٧٤١).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٣٩٣)، والدارمي (١٨٦٩)، والبخاري (١٥٨٤، ٧٢٤٣)، ومسلم (١٣٣٣)، والبيهقي (٩٠٩٨).

الذي هو في الأصل فاضل ومشروع، وإنما تركه لرعاية مصلحة أخرى أعظم من ذلك.

وهكذا النبي ﷺ حينما ترك قتل المنافقين، وعلل ذلك: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أصحابَه**»[1].

وهذه قاعدة شرعية عظيمة جدًّا في حسن الاختيار؛ لأن الله تعالى علم أن الأمم تتغير أحوالها وظروفها وأزمنتها، ويمر بالناس أوقات حضارة وتقدم، وضعف وتخلف، وأوقات كثرة وقلة، وأوقات غناء وفقر، ولا تسع الناس طريقة واحدة.

ولهذا جعل الله تعالى هذه السعة حتى قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨].

ولهذا نستطيع أن نقول: إن من أعظم الفقه فقه الاختيار. أي أن يختار الإنسان من الأقوال والأحوال والأعمال والفتاوى ما يكون مناسبًا للمقام، وقد يجد الإنسان أن أمامه ألوانًا من الحق، ولهذا كان هذا من أعظم الحكمة المتضمنة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨].

والقول قد يكون هو الوحي في أحد المعاني، وكله حسن، لكن الحسن وزيادة الحسن مرتبطة بحالات؛ منها: مراعاة الظرف، ومراعاة المكان،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٨٠٤١)، وأحمد (١٤٨٦٢، ١٥٢٦٠)، والبخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤)، والترمذي (٣٣١٥)، وأبو يعلى (١٩٥٧)، والنسائي في الكبرى (٨٨٦٣، ١١٥٩٩)، وابن حبان (٥٩٩٠، ٦٥٨٢)، والطبراني في الأوسط (٧٢٩٥، ٨١٠٠)، والبيهقي (١٧٦٤٤).

ومراعاة الناس وما يناسبهم وما يصلحهم: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

ثانيًا: بيّن النبي ﷺ أن الكعبة أوسع مما هي عليه، وأن الحِجْر يدخل في الكعبة، ولهذا يطوف الناس من ورائه، ولو أن امرأً طاف ودخل إلى داخل الحِجْر، وترك الحِجْر عن يمينه لما كان طوافه مجزئًا؛ لأنه ترك جزءًا من الكعبة لم يطف به.

ثالثًا: قوله ﷺ: «وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ».

وهذا يؤكد على معنى عظيم، وهو أن الإسلام منذ بدايته جاء ليؤكد كل معاني المساواة بين الناس، والمساواة لا تعني ألا يحفظ لأهل القدر قدرهم؛ لأن الله تعالى خلق البشر، وفاضل بينهم في العقول والأشكال، والمفاهيم، وفي التقوى والأخلاق، ولكن الميزان الأساس في التفضيل هو التفضيل بالتقوى، وإلا فالناس في الأصل سواء، لا فرق بين عربي وعجمي، وأبيض وأسود، وغني وفقير إلا بالتقوى.

فالنبي ﷺ هَمَّ بأن يسوي باب الكعبة ليكون على الأرض، وأن يكون سهلًا ليدخل الناس من هذا الباب، ويصلون في الكعبة داخلها، ويخرجون من الباب الآخر.

وقد رأى العلماء أن تظل الكعبة كما هي؛ لئلا تكون لعبة للملوك والدول: هذا يهدها وهذا يعيدها، ورأوا أن تبقى كما هي، ويكفي وجود هذا الحديث النبوي، ويكفي البناء الموجود والحِجْر لتطبيق ما أراده النبي ﷺ، وحتى الحِجْر هو مفتوح إلى اليوم من الطرفين، بمعنى أن أي مسلم يستطيع أن يصلِّي

داخل الحِجْر، ويكون بذلك قد صلَّى داخل الكعبة وخرج من الباب الآخر.

المهم أن النبي ﷺ كان معنيًّا بالقضاء على نوع مما يسمى بالتميز الذي كانت قريش تعطيه لنفسها، فكانوا يجعلون لأنفسهم مكانة خاصة ليست للناس، حتى في الأمور التعبدية، ففي الحج كان الناس يقفون بعرفة، وقريش يرفضون ذلك ويقولون: أهل بيت الله وأهل حرمه، لا نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا يقفون بمزدلفة، فلما جاء النبي ﷺ لم يكن موافقًا لقريش، فكان يقف بعرفة، ولما حج في الجاهلية قبل الإسلام وقف مع الناس، ولم يقف مع قريش، وهكذا نزل القرآن، وقال الله تعالى لقريش ولغيرهم: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩]. يعني: قفوا بعرفة كما يقف الناس، وأفيضوا معهم كما يفيضون من عرفة إلى مزدلفة، ولا تتميزوا أو تختصوا عنهم بشيء، فهذا الدين ليس دين طبقية ولا دين تمييز، فلا تميز إلا بالتقوى والعلم النافع، والإنسان كلما كان أتقى وأعلم كان أكثر تواضعًا واندماجًا مع الناس وتسامحًا معهم، وكان أكثر معرفة بعيوبه وقدر نفسه، وبهذا جاء الإسلام، وهكذا كانت أخلاق الرسول ﷺ.



إنا أعطيناك الكوثر



❖ عطاء.. حتى ترضى:

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣].

وقف العاص بن وائل وجماعة من كفار قريش يتأملون النبي ﷺ وهو في فناء الكعبة يعبد ربه، وتذكروا دعوته فقال بعضهم لبعض: لقد فرَّق جمعنا وشتَّت شملنا، وأتانا بما لم يأت به الأولون. فجعل بعضهم يعزِّي بعضًا، وكان من ذلك أن قال لهم العاص بن وائل: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره.

لقد تألَّم النبي ﷺ لمثل هذه الإفاضة في الحديث، فقال له ربه يسليه ويعزيه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١][1].

والناظر اليوم بعد هذه السنين المتطاولة إلى العاص بن وائل وغيره: مَن

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٥/ ٢٥٢)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٩)، وتفسير البغوي (٤/ ٥٣٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٠)، والبداية والنهاية (٣/ ١٠٤)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ٢١٩).

يعرفهم؟ مَن يعرف اسم أبي جهل؟ مَن يفتخر بالانتماء لأبي جهل؟ لكن مَن الذي يجهل اسم محمد ﷺ ؟!

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

اسمه على كل لسان، وذكره في كل قلب، أحبه الصديق وهابه العدو، وصار اسمه مقرونًا باسم الله تعالى:

وَضَمَّ الإِلهُ اسمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمه إِذَا قَالَ فِي الْخَمْس الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَه مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

فإذا ذُكِر الله ذُكِر محمد رسول الله ﷺ، فالشهادتان هما مدخل الإسلام، والأذان فيه ذكر الشهادتين، والحياة كلها مبنية على طاعة الله واتباع رسول الله ﷺ.

لقد عده المنصفون من غير أتباعه أعظم المائة الأوائل المؤثِّرين في التاريخ، ولَعَمْر الله إن هذا جزء من الحقيقة، فهو أعظم صناع التاريخ والحياة ﷺ، وما طرق هذا الكوكب الأرضي منذ خلق آدم عليه الصلاة والسلام وأهبط إلى الأرض وعاشت البشرية وانتشرت إلى اليوم وإلى نهاية التاريخ شخص في عظمة محمد ﷺ، عظمة الأخلاق.. عظمة العقل.. عظمة القلب.. عظمة الشخصية.. عظمة التأثير، وقبل ذلك عظمة النبوة والوحي والكتاب المنزل على قلبه ﷺ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤].

لقد اختاره الله تعالى فهو خيار من خيار، وجعله خاتم الرسل وخاتم النبيين، فبأبي هو وأمي ﷺ، نسأله سبحانه أن يحشرنا في زمرته ويوردنا حوضه.

❖ المواهب الإلهية:

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [الكوثر:١] يسبك هؤلاء ويعيرونك؛ لأن أولادك الذكور يموتون، وهذه سنة الله تعالى، فلا يعير أحد بأمر قدري كوني، بل هذا من حكمة الله تعالى لنبيه ﷺ، عاشت بناته الطيبات الطاهرات، أما أولاده الذكور فقد كانوا يموتون صغارًا، ويعاني ﷺ من فقدهم ما يعاني، ولا يقول إلا ما يرضي الله عز وجل، وإن كان مرجل الحزن في قلبه يغلي على فراقهم، عيروه بذلك ﷺ، فعوضه ربه وأعطاه، فأجزل له العطاء وهو الكريم جل وتعالى، يقول له سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾. فمصدر العطاء هو الله سبحانه وتعالى بعظمته وكبريائه، وإذا كان الناس يقولون دائمًا: إن الهدية على قدر مهديها. فكيف تظن بهبةٍ اللهُ عز وجل واهبها؟ ولهذا يستهل الخطاب بهذا المعنى العظيم، والنبي ﷺ أعرف الناس بربه جل وتعالى، فإذا قيل له: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾. فإنه يعلم أنها عطية عظيمة وتشريف كبير قبل أن يعرف ما العطية، وأن الله تعالى ذَكَرَه في الملأ الأعلى، وخصه بما لم يخص به أحدًا من خلقه سواه على الإطلاق.

لقد عبر ربنا جل وعز بقوله: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ ولم يقل: آتيناك، فلفظ الإيتاء يدل على معنى عام، فقد يؤتى ما هو له خاصة، وقد يؤتى ما هو لغيره، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧]. لكن حينما يقول: ﴿ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾. تُعلم أنها عطية خاصة له ﷺ، وأن أثرها على أمته هو من جوده وكرمه ﷺ.

❖ ما هو الكوثر؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١]. يقول كثير من العلماء: إن الكوثر نهر في الجنة[١] وعده الله تعالى نبيه ﷺ[٢]، آنيته عدد نجوم السماء[٣]، مَن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا[٤].

وهذا المعنى صحيح وثابت في السنة النبوية، لكن حينما يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. فهو مأخوذ من الكثرة. يعني: الخير الكثير.

إذًا: الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: أعطيناك الخير الكثير. فالكوثر الذي هو نهر في الجنة واحد من عطايا ربنا جل وتعالى لنبيه محمد ﷺ، وقد عجل له هذه البشرى في الوقت الذي كان المشركون يسخرون منه ومن دعوته، ويقولون: هو رجل منبتر، يموت غدًا وينتهي أثره، ولا يذكره أحد، وتعود لحمتنا كما كانت. فربه عز وجل يقول له: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. فمن الكوثر هذا الخير،

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٣١٦٦٢، ٣٤٠٩٨)، ومسند أحمد (٥٣٥٥، ٦٤٧٦، ١٢٠١٣)، وسنن ابن ماجه (٤٣٣٤)، وجامع الترمذي (٣٣٦١)، ومسند أبي يعلى (٣٩٥٣)، وصحيح ابن حبان (٦٤٧١)، ومعجم الطبراني الكبير (١٣٣٠٦)، والمعجم الأوسط (٩٢٤٦).

(٢) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣١٦٥٥، ٣٤٠٩٧، ٣٧١٧٨)، ومسند أحمد (١٢٠١٣)، وصحيح مسلم (٤٠٠)، وسنن أبي داود (٧٨٤، ٤٧٤٧)، ومسند أبي يعلى (٣٩٥٣)، وسنن النسائي (٩٠٤)، وسنن البيهقي (٢٢٠٨).

(٣) ينظر: مسند أحمد (١٢٠١٥، ٢٣٤٩٨)، وصحيح البخاري (٤٩٦٥)، وصحيح مسلم (٢٤٧، ٤٠٠، ٢٣٠٠، ٢٣٠٤)، وسنن أبي داود (٤٧٤٧)، وسنن ابن ماجه (٤٣٠١، ٤٣٠٢)، وجامع الترمذي (٢٤٤٥)، وسنن النسائي (٩٠٤).

(٤) ينظر: مسند أحمد (٣٧٨٧، ٢٢٨٧٣)، وصحيح مسلم (٢٢٩٠، ٢٢٩٩، ٢٣٠٠)، وسنن ابن ماجه (٤٣٠٣)، وجامع الترمذي (٢٤٤٤).

ومن الكوثر أيضًا الكثرة في كل شيء، فالله تعالى قد كثَّر أتباعه ﷺ، ولا يوجد في أتباع الأنبياء من هم بمقدار أتباع محمد ﷺ، والإسلام اليوم أكثر الأديان انتشارًا وأسرعها قبولًا، والمسلمون يشكلون خمس سكان الكرة الأرضية، وعبر التاريخ كان هذا الدين يتجاوز الحدود، والسدود بقوته وتأثيره، وإن ضعفت قوة أهله عن التأثير.

❖ هذا ما وعدنا الله:

وقفت يومًا من الأيام في مكة البلد الحرام، وأشرفت من شرفات أحد مبانيها الشاهقة، ونظرت مد بصري، فإذا بالناس كأمواج البحار، في حركة لا تتوقف، ولهج لا ينقطع بذكر الله والتلبية والتكبير، يضيق بهم رحب المكان، وكلما جاءت سعة في الأرض زاد عدد الناس وأربى عليها، ولو كتب للمسلمين اليوم أن يؤدوا عمرتهم أو حجهم لما كانت تتسع لهم البقاع المحيطة بمكة كلها.

وهذا جزء من الخير الكثير، ولو كتب للنبي ﷺ أن يبعث، فينظر إلى مكة التي طالما أوذي فيها وحورب، والتي قال المشركون عنه فيها: إنه صنبور منبتر، يموت غدًا وينتهي أمره. ونظر ﷺ إلى هؤلاء القوم وقد نسوا، فلا يذكرهم أحد إلا بالعار والشنار، أما هو ﷺ فقد كتب الله تعالى له المجد والخلود والعظمة في الدنيا، ولو قبضت روحه الطاهرة ﷺ، فهي سنة الله في عباده: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]. إلا أن دينه حي ﷺ.

إن النبي ﷺ أعطي الخير الكثير من خير الدنيا والآخرة، وهذا بعض ما

أعطاه ربه عز وجل من خلود دينه وبقائه، وأن دينه ظاهر على الدين كله ولو كره المشركون.



إن اللّٰه يحب المحسنين



❖ بالشكر تدوم النعم وتربو:

كثيرًا ما يقرن الله تعالى في كتابه الكريم بين النعمة والشكر، وإذا كانت سورة النحل وهي من السور الطوال التي عدَّد الله تعالى فيها ألوان النعم على عباده، وذكّرهم فيها بالشكر حتى ختمها بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وكذا سورة لقمان، وكأني أرى أنها تسمى سورة النعم الصغرى بالقياس إلى سورة النحل؛ لأن الله تعالى عدَّد فيها ألوانًا من النعم على العباد أيضًا.

وهكذا بالنسبة لمحمد ﷺ، ففي سورة الضحى عدَّد الله عليه النعم، ثم قال له في آخرها: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:٩-١١].

وفي سورة الكوثر لما ذكر الله تعالى ما أعطاه من النعم العظيمة الكثيرة، ومن ذلك: كثرة أتباعه ﷺ، وكثرة العلوم التي منحها النبي ﷺ، وكثرة الخير الذي أجراه الله تعالى على يديه للعالمين.

أعطاه الله تعالى الكوثر ثم عقب بقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢].

حين تتأمل هذين الأمرين:

الأمر الأول: الصلاة، إشارة إلى علاقة النبي ﷺ بربه، أن يحسن في عبادة ربه جل وعز.

الأمر الثاني: النحر، وهو يعني: ذبح النحائر: الإبل والبقر والغنم لوجه الله، وإطعام الفقراء والجياع والمساكين، فأمره الله تعالى بهذين الأمرين، فامتثل وأحسن.

أما الصلاة فقد جعلها الله تعالى قرة عينه ﷺ، فإذا أقبل عليها ترك الدنيا وراءه، وانشغل بربه، وقد قال: «**إِنَّ فِي الصَّلاةِ لَشغْلًا**»(١). إذا سجد سجد قلبه وبدنه، وسبح ودعا، وذكر وخشع، ودمع وتقرب إلى الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]. فلم تكن صلاته ﷺ صورة وإنما كانت حقيقة، بالعقل والقلب، والروح والبدن.

كان ﷺ يقوم الليل حتى تفطَّرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أَفَلا أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**»(٢). فأعلن الشكر لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

والشكر يكون بالقلب، وبالجوارح، وباللسان، فكانت صلاته ﷺ شكرًا،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٩، ١٢١٦، ٣٨٧٥)، ومسلم (٥٣٨)، وأبو داود (٩٢٣)، وابن ماجه (١٠١٩)، والترمذي (٣٩٠)، وابن خزيمة (٨٥٥، ٨٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٤٨)، وأحمد (١٨٢٢٣، ١٨٢٦٩)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠)، والنسائي (١٦٤٤)، وابن خزيمة (١١٨٣، ١١٨٤)، وابن حبان (٦٢٠).

وكان ذكره شكرًا، وكان عمله شكرًا لله عز وجل على ما أعطاه، وامتثالًا وتأويلًا لما قال له ربه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

تقول عائشة الصديقة رضي الله عنها: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1].

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بالأمر الثاني وهو قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

أي: إن الإحسان في عبادة الله لا يتم إلا بالإحسان إلى عباد الله تعالى، وهما أمران مجتمعان، لا يمكن فصل بعضهما عن بعض، فالقلوب التي أذعنت لله وأحبته وخشعت له هي القلوب التي تحن وتحنو على الناس: من المسكين، والأرملة، والضعيف، والفقير، ومَن لا يجد له مَن ينصره أو يغيثه إلا الله عز وجل، ثم الصالحون من عباده، فتكون هذه القلوب وعاءً يحتوي آلام الناس وهمومهم، ويجود عليهم بما يستطيع من مشاركة في غذاء أو كساء أو مسكن أو جاه أو مال، ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٨٨٣)، وابن أبي شيبة (٢٩١٤٠، ٢٩٧١١)، وأحمد (٧٥١، ٩٥٧، ٢٥٦٩٦)، ومسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩، ١٤٢٧)، وابن ماجه (١١٧٩، ٣٨٤١)، والترمذي (٣٤٩٣، ٣٥٦٦)، والنسائي (١٦٩، ١١٠٠، ١١٣٠، ١٧٤٧)، وابن خزيمة (٦٥٥، ٦٧١)، وابن حبان (١٩٣٢)، والحاكم (١/ ٤٤٩).



فجمع بينهما، ولما عاب الله تعالى المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾ [الماعون:٦-٧]. يعني: لا يحسنون إلى عباد الله، فمنعهم للماعون: أنهم لا يعطون الناس، ويبخلون عليهم، وشر البخل أن يبخل المرء على زوجته، وولده، ومن تحت يده.

❖ نفع الناس عبادة:

إن القلوب في أوقات العبادة كالصوم والصلاة تتعلم أن تستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى، وأن تحبه وتعمل للآخرة، وأن تنبض بالرحمة لعباد الله، وأن تتحرك بالإحسان إلى الناس، وأن تعلم أن الله تعالى كما يعبد بالسجود له جل وعز يعبد كذلك بالبذل ومد اليد بالعطاء والكرم حتى قبل أن يسأل، وخير العطاء ما كان عطاءً يوفر على الآخذ كرامته وإنسانيته، فلا يجر يده، ولا يمن عليه، ولا يؤذيه، ولا يبتز إنسانيته، وإنما يعطيه وهو مرفوع الهامة، محفوظ الكرامة.

إن التشابك العظيم في الإسلام هو سر من أسرار عظمة هذا الدين، فالعطاء لا يكون من أجل الدنيا أو الرياء، أو أن يكتب عن الإنسان أنه المحسن الكبير، وإن كان هذا يأتي تبعًا، فهو من عاجل بشرى المؤمن، لكنه يحسن لأنه يعتبر هذه الطريق موصلة إلى رضوان الله تعالى والجنة كما هو الطريق إلى التوفيق في الدنيا، فأولئك المحسنون هم أطول الناس أعمارًا، وأكثر الناس صحة وعافية، وأكثر الناس توفيقًا في المال، وأبعد الناس عن التعاسة والشقاء، وأقرب الناس إلى السعادة والرضا.

عليك كما تعبد ربك بالسجود وتتضرع إليه، وتحرك في قلبك حب الله عز وجل، عليك أن تتقرب إلى ربك تعالى بمثل هذا المعنى من خلال الإحسان إلى الناس، وقد جاء في الأثر: «الخلق كلهم عيال الله؛ فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[(١)]. وهذا لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، لكنه معنًى صحيح، والمقصود بعيال الله، أي أنهم عالة على الله، محتاجون إليه، فالله تعالى هو الذي يقيتهم ويرزقهم ويعطيهم، والإنسان الذي يقوم بهذا العمل أحب الخلق إلى الله؛ لأنه يرزق الخلق من رزق الله، ويعطيهم من عطاء الله، ويحفظهم من الذل أو الابتزاز أو اللجوء إلى المعاني المرذولة، والطرق الملتوية التي قد يضطرهم إليها الفقر والمسغبة.

فقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢]. أمران مرتبطان، العبادة المحضة لله سبحانه وتعالى، والإحسان الصادق إلى عباده.

ثم ختم سبحانه سورة الكوثر بقوله: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر:٣]. فهذا الشكر تقدمه لربك على عطائه، وعلى ما كتب لك ولدعوتك ولدينك من المجد والخلود، حتى أصبحت مكة عاصمة الإسلام الكبرى بل عاصمة الدنيا من كل النواحي، فهي المدينة العالمية التي تأتي إليها الشعوب والأعراق والأجناس من كل مكان، ويتوافد إليها الناس كما قال سبحانه: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج:٢٧-٢٨]. وفي كل الظروف كان يتحقق

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٣٣١٥، ٣٣٧٠، ٣٤٧٨)، والطبراني في الكبير (١٠٠٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢)، (٤/ ٢٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٤٤، ٧٤٤٥، ٧٤٤٦، ٧٤٤٧).



هذا المعنى بمكة البلد الحرام، فالله عز وجل جعل لك هذا المجد ولدينك ولأرضك ولبلدك، وجعل لها هذا الخلود.

❖ معجزة إلهية:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]. فالذين حاربوك ووقفوا في طريقك هم الذين حق عليهم ما قالوه وما زعموه من أنك أبتر تموت وتنقضي، ويتربصون بك ريب المنون، فلقد ماتوا، وبقي الإسلام، وذهبوا ولم يذكرهم أحد، أما الإسلام فهو عزيز منيع، عظيم بكثرة أتباعه وبمجده، وتاريخه وحضارته التي يعرفها الخاص والعام، والقريب والبعيد.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]. أي: إن الذين أبغضوك وشنئوك وسبوك هم الذين كتب عليهم الانبتار.

لقد كانوا يملكون الأموال والأولاد: يقول ربنا سبحانه عن أحدهم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١١-١٥]. فأين هؤلاء؟ أين بنوهم؟ أين أموالهم؟ أين مجدهم؟ أين ذكرهم؟ لقد انطوى وانتهى، وبقي النبي ﷺ، وبقي دينه ومجده، وبقيت عظمته مصداقًا لما أخبر به الله عز وجل.

لقد كان النبي ﷺ يسمع آيات سورة الكوثر وهو بمكة معزول محاصر، فكان يؤمن بها حق الإيمان، وكان هذا من أعلام نبوته وأنه يتلقى الوحي من الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]. لقد وعده ربه عز وجل وأنجز له ما وعد، وانتهى هؤلاء القوم، وبقي النبي ﷺ،

وبقيت آياته العظيمة والتي منها القرآن:

آيَاتُهُ كُلَّما طَالَ الْـمَدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جَمَالُ الْعِتْقِ والْقِدَمِ
هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي مَنْ قَامَ يَقْرَؤهُ ... كَأَنَّمَا خَاطَبَ الرَّحْمَنَ بِالْكَلِمِ

فهذا مصداق نبوته ﷺ، وإحدى معجزات هذا الكتاب الكريم العظيم أن يقرأه الناس اليوم، فيجدون الأمر يتحقق عبر آلاف السنين، وآلاف المواقع التي تشهد ببقاء هذا الدين وخلوده وعظمته، وأن ذلك مما يقوي إيمان المؤمنين: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].



ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا



❖ صديق السوء:

روى أهل التفسير وأهل السير أن عقبة بن أبي مُعَيْط كان صديقًا في الجاهلية لأُبيِّ بن خلف، أما أُبي بن خلف فقد كان رأسًا في الشرك والعدوان والعنجهية والغطرسة، وكان يحارب كل بادرة تخفيف أو اعتدال في موقف قريش مع النبي ﷺ، أما عقبة بن أبي مُعيط فلعله كان دون ذلك، حتى إن عقبة لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجاء الناس إليه يركضون يقولون: صبأ ابن الخطاب. كان يقول: لقد وصل أمر هذا الدين ورسوخه وقبول الناس له إلى درجة لا يصبح معها من المجدي أن تقفوا ضده أو تحاربوه، رجل اختار لنفسه دينًا، فدعوه وما اختار لنفسه.

لقد كانا صديقين، لكن عقبة كان من الذين كفروا فقط، وأما أُبي بن خلف فقد كان من الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله.

يذكر أن رجلًا جاء إلى أُبي بن خلف وقال له: أرأيت ما جرى من عقبة ابن أبي مُعيط -صديق العمر والمسامرات والمساهرات، والسفر والإقامة



والعلاقات الحميمية- لقد ذهب إلى محمد، وألان له في القول، بل دعاه إلى بيته واستضافه وأكرمه، وقد يكون ألان له أو أعلن الدخول في الإسلام.

فجاء أُبي بن خلف منتفشًا منتفخًا متغطرسًا، وقال لعقبة: لقد بلغني كذا وكذا، وجهي من وجهك حرام حتى تأتي محمدًا فتبصق في وجهه.

لقد كان أُبيٌّ من أصحاب الشخصيات الطاغية المخوفة، بينما كان عقبة ألين من ذلك، فاستسلم له وقال: أفعل. وذهب ينفذ ما أمره به أُبي بن خلف، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩][1].

سياق هذه القصة عجيب تلحظ فيه الموقف العدواني الآثم من أكابر كفار قريش الذين كانوا يحاربون حرية الناس في دينهم، ويقاومون كل بادرة سلام أو اعتدال في مواجهة الدعوة الربانية الصادقة، ومثل هذا المظهر موجود في كل زمان ومكان، وهناك أنواع من الناس لا يقتصرون على رفض الدعوة في أنفسهم، بل يحولون بين الناس وبينها.

وفي القصة أيضًا: أن العرب في الجاهلية كانوا أهل كرم وجود وأريحية، يهزهم الشعر والمعاني الجميلة، ويتمدحون بها ويتبارون بها، ويثنون على آبائهم وأجدادهم وقبائلهم بهذه المعاني:

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٠٧)، وتفسير الطبري (١٩/ ٨)، وتفسير القرطبي (١٦/ ١٠٩)، والبداية والنهاية (٣/ ٨٩)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٥١)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ٢٠٠).

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّـةَ مُشْـمَعِـلٌّ وَآخَرُ فَوْقَ دَارَتِهِ يُنَـادِي
إِلَى رُدُحٍ مِنَ الشِّيزَى عَلَيْهَا لُبَابُ الْبُرِّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ

ويقول زهير:

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْـمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
ومَا يَـكُ مِـنْ خَيْرٍ أَتَـوْهُ فَإِنَّمَـا تَـوَارَثَـهُ آبَـاءُ آبَـائِهِـمْ قَبْـلُ

كانوا يتمدحون بالكرم والجود والمراجل، بينما تجد الدناءة والوضاعة إلى حد أن يجرِّئ أُبيٌّ عقبةَ على أن يأتي محمدًا ﷺ فيبصق في وجهه.

ولَعَمْر الله لقد علموا أن محمدًا ﷺ من علو المكانة، وعظمة المنزلة، وقوة الأخلاق، وكمال الشخصية، ووفور المجد بالدرجة التي لا يدانيها أحد منهم ولا من غيرهم، وإنما هي العداوة والبغضاء التي حلت في قلوبهم أمام مواجهة دعوة الحق التي لم يطيقوا لها تحملًا ولا صبرًا.

❖ قتيل رسول الله:

كان أبي بن خلف يهدد النبي ﷺ بأنه سوف يقتله، بينما يتوعده النبي ﷺ بأنه هو الذي سوف يقتله، ويلتقي الجيشان في أحد، فقال أُبي: لا والله لن أرجع حتى أقتل محمدًا. فقام إليه النبي ﷺ، وكان ذلك الرجل عليه الحديد والدروع، لا يكاد يظهر من جسده بقعة إلا وعليها الدرع أو الخوذة أو الحديد يحميه من السلاح، فرماه النبي ﷺ، فأصاب موضعًا في نحره ضيقًا، فخدشه بالحربة خدشًا يسيرًا، فرجع إلى قومه وله عويل فقالوا: لا يضرك فلو كانت في عينك لما ضرتك، قال: والله لو بصق علي محمد لقتلني؛ أليس قال: إنه



قاتلي؟ وفعلًا كانت هذه هي القاضية بالنسبة له ومات.

كان أُبي بن خلف هو الرجل الوحيد الذي قتله النبي ﷺ، لم يقتله ﷺ بقولته القديمة تلك، فإنه ﷺ صاحب الكرم والجود والتسامح، وإنما قتله لأنه جاء معتديًا شاهرًا سلاحه ليقتل النبي ﷺ، فدفع الله شره وكفاه إثمه.

❖ البائس الوحيد:

نعم، هو الوحيد الذي قتله النبي ﷺ، وهذا معنى لا نستطيع أن نتجاوزه في أن نقول: إن نبيًّا في عظمته ﷺ لم يقتل طيلة عمره إلا رجلًا واحدًا[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الأمر وقد أجاد وأصاب: إن النبي ﷺ لم يقتل إلا رجلًا واحدًا، وكثرة القتل لا يمدح بها، فإنه لا يمدح ملك ولا حاكم ولا أمير ولا قائد جيش ولا نبي بكثرة مَن قتله، وإنما يمدح بكثرة مَن أحياه[٢].

فالنبي ﷺ أحيا الله به أممًا من الناس، أحياهم من الجهالة والضلالة والظلم والضياع، وجعل لحياتهم معنى، وجدد إنسانيتهم وإيمانهم، فأصبحوا قادة وأئمة، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص:٨٣]. وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥].

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٧٣١)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٧-٦٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٨٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤١٦)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٢).

(٢) ينظر: منهاج السنة النبوية (٨/ ٧٨).

فالنبي ﷺ يمدح بكثرة مَن أحياهم وليس بكثرة مَن قتل، وفي هذا رد على ما في بعض دوائر الإعلام الغربي، من وصف النبي ﷺ بأنه الرجل السفاك القتال المتعطش للدماء، بينما لم يقتل في حياته كلها إلا شخصًا واحدًا، جاء يهدد ويزمجر ويتوعد بأنه سوف يقتل النبي ﷺ، وأما كثرة من أحياهم فلا تسأل عن عددهم.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧]. فالإنسان حينما يغضب أو ينفعل أو يندم قد يعض إصبعه إبهامه أو السبابة.

بينما الآيات تتحدث عن رجل يعض يديه، فيعض هذه اليد مرة، ويعض الأخرى مرة أخرى، وليس فقط إصبعه، وهو يفعل ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

إذًا: هما اثنتان، فهو يتمنى أنه اتبع سبيل الرسول، وأنه أحسن اختيار الصديق الصالح الذي يعينه على الخير.

إذًا: يجب أن نختار الصديق الصالح الذي هو عون على الطاعة.

وهنا أمر مهم، وهو أن الرجل كان يتحسر على صداقة أصدقاء السوء:

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]. وكم من إنسان تحرك في قلبه إيمان أو همة فاضلة، فكان أصدقاء السوء هم السبب في حرمانه من ذلك، فاختر صديقك؛ فإنه يكتب معك حاضرك ومستقبلك.





حفظ العورات



❖ محفوظ قبل النبوة:

في «الصحيح» عن جابر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة. قال: فحله فجعله على منكبيه فسقط مغشيًّا عليه، فما رُئِيَ بعد ذلك عُريانًا ﷺ(١).

هذا الأمر كان في الجاهلية، وهو من حفظ الله للنبي ﷺ، وقد ورد في غير ما رواية في السنة النبوية أنه ﷺ لم يقارف شيئًا مما كان يعمله الشبان مثله في الجاهلية، فقد عصمه ربه جل وتعالى بعصمة النبوة فيما بعد، فلم يقارف شيئًا من ذلك، ولم يشرب ولم يجالس، لقد حفظه الله تعالى في الجاهلية، فكان يميل إلى التعبد والتدين، والذكر والإحسان، والمعاني الراقية الجليلة، ويرفع نفسه عما سوى ذلك، فكان هذا من حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ في طهارة ونقاء

(١) أخرجه أحمد (١٤٣٧١، ١٤٦١٨)، والبخاري (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠)، وأبو يعلى (٢٢٤٣)، والبيهقي (٣٠٤٢)، وفي شعب الإيمان (٧٧٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٩).



عرضه وحسن الأحدوثة عنه.

ثم معنى آخر في هذا الحديث: أن النبي ﷺ خر على الأرض؛ لأنه لم يتعود أن يُرى من عورته شيء، فلم يُرَ عُريانًا بعد ذلك قط، وقد كانت قريش تتساهل في ذلك، ولا ترى به بأسًا في المناسبات وأحيانًا في الطواف وغير ذلك، فقد كانوا يطوفون بالبيت عُراة؛ لأنهم يقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها. أما النبي ﷺ فما كان يوافقهم على ذلك، ولا يقرهم عليه حتى في الجاهلية، فقد حفظه ربه.

❖ حضارة العري:

إننا في عصر الحضارة، ولعل من قيم الحضارة الحقيقية المحافظة على إنسانية الإنسان، التي تميزه عن الحيوان بالعقل والحياء والأخلاق، وهذا شيء واضح، ولذلك كان من قيم الحضارة الحقيقية ومعاني الثقافة الراقية، الهندام والثياب واللباس، قال ربنا سبحانه: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴾ [الأعراف:٢٦].

امتن الله تعالى باللباس على الناس: ذكورهم وإناثهم، وإذا تحدثنا عن حضارة الغاب، تحدثنا عن الجماعات البدائية التي كانت لا تلبس الثياب، ولا ترى بأسًا في إظهار العورات، ولا تستحي من ذلك، إن الإنسان كلما تعلم وتهذب كان أكثر خجلًا وحياءً من أن يرى منه ما لا يحسن ولا يجمل، فما بال الحضارة اليوم وصلت إلى تحويل الثياب التي هي للستر وللعفاف وللحفاظ على الخصوصية البشرية؛ تحولت إلى وسيلة للإغراء والفتنة والإباحية،

وأصبحت كثير من دور الأزياء في العالم تتاجر بجسد المرأة، وكلما أظهرت المرأة المزيد من جسدها؛ كلما كانت الحفاوة بها أكثر في عروض الأزياء، وفي القنوات الفضائية.

إن العري والإثارة واستخدام كل وسائل التقنية المتقدمة من القنوات.. والمواقع الإلكترونية.. والفتنة والإغراء، من كيد الشيطان وخطواته، فهو الذي عمل هذا أو حاوله بأبوينا في الجنة: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

وأرباب المال والإعلام من الصهاينة وغيرهم في العالم الغربي ووكلائهم في العالم الشرقي حولوا كثيرًا من وسائل الإعلام التي يفترض أن تخاطب عقول الناس وقلوبهم، وأن تحل مشكلاتهم وأن تعنى بظروفهم الاقتصادية.. والاجتماعية.. وبتعريف الناس بسبل العيش الكريم، عوضا عن أن تنهمك في هذا الهم الإنساني الصادق، حولوها لتنهمك في تنافس محموم: أيها أكثر إغراءً ودغدغةً للعواطف والمشاعر، وحاولت أن تلعب على وتر الشباب الضائع، الذي ربما أغلقت أمامه الأبواب، وسدت في وجهه سبل الحياة، فأصبح يكفيه أن يجلس طويلًا أمام الشاشة لينظر إلى الأجساد العارية، وإلى العروض التي تؤذي القلب وإن ألهت العين، وفي نهايتها ليست سوى جرعة من المخدر لا تهيئ الإنسان لمواجهة الحياة التي تتطلب القوة والصبر والاستعداد، ومثل هذه الأشياء تربي في الإنسان الضعف والخور والانهيار، ولا تربي فيه المواجهة الصادقة للحياة.

أين البرامج الهادفة؟ أين البرامج الجادة؟ أين البرامج الشبابية؟ أنا لا أتحدث بالضرورة عن برنامج فتوى أو وعظ ديني محض فحسب، ولكنني أتحدث عن برامج تعالج مشكلات الحياة، وتهيئ شبابنا لمواجهة التحديات، وتجهزه بما يتطلب وجوده كمسؤول في بيت، أو كطالب في جامعة، أو موظف في إدارة.

يجب ألا تظل بلادنا الإسلامية تجتر تخلفها وضعفها وتراجعها، والسبب هو الإنسان الذي لم يتم إعداده بشكل صحيح، فأصبحت الشهوة هي المسير الأقوى، وثمة فئة من ضحايا هذه الوسائل تحتاج إلى يقظة وإلى تدريب.

❖ كلنا شركاء:

إن معاني الحفاظ على الجسد وستر العورات يجب أن يتلقاها الجميع، فالحياء جزء من فطرة الإنسان، ومن فطرة الأنثى على وجه الخصوص، وكلما كانت الفتاة أكثر حياءً، كان هذا أدل على أنوثتها، وأرغب لها وأبقى.

إن الفتاة بحاجة إلى أن تؤمِّن مستقبلها، ليس فقط وهي بنت العشرين، بل وهي بنت الثلاثين والأربعين والخمسين، بل وهي تجلس إلى سن الشيخوخة والكبر، لتحمل معها الذكريات الجميلة، لا أن تجد في تاريخها ما تستحي أن تتحدث عنه عند أبنائها وأولادها وأحفادها.

الكثيرون يقولون -وأظنهم صادقين-: إن هذه القنوات وهذه الوسائل والمواقع والدور وغيرها تقدِّم للناس ما يطلبون. وهذا معناه أن ثمة خللًا في المتلقي والمجتمع، وقد يكون الكثير منا يذم هذه القنوات الفضائية وهو

يسهر عندها، أو يذم هذه المواقع الإباحية وهو يتسلل إليها، وفرق أي فرق بين أن تستثمر بعض وسائل اللباس بين الزوجين لمزيد المتعة الحلال، ولإشباع الغرائز فيما أحل الله عز وجل، والكثيرون قد يعرضون عن هذا، ولا يلتفتون إليه، بينما يتم إعداد الزينة على أوجها وأقوى سبلها حين يكون الأمر في غير طاعة الله وفي غير بيت الزوجية.

إننا -معشر المتلقين- مسؤولون عن ذلك؛ لأننا نقبل على تلك الوسائل، ونخاطبها ونراسلها ونتصل بها، ونبعث إليها بـ(الرسائل السريعة)، ولو أننا قاطعنا كل ما لا يتفق مع قيمنا وديننا وأخلاقنا لاستطعنا أن نحمل الناس على أن يقدموا لنا ما يناسبنا.

لقد كان النبي ﷺ قبل أن يُوحَى إليه لا يراه الناس إلا وهو بكامل لباسه ﷺ، وحينما هَمَّ بما هَمَّ به خَرَّ ﷺ حتى لم يُر منه بعد ذلك شيء، فما بال أقوام من أتباعه ﷺ والذين يطمعون أن يحشروا معه، وأن يردوا حوضه، وأن يروه يوم القيامة يخالفون هديه بعد ما استبان السبيل وقامت الحجة، فيظهر منهم ما لا يحمد، أو ينظرون إلى عورات الناس ويتمتعون بذلك.



البلد الأمين



❖ البيت الأول.. الأخير:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

إن الله يخلق ما يشاء ويختار، وقد اختار هذا البلد الأمين ليكون مثابة للناس وأمنًا، وأن يكون فيه بيته الذي اختاره على الأرض كلها، فهو أطهر البقاع وأحبها إليه عز وجل، وأذن الله تعالى أن يحجه الناس ويعتمروه ويصلوا إليه، وأن يكون هو محل الرسالة الأخيرة الخاتمة، وقد حجه الرسل والأنبياء، وطافوا به وسعوا ولبوا لله الواحد القهار.

هذا المكان الطيب الذي اختاره الله تعالى من فوق سبع سماوات، وهذه البقعة الطاهرة والبيت العتيق والمكان الآمن هو محضن بقية النبوات.

يقسم الله جل وعز بالتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، فتلحظ أن القسم بدأ بالتين والزيتون، وهي مواقع ومنابت أشجار التين والزيتون في أرض الشام وفلسطين حيث نبوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وعيسى عليهم السلام، ثم بطور سينين، وهو الجبل الذي كانت فيه نبوة موسى عليه الصلاة

والسلام، ثم يقسم بهذا البلد الأمين حيث تنطلق نبوة محمد ﷺ، فيأتي القسم أوضح ما يكون مشفوعًا بالإشارة: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين:٣] الذي تراه بعينك وتحسه كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد:٢].

فأنت حال به مقيم، تراه بعينك وتحسه من حولك، ثم هو معروف، فهو البلد والأرض الحرام التي خصها الله تعالى وسماها، وأذن بأن تكون كالشامة في الأرض، فهي مركز الكرة الأرضية، ومنطلق الرسالة.

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**»[(١)] يعني: يعود إليهما.

إذًا: مسجدا مكة والمدينة منطلق الإسلام وموئله في آخر الزمان.

وهذا البلد هو البلد الأمين، فالأمن صفة لهذا البلد، فهو البلد الذي أذن الله تعالى بحفظه، حتى حينما تكون الأرض من حوله مليئة بالمخاوف فإن هذا البلد يظل أكثر أمنًا من غيره، وفي الجاهلية كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه فلا يخيفه ولا يفزعه، وظل البيت بحفظ الله عز وجل مثابة للناس وأمنًا.

هذا البيت قد بين الله تعالى مكانه ومقامه، وأنه فيه مقام إبراهيم ﷺ، وهذا المقام قد يكون الحجر الذي ترى فيه آثار إبراهيم ﷺ، وهو الذي أشار إليه أبو طالب حين يقول:

وَمَوطِئِ إِبراهيمَ في الصَخرِ رَطبَةً   عَلى قَدَمَيهِ حافِيًا غَيرَ ناعِلِ[(٢)]

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٤)، ومسلم (١٤٦)، وأبو يعلى (٧٥٦).

(٢) ينظر: ديوان أبي طالب (ص٦٥).

وقد يكون الحرم كله مقام إبراهيم، ولا مانع من إرادة المعنيين معًا.

أذن ربنا جل وعز أن يكون هذا البلد آخر ما يفتح للنبي ﷺ، فيفتح البلد الأمين، ويعود إلى الرحاب الطاهرة، وتزول أحكام الجاهلية ومظاهر الشرك والتخلف التي كانت تمارس في هذا البيت العتيق، زالت هذه المظاهر فلا يعبد إلا الله عز وجل، وانطمست كل آثار الجاهلية، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

❖ نصر من الله وفتح قريب:

يفتح البلد الحرام وتدين الجزيرة للإسلام، وينزل الوحي على الرسول ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

لقد دخل النبي ﷺ مكة وهو مطأطئ رأسه خضوعًا وتواضعًا لله عز وجل[١]؛ لأنه لم يكن ملكًا رسولًا، وإنما اختار أن يكون عبدًا رسولًا.

جاء نصر الله وليس نصر أحد من البشر، فالدين لله والأمر لله، كانت دعوة إلهية ربانية تجدد دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولذلك سماه: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر:١]، وقرنه بالفتح، فالفتح فتح مكة، ونصر الله تعالى أوسع من ذلك، سلسلة طويلة من الأعمال والإنجازات ليست مختصرة في المغازي والحروب، وإنما كانت مجهودًا بشريًّا متكاملًا يقوم على الدعوة بالحسنى، والكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، واستخدام القوة في

---

(١) ينظر: المستدرك (٣/ ٤٧)، (٤/ ٣١٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٦٧-٦٨)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٥٤٨)، وفتح الباري (٨/ ١٨).

مواضعها: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

❖ فتح لا توسع:

نصر الله تعالى جاء وفتح مكة جاء أيضًا: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر:٢]. لم يكن المقصود أن تؤخذ أموال الناس، فقد أقرهم النبي ﷺ على بيوتهم وممتلكاتهم، بل أكثر من ذلك، لما قيل له: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال النبي ﷺ: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ؟**»(١).

تخلى المسلمون عن بيوتهم وأموالهم التي أخذت منهم واحتسبوها عند الله عز وجل.

كان الأمر أبعد ما يكون عن السلطان الدنيوي، وهذه أعظم ميزات الإسلام.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ كان الأمر متعلقًا بالدعوة إلى الله عز وجل، وقد علم الله سبحانه أن من طبيعة الإنسان التسلط والعدوان، وقديمًا كان المتنبي يقول:

والظُّلمُ مِن شِيَمِ النُّفوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِم!

ولكن بالتقوى والإيمان ودوام المراقبة يتم إقصاء هذه الصفات عن أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١)، وابن ماجه (٢٧٣٠)، والنسائي في الكبرى (٤٢٥٥)، وابن حبان (٥١٤٩)، والطبراني في الكبير (٤١٣)، والدارقطني (٣/ ٦٢)، والحاكم (٢/ ٦٥٨)، والبيهقي (١٢٠٠٦، ١٨٠٦٣).

تؤثر في سلوك المؤمنين، أو تحكم تصرفاتهم، وهذا يحتاج إلى صبر وتربية ومجاهدة، وهو الذي فعله النبي ﷺ مع أصحابه خصوصًا الصحابة الذين قادوا الجيوش، والمؤمنين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكانوا بحق هم قادة البشرية، انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم، وأصبحوا أساتذة الحضارة البشرية في التاريخ كله.

كانت القضية دعوة إلى الله عز وجل، وزحزحة للعوائق والحواجز التي تقف بين الناس وبين الدينونة للحق والفطرة.

❖ حسن الختام:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾. كانت هذه الكلمة إشارة إلى أن النبي ﷺ يعيش أيامه الأخيرة، فما بعد الفتح الذي وعد الله تعالى به إلا التسبيح والاستغفار، والاستغفار هو خاتمة الأعمال، فالعبد يختم صلاته بالاستغفار، ويختم الحج بالاستغفار، ويختم الأعمال الصالحة بمثل ذلك، وحياته أيضًا يختمها بالاستغفار، وهو الذي كان يستغفر في اليوم سبعين مرة[١]، وفي رواية: مائة مرة[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧٨٠، ٨٤٧٤)، والبخاري (٦٣٠٧)، وابن ماجه (٣٨١٦)، والترمذي (٣٢٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٦٧، ١٠٢٧٣)، وابن حبان (٩٢٥)، والطبراني في الأوسط (٢٣٩٧، ٤٢٢٢، ٨٧٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) أخرجه الطيالسي (٤٢٧)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٤٢، ٣٥٠٧١)، وأحمد (١٧٨٨١، ٢٣٤١٠، ٢٣٤٦٩)، ومسلم (٢٧٠٢)، وابن ماجه (٣٨١٥)، والترمذي (٣٢٥٩)، والطبراني في الأوسط (٣١٧٣)، والحاكم (١/ ٦٩١)، (٢/ ٤٩٦).

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾.

هكذا هي النهاية: أن يقضي النبي ﷺ حياته مجاهدًا في ذات الله، ويختمها مستغفرًا لجلال ربه جل وتعالى، فاللهم صل على محمد وعلى آل محمد.



فهرس المحتويات



